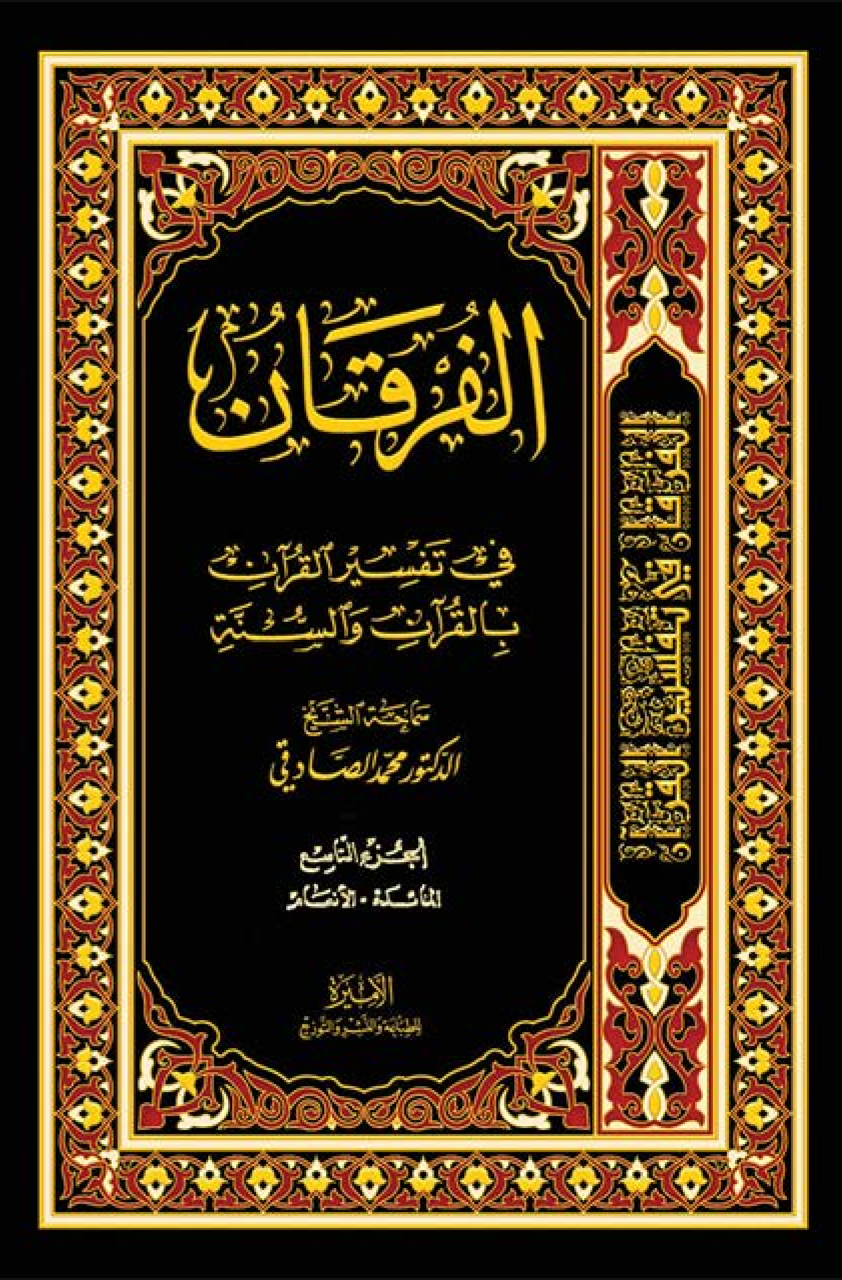
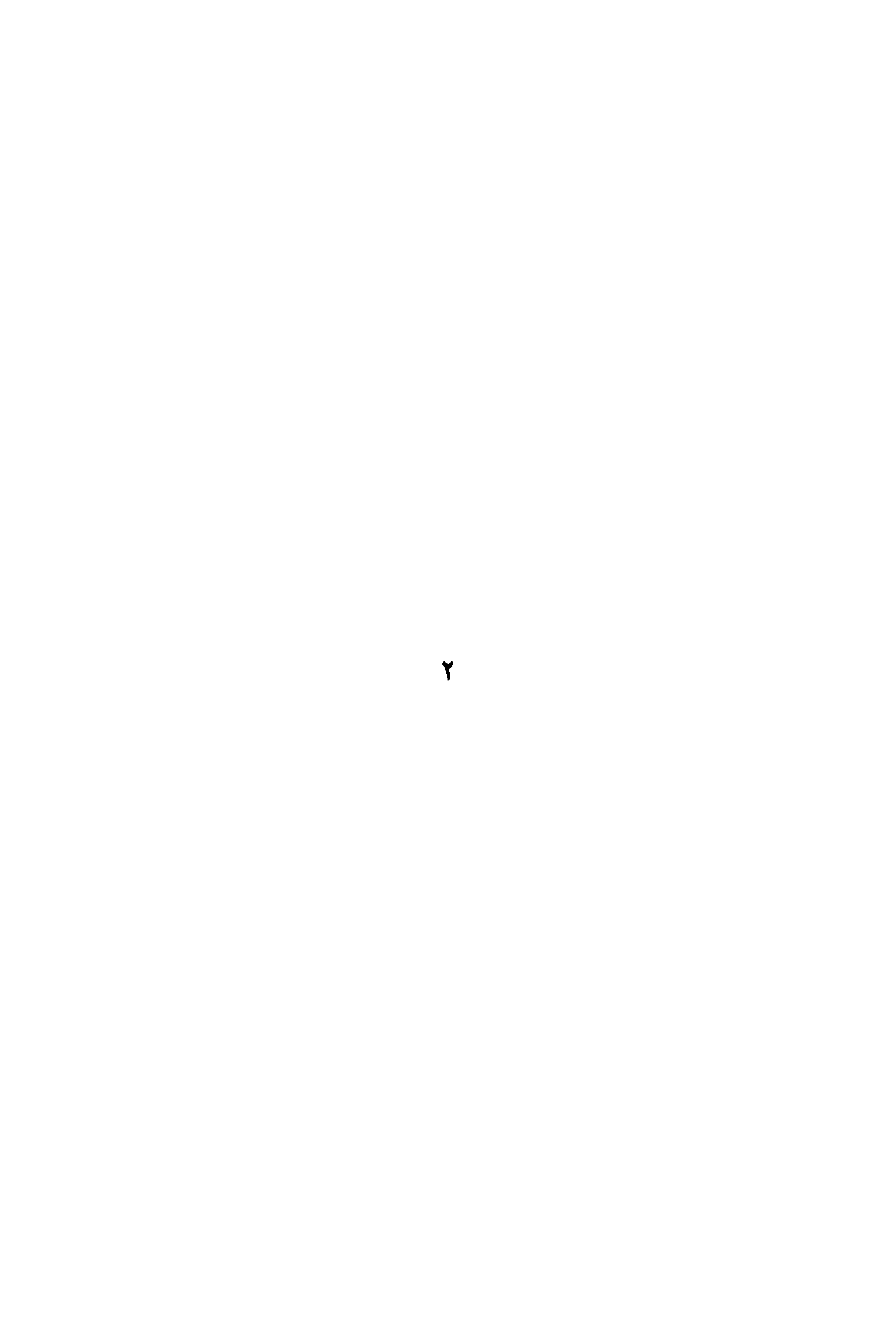


الفرقان
في تفسير القرآن بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء التاسع
المائدة - الأنعام
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة



٢

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

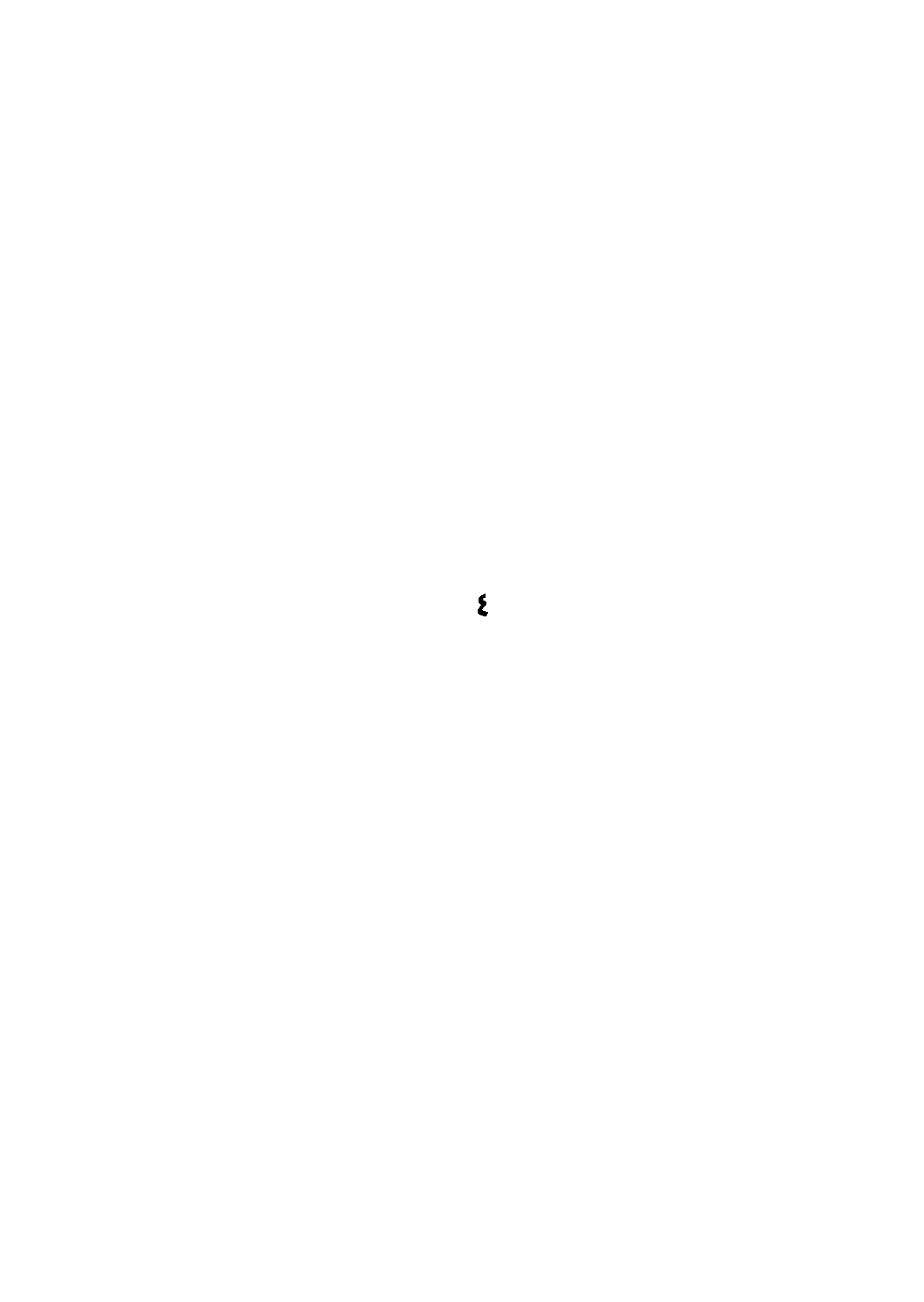
الجزء التاسع

تتمة سورة المائدة - سورة الأنعام

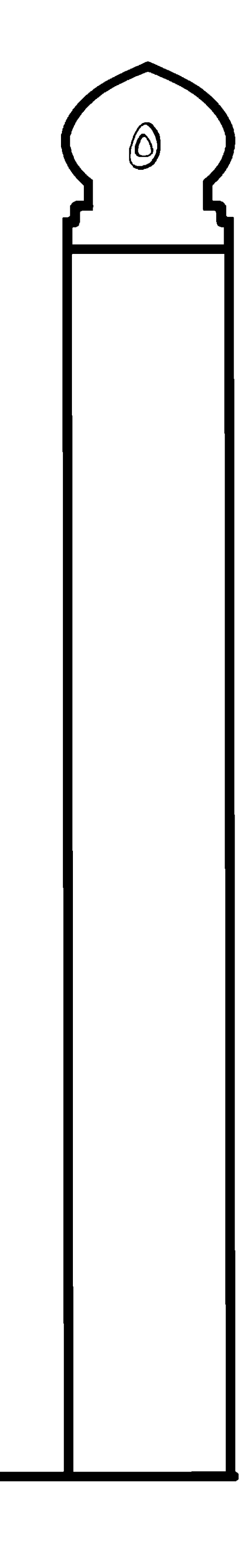
سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي





٤



تتمة

سُورَةُ المَائِدَةِ


٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ
ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾
قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا
وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟
يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى
ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾
لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ
ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾
فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ
وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾:

آية التبليغ هذه هي من معتركات الآراء بين الفريقين المسلمَين، هل هي تبليغ ما أنزل إلى الرسول ﷺ ككُلّ؟ أم كبعض مما أنزل إليه ونحن لا نعرفه؟ أم هي تحمل أمر التبليغ لولاية الأمر بعد الرسول ﷺ [(١)].

وهذه الآية نفسها، ودون النظر إلى مُلابسات نزولها - العدة - تدلنا إلى المعنيِّ منها صارحة صارخة، حين تكون النظرة مجرّدة عن مُلابسات مُتعوَّدة وقضايا مذهبية وزوايا العصبية، فكما الله مستقل بذاته في ألوهيته، كذلك كتابه مستقل في دلالته في دعوته.

فترى ماذا يُعنى هنا من ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ وهي من أُخريات ما نزلت في المائدة وقد نفض الرسول ﷺ يديه عن تبليغ الرسالة الإسلامية بكلٍّ أصولها وفروعها، فلم يبق إلّا أن يرتحل إلى جوار رحمة ربه، نافضاً يديه عن كلِّ ما كان عليه؟ اللهم إلّا . .

عناية كلّ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ برُمتها تحوِّل الآية إلى تهديد السلب بالسلب: «وإن لم تبلغ ما أنزل إليك فما بلغت ما أنزل إليك» توضيح فضيح للواضح وَضْحَ النهار، أن كلَّ تاركٍ لشيء تاركٌ له! ذلك، ولم يسبق لذلك التعبير من نظير لهذا البشير النذير.

ثم وتراه أمر بتبليغ كلّ ما أنزل إليه دفعة واحدة؟ ولم ينزل إليه دفعة واحدة حتى يبلغها دفعة واحدة! كيف وقد نزل ما نزل إليه نجوماً تدريجية:

---

(١) ذكر الفخر الرازي وجوهاً عشرة عاشرها الذي لم يرض بها تماماً هو أنها نزلت بحق الإمام علي عليه السلام رغم أن الوجوه التسعة قبلها لا تناسب دلالة الكتاب والسنة، بل هي وجوه مخترعة لتسدّ عن الوجه الوجيه لمَنزِل الآية.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾[1] - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾[2].

ومن ثمَّ فما هو الحكم النازل عليه منذ بُزوغ رسالته حتى الآن لم يبلغه؟ والأحكام القرآنية معروفة، كلما نزلت آية أو آيات كان يقرؤها مباشرة ودون مُكثٍ، فلم يكن مكثهُ إلّا حسب مكث نزولها ليس إلَّا وكما أمر دون أي تباطُوءٍ.

إذاً فهو بعض ما أنزل إليه، فما هو ذلك البعض الذي لو لم يبلغه لم يبلغ شيئاً من رسالته؟ فإن ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ تعني كلّها دون البعض منها وإلَّا لكانت العبارة «لم تبلغ ما أنزل إليك» أو «لم تبلغه» والنص ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ككلٍّ، فقد كانت رسالته هذه مربوطة النياط بتبليغ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو النازل الخاص إليه الذي يضمن في حضنه كلّ النازل عليه من رسالة الله من حيث المحتد والمنزلة.

فما هو ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الذي ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ وهو تعبيرٌ مُنْقَطِعُ النظير في سائر القرآن يحمل حُكْماً منقطع النظير يبلغه ذلك البشير النذير تحقيقاً لبلاغ رسالة الله هذه الخالدة إلى يوم الدين؟.

ومن سِمات ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هنا المُسماة تلويحا فوق كلِّ تصريح أنه ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ دون «الله» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» مما يلمح صارخاً صارخاً أن ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يجمع في حضنه كلَّ الربوبية الربانية الخاصة بهذه الرسالة السامية! فهو في وحدته يحمل كلَّ رسالات الله! فـ ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ تبليغ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وأنت في حالة الارتحال إلى ربك بين آونةٍ وأخرى ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ المتمثلة فيما ربّاك به ربك رسولية ورسالية.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

ذلك، لأن ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تجمع تلك التربية الرسولية والرسالية القمّة المُنْقَطِعَة النظير عن كلّ بشير ونذير، وهي الشرعة الخالدة القرآنية بمن ينذر بها ويُبشَّر إلى يوم الدين كما ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[(١)].

أتراها بعدُ أنها التوحيد؟ وقد بزغت به الرسالة وحتى النفس الأخير، أم هو من سائر الأصول الإسلامية؟ فكذلك الأمر! فضلاً عن فرعٍ من الفروع أم وسائر الفروع! إضافة إلى أن الفروع غير مترابطة لحدٍّ لا يصح بعض دون أخرى وهكذا الأصول.

هنا نتأكد أن ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ليس لا من هذه الأصول ولا من هذه الفروع، حيث الرسول ﷺ عاش حياته الرسالية بلاغاً لها كلّها فور نزول كلٍّ منها دونما أي إبطاء، ثم ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حيث نجد ها هنا ولمرة يتيمة في القرآن كلّه، هذه لا تناسب أهم الأصول وهو التوحيد وقد أعلنه منذ البداية حتى النهاية إعلاناً وإعلاماً دائماً دونما تخوُّف من جوٍّ الإشراك، ولا الرسالة الجديدة الجادّة التي كانت تُحارِبها الشرعة الكتابية مع سائر الطوائف مُلحدين ومُشركين، فضلاً عن الفروع الأحكامية المخاطب بها المؤمنون بهذه الرسالة!.

وهذه عساكر من البراهين المجنَّدة لتبيّن أن ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لا تعني الوجوه غير الوجيهة المسرودة في بعض الكتابات التفسيرية المشككة، إنما هي نفس الرسالة المحمدية باستمراريتها إلى يوم الدين، فهي هي الخلافة العاصمة لها المعصومة كنفس الرسالة، لأنها استمرارية صالحة لهذه الرسالة السامية، فمهما صرح القرآن بخلوده - في آيات عدة - كقانون، كان مكان التصريح بالقيادة المعصومة الحاكمة بالقرآن خالياً.

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

وترى ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ هو النازل عليه بِلُغة القرآن أم بِلُغة السنة؟ علَّة بِلُغة القرآن وعلى ضوئه السُّنة في آيات الولاية الرسالية[1] ورواياتها حيث الأهمية الكبرى لمادة ذلك البلاغ تقتضي أن تذكر في القرآن والسُّنة بصيغ مختلفة، ولكنها لمَّا تبلَّغ بصورة رسمية واضحة لا تقبل التأويل، فللجمع بين نصوص الولاية بتفسير بليغ في ذلك الحشد العام الهائم أهميته المنقطعة النظير لهذا البشر النذير.

ولذلك نرى في خطبة البلاغ تركيزاً بارزاً على هذه الآيات وتلكم الروايات، تبليغاً بليغاً فائق التصور، بالغ التصديق الحقيق، وأهم الآيات في مادة البلاغ هي آية النصب في الانشراح وآية الولاية في نفس المائدة،

(١) وتلكم الآيات أمثال آية: ٥ - التطهير ٢ - والمباهلة و٣ -: آية الولاية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المَائدة: ٥٥] وآية: ٤ - الطاعة: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النِّساء: ٥٩] وآيات ٥ - المودة في القربى وآية: ٦ - ميراث الكتاب ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [فَاطِر: ٣٢] مكية ٧ - ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ [الأحزاب: ٦]، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]، ٨ - وآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي...﴾ [البَقَرَة: ٢٠٧] ٩ - ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ [الفُرقان: ٢٧] ١٠ - و﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾ [البقرة: ١٢٤] ١١ - ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هُود: ١٧] ١٢ - ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣] و١٣ - آية النصب ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشّرح: ٧] وهي بين مكيات ومدنيات تدل بمختلف الدلالات على خلافة العصمة بعد الرسول ﷺ ومن الأحاديث حديث الثقلين والوزارة والباب والأخوة.

والمصرحة من هذه الآيات هي آية الولاية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ...﴾ [المَائدة: ٥٥] النازلة في نفس المائدة وآية الطاعة وآية الميراث وآية النصب، ثم من بينها آية الولاية تبييناً لمعناها أنها الأولوية وكما يظهر من «ألست أولى بكم من أنفسكم»...

فآية التبليغ تحمل واجب البلاغ العام الجماهيري ببيان واضح ناصح عن هذه الخلافة المعصومة حيث الأفضلية الروحية قد لا تكفي سداً لثغر الاغتصاب فقد يقال إن القيادة الزمنية أمر غير القيادة الروحية وهما وإن اجتمعا في شخص الرسول ﷺ ولكنهما بعده قد يقتسمان، ولكن الولاية بمعنى الأولوية الطليقة الشرعية الشاملة للقيادة الزمنية والروحية تكفي بياناً عن هذه المهمة الكبرى، فآية ميراث الكتاب والعض وذا القربى مكيات وبقية الثلاث عشر مدنيات.

فإن سائر الآيات إنما تثبت الأفضلية الروحية، وقد يذب عنها بأن القيادة الزمنية قد تنفصل عن الروحية، وبلاغ آية الولاية تبيين لمعناها الأولوية كما الرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم[١].

---

(١) وهذا أهم الوجوه التي اعتمد عليها الرازي في تفسيره بين الوجوه العشرة، حيث رفض وجه ولاية الأمر واختار البقية وركز على مخافة أهل الكتاب لاحتفاف الآية بآيتي التنديد بهم قائلاً: واعلم أن هذه الروايات - التي تعني نزول الآية بشأن الغدير - وإن كثرت إلّا أن الأولى حملها على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى!.

وبقية الوجوه كالتالية: ١ - أنها نزلت في قصة الرجم والقصاص! وهل كان يخاف اليهود وهم كانوا تحت ذمته؟ ٢ - نزلت في عيب اليهود واستهزائهم بالدين والنبي سكت عنهم فنزلت! ومتى كان يسكت عن ذلك ولم يكن يسكت عن هزء المشركين في العهد المكي؟ ٣ - لما نزلت آية التخيير ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] فلم يعرضها عليهن خوفاً من اختيارهن الدنيا فنزلت! ولا خوف عن قراءة آية التخيير إذ لم تكن مهمته المقام معهن وهن يردن الحياة الدنيا! ٤ - أنها نزلت في أمر زيد وزينب؟ ولم يكتم الرسول ﷺ أصل زواجه بها اللهم إلّا هواه فيها كما أمر الله وقالت عائشة من زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد أعظم الفردية على الله والله تعالى يقول: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولو كتم رسول الله شيئاً من الوحي لكتم قوله: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

٥ - أنها نزلت في الجهاد فإن المنافقين كانوا يكرهونه فكان يمسك أحياناً عن حثّهم على الجهاد! وكيف هابهم ولم يكن يهاب المشركين الرسميين أن يقاتلهم؟ ٦ - لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] سكت الرسول ﷺ عن عيب آلهتهم فنزلت هذه الآية! وهل نزلت بسبّهم وعصمه عن أن يسبّوا الله عدوّاً بغير علم؟ ٧ - نزلت في حقوق المسلمين وذلك لأنه قال في حجة الوداع لما بين الشرايع والمناسك هل بلغت؟ قالوا: نعم قال ﷺ اللهم اشهد! وهلا بيّن الشرائع حتى بينها في حجة الوداع وما هي الشرائع التي لما يبنيها؟ ٨ - روي أنه ﷺ نزلت تحت شجرة في بعض أسفاره وعلق سيفه عليها فأتاه أعرابي وهو نائم فأخذ سيفه واخترطه وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال: الله فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف من يده وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه؟ وترى ما هو الذي أنزل إليه ولم يبلغها حتى حصل ما حصل وهكذا يضطرب مثل الرازي كالأرشية في الطوى البعيدة ويرجح ما لا يناسب تخوفه عن بلاغ ما أنزل إليه، فإن هذه الأمور هي كلها أدنى تخوفاً بكثير من أصل الدعوة التوحيدية في جموع المشركين وهذا القوم اللدا!

إذاً فـ ﴿بَلِّغْ﴾ أمر ببلاغ ما أُنزل عليه في العهدين: المكي والمدني كتاباً وسنّة، فمن المكي ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾[1] ومن المدني آية الولاية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ...﴾[2] وكما نسمع الرسول ﷺ في تبليغه الهام يوم الغدير يجمع بين هامتها ما نزل عليه في العهدين، شارحاً لها كما يجب بشأن الأولوية الزمنية والروحية لأئمة أهل البيت عليهم السلام.

فليس ذلك لأن آيات الولاية ورواياتها لم تكن لتدل على هذه الهامة الرسالية، فقد دلت واضحة وَضَحَ النهار! ولكن ﴿بَلِّغْ﴾ تعني بُعْدي الإيضاح البارع الذي لا يقبل أي تأويل، والإفصاح على رؤوس الأشهاد في حشد عامٍّ هامٍّ تُمد إليه الأعناق، ويعرف هامة بلاغه خاص وعام، ولا يقدر على إخفائه أصلاً ودلالة أي مسلم، خلاف النصوص الخاصة من السنة التي قد تُخفى، أم آيات قد تُؤول، اللهم إلّا آية الولاية في نفس السورة، وقد أمر بتبليغها تفسيراً لها يوم الغدير.

لذلك نراه صميماً على كتابة الوصية بذلك البلاغ حتى يتم اللفظ إلى الكتب، ولكنه حصل ما حصل!.

فلقد حَصْحَصَ الحق المعنيُّ من ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أنها البلاغ الذي لولاه فكأنما لم يكن الرسول مبلغاً لرسالة الله، فسواء ألم يبلغ رسالة الله بأسرها أم بلغها ولم يبلغ استمراريتها فيمن يمثلها رسولاً ورسالة.

فكما أن القانون الصالح دون من يُطبِّقه صالحاً هو غير صالح، والقانون غير الصالح مع من يُطبقه من الصالحين غير صالح، فلا بدّ لإصلاح المجتمع من صالح القانون وصالح من يُطبقه ويحكم به.

كذلك القرآن حيث يحمل الشرعة الأخيرة الخالدة لا يصلح شرعة أبدية لولا الرسول ﷺ ومن يَحْذو محذاه ويَنْحو مَنْحاه بعده دعوةً به وتطبيقاً له.

---

(١) سورة الشرح، الآيتان: ٧، ٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

فدور الرسول ﷺ زمن حياته هو دور الوحي قرآنياً وبسنته كأصل وضابطة، وأما التفسير الصالح المعصوم لذلك القانون المعصوم، بياناً لكلٍّ ما تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة، فهو بحاجة إلى دور الخلافة المعصومة طوال قرونها الظاهرة حتى تنضم كامل التبصرة إلى كمال القانون، ومن ثم - في زمن الغيبة - فالنواب العامون من الرعيل الأعلى من ربانيّ الأمة في شوراتهم الصالحة، هم مُدَراء الشرعة الذين يحق لهم أن يحكموا بالكتاب والسنة، ثم وفي دولة صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه يرجع دور الحكم إلى مدار العصمة كما كانت زمن الرسول ﷺ والأحد عشر الأئمة قبله عليهم السلام .

وهذه الأدوار المتتالية التي رسمها يوم الغدير ببلاغ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هي التي تكمِّل الدين وتتم النعمة حيث ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾. وهي التي تُؤيس الذين كفروا من نقض أو انتقاص ذلك الدين المتين.

فلا يعني يوم الغدير - فقط - يوم تأمير الأمير عليه السلام فإنما هو كنقطة بداية وانطلاق لتثبيت الاستمرارية الرسولية والرسالية فيمن يحملها وما يحملها من القرآن المعصوم والقوّاد المعصومين عليهم السلام .

فحقاً يُقال دونما مُجازفة أو مُبالغة ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ فحق الرسالة وحاقُّها كما استمراريتها بمن يمثِّل الرسول المعصوم ﷺ دعوةً بالكتاب المعصوم.

وهنا يحق القول ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾(١).

ذلك، وكلما كان الدين والقوانين أتم وأبقى، كانت الخلافة المعصومة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

للحفاظ عليه أَوْجَبَ وأَحْرَى، فكيف يُظن برسولنا الأعظم ﷺ أن يُهمل الأمة بعده بلا راعٍ يرعاها حقّ رعايتها رسولياً ورسالياً.

فلقد كان ﷺ إذا يخرج في غزوة أو غيرها يُخلِّف مكانه وبمكانته رجلاً يُدير رحى المجتمع الإسلامي حتى يرجع، كما خلَّف علياً عليه السلام قائلاً: «إن المدينة لا تَصْلُح إلّا بي أو بك».

فمن كان هذا دينه وهاتيك قوانينه وسيرته في حياته الرسولية المحدودة فما تظن به يفعل في حياته الرسالية بعده وإلى يوم القيامة؟ فهل تظنه يُهمل الأمة حيارى بعد ارتحاله تعصف بهم عواصف الضلالة دون ممثل له يمثله في قيادتهم الروحية والزمنية، مع أن الضرورة إلى ذلك أشدّ والحاجة إليه آكد!.

ذلك، وترى العصمة المضمونة للرسول ﷺ حتى يبلغ ما أنزل إليه هي العصمة عن بأس المشركين وقد فتحت عاصمة التوحيد من ذي قبل واستسلمت جموع الإشراك أمامه طَوْعاً أو كُرْهاً؟!.

أو ترى أن ضمان العصمة هو - فقط - عن بأس أهل الكتاب؟ وقد أسست دولة الإسلام في المدينة والرسول ﷺ يعيش قمة قوتها وشوكتها وهو في أخريات أيام حياته الرسولية؟!

وما احتفاف الآية بعصمتها بآيتي التنديد بأهل الكتاب - ولا سيّما في ترتيب التأليف الذي قد يختلف عن ترتيب التنزيل - ليس احتفافها هكذا مما يبرهن على أنه كان يخاف منهم في ذلك البلاغ، فإن دلَّ ذلك على شيء فإنما هو إنباءهم أن هذه الرسالة خالدة بكتابها ومن يُبشِّر بها من القمة العليا العاصمة المعصومة فـ ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1].

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

فمهما لم يكن ترتيب التنزيل قاصداً أحياناً حيث ينزل حسب الحاجات والطلبات غير المُترابطة أحياناً، فترتيب التأليف قاصدٌ دون ريب، وعلينا التدبر للحصول على تلك القصود الربانية في ترتيب التأليف، وهو هنا كما بيّنا من بين الرباط بينها وبين الآيتين، وما أبلغه رباطاً وأفصحه ترتيباً.

ذلك، وكيف يَخاف أهلَ الكتاب في أخريات أيامه وهو في قمة القوة والشوكة التي كان يهابها الملوك والرؤساء، ولم يكن يخاف المشركين الذين هم ألدّ منهم وأَخْطَر منذ بزوغ رسالته.

وما ذلك الاحتفاف الخاص بآيتي أهل الكتاب إلّا لأنهم هم الذين كانوا يأملون ختام هذه الرسالة بختام حياة الرسول ﷺ ويعملون لإنهائها بحيلٍ كتابية أكثر مما يحتاله المشركون.

ذلك، فالعصمة الموعودة هنا ليست إلّا عن هؤلاء الناس الناقمين من ولي الأمر بعده ﷺ مهما شملت عصمته عن كلِّ المخاوف بصورة طليقة ما كانت من ذي قبل كما ورد في أسباب النزول.

إذاً فماذا تراه كان يخافه الرسول ﷺ إن بلغ هاتيك الرسالة ببلاغ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ إلّا الخلافة المرموقة الممدودة إليها أعناق جموعٍ نعرفهم.

فليس الناس في ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ إلّا هؤلاء النسناس الناقمين ممن تحق له ولاية الأمر والإمرة بعد الرسول ﷺ حيث كان يخاف تهريجهم وتحريجهم على أصل الرسالة تكذيباً له ﷺ وهو بين ظهرانيهم، ولا يعني الكفر هنا إلّا الكفر بذلك البلاغ الرسالي الخاص.

أجل، إن الرسول ﷺ ما كان يخاف أن يُقتل في يوم من أيام رسالته، ولا في العهد المكي الهرج المرج الحرج، فهل كان يخاف في قمة القوة والسيادة أواخر العهد المدني!.

فـ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1] تسلب كلّ مخافة في الدعوة الرسالية عن كلِّ الرسل، فضلاً عن سيّد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل الخلق أجمعين، وفي قمة الشوكة والسلطة الروحية والزمنية!.

وحتى إن كان يخشى الناس أحياناً لم يكن يخشاهم على حياته، بل كان يخشاهم على رسالته أن تُهْتَك أو يُفْتَك بها كما في قصة زواجه بزوجة زيد بعد أن قضى منها وَطَراً، لأنه خلاف سنة جاهلية عريقة، ولكنه طبّق أمر الله على خشيته تلك التي هي في الحق خشية على رسالة الله.

وأما هنا فقد استمهل - دون إهمال - أمر ذلك البلاغ نِظَرة أمر جديد جادٍّ أو طمأنةٍ عن بأس الناس حتى نزلت ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فقام يوم الغدير بذلك البلاغ، إنه كان يخاف إن بلغ هاتيك الرسالة الهامة المرموقة الممدودة إليها الأعناق أن يكذبه نفرٌ ممن آمن به جهاراً متهمين إياه استغلاله في بلاغ الخلافة فتنفصم بها عُرى دعوته الرسالية فيكفرون ويكفر معهم آخرون، فيتزلزل أركان رسالته العالمية الخالدة بينما هو يُغادرهم إلى جِوار رحمة ربه.

لذلك، ولأن الأمر: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ ما كان مُحدداً بوقتٍ، كان يرى ترجيحاً مؤقتاً لأهم الأمرين أن يبطي تأجيلاً لذلك البلاغ نِظِرَة أمر يتلو لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً لا يكون هكذا إمراً، ويبدله من بعد عسره يسراً حتى نزلت آية البلاغ مرة ثالثة بهذه التأكيدات القيمة الحادّة الجادّة، مُطَمئِنة إياه عصمته عن بأس الناس فقد نزلت في الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ وزيدَ عليها في الثانية ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ثم في الثالثة ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

ذلك، ولقد أصفقت الأمة الاسلامية بأسرها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن المفسرين وسائر المؤلفين على نزول هذه الآية بشأن بلاغ الأمر لعليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام لحدٍّ نسمع ابن مسعود(٢) ينقل قراءتها

(١) ابن الفتال الشيرازي في روضة الواعظين عن الإمام الباقر في حديث مفصل قال الله لرسوله: فأقم يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم علياً علماً وخذ عليهم البيعة وجدِّد عهدي وميثاقي لهم الذي واثقتهم عليه فإني قابضك إلي فخشي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قومه وأهل النفاق والشقاق أن يتفرقوا ويرجعوا إلى الجاهلية لما عرف من عداوتهم ولما ينطوي عليه أنفسهم لعلي من العداوة والبغضاء وسُئل جبرائيل أن يسأل ربه العصمة من الناس وانتظر أن يأتيه جبرائيل بالعصمة من الناس من الله عز وجل فأخَّر ذلك إلى أن بلغ مسجد الخيف فأتاه جبرائيل وأمره أن يعهد عهده ويقيم حجته علياً للناس ولم يأته بالعصمة من الله عز وجل الذي أراد حتى بلغ كراع الغميم بين مكة والمدينة فأتاه جبرائيل وأمره بالذي أمر به من قبل ولم يأته بالعصمة فقال يا جبرائيل إني لأخشى قومي أن يكذبوني ولا يقبلوا قولي في علي فرحل فلما بلغ غدير خم قبل الجحفة بثلاثة أميال أتاه جبرائيل على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهار والعصمة من الناس فقال يا محمد: إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما جاءته العصمة - وذكر قصة البلاغ يوم الغدير على تفصيله إلى أن قال صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة الغدير: معاشر الناس ما قصرت عن تبليغ ما أنزله الله تعالى إلي وأنا مبين لكم سبب نزول هذه الآية: إن جبرائيل هبط إليّ مراراً ثلاثاً يأمرني عن السلام ربي وهو السلام أن أقوم في هذا المشهد فأعلم كلّ أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي وهو الإمام بعدي الذي مني محلّ هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي، هو وليكم بعد الله ورسوله - إلى آخر الخطبة الطويلة وقد طالت في الرمضاء زهاء ساعتين في ذلك الملإ العام من المسلمين.

(٢) الحافظ ابن مردويه ص ١٠٨ أخرج بإسناده ابن مسعود أنه قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ - إن علياً مولى المؤمنين - وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد رواه في الدر المنثور ٣: ٢٩٨ والشوكاني في فتح القدير والأربلي في كشف الغمة عنه عن زر عن ابن مسعود.

بزيادة - إن علياً مولى المؤمنين - مما خُيِّل إلى بعض البسطاء أنها كانت في الآية فأسقطت ولم تسقط إلَّا عقليته الإسلامية!.

ولقد ورد نزولها فيه عليه السلام بشأن قصة الغدير عن ثلاثين مصدراً من إخواننا[1] ورواته من الصحابة مائة وعشرون صحابياً ومن التابعين أربعة

---

(١) يذكرها المغفور له العلامة الأميني في ١: ٢١٤ - ٢٢٣ هكذا:
نزلت هذه الآية الشريفة يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة حجة الوداع (١٠ هـ) لما بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم غدير خم فأتاه جبرائيل بها على خمس ساعات مضت من النهار فقال: يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إن الله يقرئك السلام ويقول لك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ - في علي - وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ...﴾ [المائدة: ٦٧] وكان أوائل القوم - وهم مائة الف أو يزيدون - قريباً من الجحفة فأمره أن يرد من تقدم منهم ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان وأن يقيم علياً عليه السلام علماً للناس ويبلغهم ما أنزل الله فيه وأخبره بأن الله عز وجل قد عصمه من الناس، وما ذكرناه من المتسالم عليه عند أصحابنا الامامية غير أنا نحتجّ في المقام بأحاديث أهل السنة في ذلك فإليك البيان:
١ - الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب الولاية عن زيد بن أرقم قال: لما نزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بغدير خم في رجوعه عن حجة الوداع وكان في وقت الضحى وحرّ شديد أمر بالدوحات فقمّت ونادى الصلاة جامعة فاجتمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال: إن الله تعالى أنزل إلي: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ... وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقد أمرني جبرائيل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كلّ أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام بعدي فسألت جبرائيل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي وشدة إقبالي عليه حتى سموني أذناً فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٦١] ولو شئت أن أُسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكني بسترهم قد تكرمت فلم يرض الله إلّا بتبليغي فيه فاعلموا معاشر الناس ذلك، فإن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً وفرض طاعته على كلّ أحد ماض حُكمه جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدقه، اسمعوا وأطيعوا فإن الله مولاكم وعلي إمامكم، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة لا حلال إلّا ما أحلّه الله ورسوله ولا حرام إلّا ما حرَّمه الله ورسوله وهم فما من علم إلّا وقد أحصاه الله فيّ ونقلته إليه فلا تضلّوا عنه ولا تستنكفوا منه فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به، لن يتوب الله على أحد أنكره ولن يغفر له، حتماً على الله أن يفعل ذلك أن يُعذّبه عذاباً نكراً أبد الآبدين فهو أفضل الناس بعدي ما نزل =

وثمانون تابعياً وطبقات رواته من أئمة الحديث وحفاظه مائتان وستون نسمة والمؤلفون فيه من الفريقين ستة وعشرون، مما يجعل نزول هذه الآية بشأن غدير الأمير عليه السلام من قمة المتواترات الإسلامية، فلا محيدَ عن القول به إلّا لمن يكفُر بهذه الآية و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولقد بلغت من عصمته تعالى رسولَه صلى الله عليه وآله من بأس الناس في ذلك البلاغ المبين إلى أن هنّأ الإمام علياً عليه السلام في ولايته الشيخان وهما أَرْأَس الرؤوس في النقمة من إمرته عليه السلام يذكرها إخواننا عن ستين مصدراً ولا ينبيك مثل خبير إذ قالا له: بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كلِّ مؤمن ومؤمنة[1].

= الرزق ويقي الخلق، ملعون من خالفه، قولي عن جبرائيل عن الله فلتنظر نفس ما قدمت لغدٍ. افهموا محكم القرآن ولا تتبعوا مُتشابهه، ولن يفسر ذلك لكم إلّا من أنا آخذ بيده وشائل بعضده، ومعلمكم: إن من كنت مولاه فهذا علي مولاه وموالاته من الله عز وجل أنها أنزلها علي، ألا وقد أديت، ألا وقد بلّغت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، لا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره، ثم رفعه إلى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبي صلى الله عليه وآله وقال: معاشر الناس! هذا أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على من آمن بي وعلى تفسير كتاب ربي، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه والعن من أنكره واغضب على من جحد حقه، اللهم إنك أنزلت عند تبيين ذلك في علي: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائدة: ٣] بإمامته فمن لم يأتم به وبمن كان من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة فأولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون، إن إبليس أخرج آدم عليه السلام من الجنة مع كونه صفوة الله بالحسد فلا تحسدوا فتحبط أعمالكم وتزل أقدامكم، في علي نزلت سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١-٢].

معاشر الناس! آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارهم أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت، النور من الله فيّ ثم في علي ثم في النسل منه إلى القائم المهدي عليه السلام معاشر الناس سيكون من بعدي أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وإن الله وأنا بريئان منهم، إنهم وأنصارهم وأتباعهم في الدرك الأسفل من النار وسيجعلونها ملكاً اغتصاباً فعندها يفرغ لكم أيها الثقلان ويرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران - الحديث، ثم نقل قصة الغدير هذه عن بقية الثلاثين مصدراً.

(١) لقد روى حديث التهنئة فيمن رواه الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة بإسناده عن البراء بن عازب، والإمام أحمد في مسنده ٤: ٢٨١ عنه والحافظ أبو العباس الشيباني =

فما أظلمه من ينكر نزول آية التبليغ بشأن تأمير الأمير عليه السلام يوم الغدير وقد أصفقت الآية نفسها بمتواتر الرواية بشأن نزولها على ذلك، أو ليس نكرانه كفراً بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

= بالإسناد عنه والحافظ أبو يعلى عنه والحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره ٣: ٤٢٨ بالإسناد عن ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي والحافظ أحمد بن عقدة في كتاب الولاية بالإسناد عن سعد بن أبي وقاص والحافظ أبو عبد الله المرزباني عن أبي سعيد الخدري والدارقطني وابن بطة عن البراء بن عازب والباقلاني في التمهيد في أصول الدين ١٧١ والخركوشي النيسابوري في شرف المصطفى عنه وابن مردويه في تفسيره عن أبي سعيد الخدري والثعلبي في تفسيره وابن سمان الرازي عن ابن عازب والبيهقي عنه والخطيب البغدادي بسندين صحيحين عن أبي هريرة ٢٣٢ - ٢٣٣ وابن المغازلي في المناقب والعاصي في زين الفتى والسمعاني في فضائل الصحابة عن ابن عازب والغزالي في سرّ العالمين ٩ والشهرستاني في الملل والنحل والخوارزمي في مناقبه ٩٤ وابن الجوزي عن ابن عازب وفخر الدين الرازي في تفسيره الكبير وابن الأثير الشيباني في النهاية ٤: ٢٤٦ والنطنزي في الخصائص العلوية وابن الأثير والكنجي الشافعي في كفاية الطالب ص ١٦ وسبط ابن الجوزي وعمر بن محمد الملا في وسيلة المتعبدين والطبري في الرياض النضرة والحمويني في فرائد السمطين و٩ النيسابوري وولي الدين الخطيب في مشكاة المصابيح ٥٥٧ وابن كثير في البداية والنهاية ٥: ٢٠٩ - ٢١٠ والمقريزي المصري في الخطط ٣: ٢٢٣ وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة والقاضي نجم الدين الأذرعي في بديع المعاني ٧٥ والميبدي في شرح الديوان والسيوطي في جمع الجوامع والسهمودي في وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ٣: ١٧٣ والقسطلاني في المواهب اللدنية ٣: ١٣ في معنى المولى والبخاري وابن حجر العسقلاني في الصواعق المحرقة ٢٦ والسيد علي بن شهاب الدين الهمداني في مودة القربى والسيد محمود الشيخاني القادري في الصراط السوي في مناقب آل النبي والمناوي في فيض القدير ٦: ٢١٨ وباكثير المكي في وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل والزرقاني المالكي في شرح المواهب ٧: ١٣ وحسام الدين بن محمد با يزيد السهارنيوري في مرافض الرافض والبدخشاني في كتابيه مفتاح النجا في مناقب آل العباد ونزل الأبرار بما صح في أهل البيت الأطهار والشيخ محمد صدر العالم في معارج العلى في مناقب المرتضى والعمري الدهلوي والسيد محمد الصنعاني في الروضة الندية شرح التحفة العلوية والكهنوي في مرآة المؤمنين في مناقب أهل بيت سيد المرسلين ومحمد محبوب العالم في تفسير شاهي والسيد أحمد زيني حلان في الفتوحات الإسلامية ٣: ٣٠٦ والشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي المدني في حياة علي بن أبي طالب ٢٨ عن ابن عازب.

لقد طالت المحاولات الناقمة من الإمام علي عليه السلام أن تجمد دلالة الآية والولاية المصرَّح بها في رواية الغدير عن دلالتها الواضحة على الأولوية الطليقة للإمام علي عليه السلام بإمرة المؤمنين، ولكنها في حَقْلِ البرهان جامدة خامدة لا ترجع إلّا بفضح محاوليها والمحتالين فيها.

وكيف ينكر أو يتجاهل ما أصفقت الأمة الإسلامية بنقله من المؤرخين(١) والمحدثين(٢) والمفسرين(٣) والمتكلمين واللغويين.

---

(١) فمن المؤرخين البلاذري في أنساب الأشراف وابن قتيبة في المعارف والإمامة والسياسة والطبري في كتاب مفرد وابن زلاق الليثي في تأليفه والخطيب البغدادي في تاريخه وابن عبد البر في الاستيعاب والشهرستاني في الملل والنحل وابن عساكر في تاريخه وياقوت الحموي في معجم الأدباء ١٨ : ٨٤ وابن الأثير في أسد الغابة وابن أبي الحديد في شرح النهج وابن خلكان في تاريخه واليافعي في مرآة الجنان وابن الشيخ البلوي في ألف باء وابن كثير في البداية والنهاية وابن خلدون في مقدمة تاريخه والذهبي في تذكرة الحفاظ والنويري في نهاية الأرب في فنون الأدب والعسقلاني في الإصابة وتهذيب التهذيب وابن الصباغ في الفصول المهمة والمقريزي في الخطط والسيوطي في جمع من كتبه والقرماني في أخبار الدول ونور الدين الحلبي في السيرة الحلبية وغيرهم.

(٢) ومن المحدثين الكبار الإمام الشافعي كما في نهاية ابن الأثير والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ومناقبه وابن ماجه في سننه والترمذي في صحيحه والنسائي في الخصائص وأبو يعلى الموصلي في مسنده والبغوي في السنن والدولابي في الكنى والأسماء والطحاوي في مشكل الآثار والحاكم في المستدرك وابن المغازلي في المناقب وابن مندة الأصبهاني بعدة طرق في تأليفه والخطيب الخوارزمي في المناقب ومقتل الإمام السبط عليه السلام والكنجي في كفاية الطالب ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة وذخائر العقبى والحمويني في فرائد السمطين والهيتمي في مجمع الزوائد والذهبي في التلخيص والجزري في أسنى المطالب والقسطلاني في المواهب اللدنية والمتقي الهندي في كنز العمال والهروي القاري في المرقاة في شرح المشكاة وتاج الدين المناوي في كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق وفيض القدير والشيخاني القادري في الصراط المستقيم في مناقب آل النبي وباكثير المكي في وسيلة المآل في مناقب الآل والزرقاني في شرح المواهب وابن حمزة الدمشقي في كتاب البيان والتعريف وغيرهم.

(٣) ومن أئمة التفسير الطبري والثعلبي والواحدي في أسباب النزول والقرطبي وأبو السعود =

ذلك ورواة الغدير من الصحابة مائة وعشرة[(١)] ومن التابعين أربعة

= والفخر الرازي وابن كثير والنيشابوري وجلال الدين السيوطي والخطيب الشربيني والآلوسي وكثير غيرهم.

(١) وأولئك هم حسب حروف الهجاء: ١ - أبو هريرة ٢ - أبو ليلى الأنصاري ٣ - أبو زينب بن عوف الأنصاري ٤ - أبو فضالة الأنصاري ٥ - أبو قدامة الأنصاري ٦ - أبو عمرة بن عمرو ابن محصن الأنصاري ٧ - أبو الهيثم بن التيهان ٨ - أبو رافع القبطي ٩ - أبو ذؤيب خويلد بن خالد بن محرث الهذلي ١٠ - أبو بكر بن أبي قحافة ١١ - أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي ١٢ - أبي بن كعب الأنصاري ١٣ - أسعد بن زرارة الأنصاري ١٤ - أسماء بنت عميس الخثعمية ١٥ - أم سلمة ١٦ - أم هاني بنت أبي طالب ١٧ - أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري ١٨ - البراء بن عازب الأنصاري الأوسي ١٩ - بريدة بن الحصيب أبو سهل الأسلمي ٢٠ - أبو سعيد ثابت بن وديعة الأنصاري ٢١ - جابر بن سمرة بن جنادة أبو سليمان السوائي ٢٢ - جابر بن عبد الله الأنصاري ٢٣ - جبلة بن عمرو الأنصاري ٢٤ - جبير بن مطعم بن عدي القرشي ٢٥ - جرير بن عبد الله بن جابر البجلي ٢٦ - أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري ٢٧ - أبو جنيدة جندع بن عمرو بن مازن الأنصاري ٢٨ - حبة بن جوني أبو قدامة العرني ٢٩ - حبش بن جنادة السلولي ٣٠ - حبيب بن بديل بن ورقاء الخزاعي ٣١ - حذيفة بن أسيد أبو شريحة الغفاري ٣٢ - حذيفة بن اليمان ٣٣ - حسان بن ثابت ٣٤ - الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ٣٥ - الإمام الحسين الشهيد عليه السلام ٣٦ - أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ٣٧ - أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ٣٨ - خزيمة بن ثابت الأنصاري ٣٩ - أبو شريح خويلة بن عمر الخزاعي ٤٠ - رفاعة بن عبد المنذر الأنصاري ٤١ - زبير بن العوام ٤٢ - زيد بن أرقم الأنصاري ٤٣ - أبو سعيد زيد بن ثابت ٤٤ - زيد بن يزيد بن شراحيل الأنصاري ٤٥ - زيد بن عبد الله الأنصاري ٤٦ - أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص ٤٧ - سعد بن جنادة العوفي ٤٨ - سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي ٤٩ - أبو سعيد الخدري ٥٠ - سعيد بن زيد القرشي ٥١ - سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري ٥٢ - أبو عبد الله سلمان الفارسي ٥٣ - أبو مسلم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي ٥٤ - أبو سليمان سمرة بن جندب الفزاري حليف الأنصار ٥٥ - سهل بن حنيف الأنصاري ٥٦ - أبو العباس سهل بن سعد الأنصاري ٥٧ - أبو أمامة الأنصاري ٥٨ - ضميرة الأسدي ٥٩ - طلحة بن عبيد الله التميمي ٦٠ - عامر بن عمير النميري ٦١ - عامر بن ليلى بن حمزة ٦٢ - عامر بن ليلى الغفاري ٦٣ - أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي ٦٤ - عائشة بنت أبي بكر ٦٥ - عباس بن عبد المطلب ٦٦ - عبد الرحمن بن عبد رب الأنصاري ٦٧ - أبو محمد عبد الرحمن بن عوف ٦٨ - عبد الرحمن بن يعمر الديلمي ٦٩ - عبد الله بن أبي عبد الأسد المخزومي ٧٠ - عبد الله بن بديل بن ورقاء ٧١ - عبد الله بن بشير ٧٢ - عبد الله بن ثاب =

وثمانون[1] ومن العلماء الرواة عن الصحابة والتابعين من القرن الثاني إلى

= الأنصاري ٧٣ - عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي ٧٤ - عبد الله بن حنطب القرشي المخزومي ٧٥ - عبد الله بن ربيعة ٧٦ - عبد الله بن عباس ٧٧ - عبد الله بن أبي أوفى علقمة الأسلمي ٧٨ - أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي ٧٩ - عبد الله بن مسعود ٨٠ - عبد الله بن ياميل ٨١ - عثمان بن عفان ٨٢ - عبيد بن عازب الأنصاري ٨٣ - عدي بن حاتم ٨٤ - عطية بن بسر المازني ٨٥ - عقبة بن عامر الجهني ٨٦ - علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام ٨٧ - عمار بن ياسر ٨٨ - عمارة الخزرجي الأنصاري ٨٩ - عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد ٩٠ - عمر بن الخطاب ٩١ - عمران بن حصين الخزاعي ٩٢ - عمرو بن الحمق الخزاعي ٩٣ - عمرو بن شراحيل ٩٤ - عمرو بن العاص ٩٥ - عمرو بن مرة الجهني ٩٦ - الصديقة الطاهرة عليها السلام ٩٧ - فاطمة بنت حمزة ٩٨ - قيس بن ثابت الأنصاري ٩٩ - قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ١٠٠ - كعب بن عجرة الأنصاري ١٠١ - مالك بن الحويرث الليثي ١٠٢ - المقداد بن عمرو الكندي ١٠٣ - ناجية بن عمرو الخزاعي ١٠٤ - أبو برزة فضلة بن عتبة الأسلمي ١٠٥ - نعمان بن عجلان الأنصاري ١٠٦ - هاشم المرقال بن عتبة بن أبي وقاص الزهري ١٠٧ - أبو وسمة وحشي بن حرب الحبشي الحمصي ١٠٨ - وهب بن حمزة ١٠٩ - أبو جحيفة وهب بن عبد الله الموائي ١١٠ - أبو مرازم يعلى بن مرة بن وهب الثقفي.

فهؤلاء مائة وعشرة من أعاظم الصحابة الذين وجدنا روايتهم لحديث الغدير ولعلّ هؤلاء الذين ما وجدناهم أكثر بكثير كما هو قضية جمع الغدير الكثير الكثير.

(١) التابعون حسب حروف التهجي: ١ - أبو راشد الجراني ٢ - أبو سلمة ٣ - أبو سليمان المؤذن ٤ - أبو صالح السمان ذكوان ٥ - أبو عنفوانة المازني ٦ - أبو عبد الرحيم الكندي ٧ - أبو القاسم الأصبغ بن نباتة ٨ - أبو ليلى الكندي ٩ - إياس بن نذير ١٠ - جميل بن عمارة ١١ - حارثة بن نصر ١٢ - حبيب بن أبي ثابت ١٣ - الحارث بن مالك ١٤ - الحسين بن مالك بن الحويرث ١٥ - حكم بن عتيبة الكوفي ١٦ - حميد بن عمارة الخزرجي ١٧ - حميد الطويل ١٨ - خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي ١٩ - ربيعة الجرشي ٢٠ - أبو المثنى رياح بن الحارث النخعي ٢١ - أبو عمرو زاذان بن عمر الكندي ٢٢ - أبو مريم زرّ بن حبيش ٢٣ - زياد ابن أبيه ٢٤ - زيد بن يثيع الهمداني ٢٥ - سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ٢٦ - سعيد بن جبير الأسدي ٢٧ - سعيد بن أبي حدان ٢٨ - سعيد بن المسيب ٢٩ - سعيد ابن وهب ٣٠ - أبو يحيى سلمة بن كهيل ٣١ - سليم بن قيس الهلالي ٣٢ - سليمان بن مهران ٣٣ - سهم بن الحصين الأسدي ٣٤ - شهر بن حوشب ٣٥ - الضحاك بن مزاحم ٣٦ - طاوس بن كيسان ٣٧ - طلحة بن المصرف الأيامي ٣٨ - عامر بن سعد بن أبي وقاص ٣٩ - عائشة بنت سعد ٤٠ - عبد الحميد بن المنذر ٤١ - عبد بن خير ٤٢ - عبد الرحمن بن =

القرن الرابع عشر (٣٦٠) شخصاً»[1] والمؤلفون حول الغدير (٣٦)

= أبي ليلى ٤٣ - عبد الرحمن بن سابط ٤٤ - عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ٤٥ - عبد الله بن شريك ٤٦ - عبد الله بن زياد الأسدي ٤٧ - عبد الله بن محمد بن عقيل ٤٨ - عبد الله بن يعلى ابن مرة ٤٩ - عدي بن ثابت الأنصاري ٥٠ - عطية بن سعد بن جنادة ٥١ - علي بن زيد بن جدعان ٥٢ - عمارة بن جوين العبدي ٥٣ - عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي ٥٤ - عمر بن عبد الغفار ٥٥ - عمر بن علي أمير المؤمنين عليه السلام ٥٦ - عمرو بن جعدة بن هبيرة ٥٧ - عمرو ابن مرة الكوفي ٥٨ - عمرو بن عبد الله السبيعي ٥٩ - عمرو بن ميمون ٦٠ - عميرة بن سعد ٦١ - عميرة بنت سعد بن مالك ٦٢ - عيسى بن طلحة ٦٣ - فطر بن خليفة المخزومي ٦٤ - قبيصة بن ذؤيب ٦٥ - أبو مريم قيس الثقفي ٦٦ - محمد بن عمر بن علي أمير المؤمنين عليه السلام ٦٧ - مسلم بن صبيح ٦٨ - مسلم الملائي ٦٠ - مصعب بن سعد بن أبي وقاص ٧٠ - مطلب بن عبد الله القرشي المخزومي ٧١ - مطرق الدراق ٧٢ - معروف بن خربوذ ٧٣ - منصور بن ربعي ٧٤ - موسى بن اكتل ٧٥ - مهاجر بن مسمار ٧٦ - ميمون البصري ٧٧ - نذير الضبي ٧٨ - هاني بن هاني ٧٩ - أبو بلج يحيى بن مسلم الفزاري ٨٠ - يحيى بن جعدة ٨١ - يزيد بن أبي زياد ٨٢ - يزيد بن حيان التيمي ٨٣ - يزيد بن عبدالرحمن بن الأودي ٨٤ - أبو نجيح يسار الثقفي، نذكرهم حسب ترتيب وفياتهم.

(١) فمن القرن الثاني: - عمرو بن دينار (١١٥) ٢ - محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي الزهري (١٢٤) ٣ - عبد الرحمن التيمي (١٢٦) ٤ - بكر بن سوادة (١٢٨) ٥ - عبد الله بن أبي نجيح (١٣١) - مغيرة بن مقسم (١٣٣) ٧ - خالد بن زيد الجمحي (١٣٩) ٨ - الحسن بن الحكم النخعي (١٤٠) ٩ - إدريس بن يزيد الأودي لا ١٠ - يحيى بن سعيد بن حيان التيمي (١٤٥) ١١ - عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي (١٤٥) ١٢ - أوف بن أبي جميلة العبدي (١٤٦) ١٣ - عبيد الله بن عمر بن حفص (١٤٧) ١٤ - نعيم بن الحكيم (١٤٨) ١٥ - طلحة بن يحيى (١٤٨) ١٦ - كثير بن زيد (١٥٠) ١٧ - محمد بن إسحاق (١٥١) ١٨ - معمر بن راشد (١٥٣) ١٩ - مسعر بن كدام (١٥٣) ٢٠ - الحكم بن ابان (١٥٤) ٢١ - عبد الله بن شوذب (١٥٧) ٢٢ - شعبة بن الحجاج (١٦٠) ٢٣ - كامل بن العلا (١٦٠) ٢٤ - سفيان بن سعيد الثوري (١٦١) ٤٥ - إسماعيل بن يونس (١٦٢) ٢ - جعفر بن زياد (١٦٥) ٢٧ - مسلم بن سالم النهدي ٢٨ - قيس بن الربيع (١٦٥) ٢٩ - حماد بن سلمة (١٦٧) ٣٠ - عبد الله بن لهيعة (١٧٤) ٣ - الوضاح بن عبد الله (١٧٥) ٣٢ - شريك بن عبد الله (١٧٧) ٣٣ - عبيد الله ابن عبد الرحمن (١٨٢) ٣٤ - نوح بن قيس الحدّاني (١٨٣) ٣٥ - المطلب بن زياد (١٨٥) ٣٦ - حسان بن إبراهيم الغزي (١٨٦) ٣٧ - جرير بن عبد الحميد (١٨٨) ٣٨ - الفضل بن موسى (١٩٢) ٣٩ - محمد بن جعفر المدني (١٩٣) ٤٠ - إسماعيل بن علية (١٩٣) ٤١ - محمد بن إبراهيم السلمي (١٩٤) ٤٢ - محمد بن خازم العزير (١٩٥) ٤٣ - محمد =

. . . .

= ابن فضيل (١٩٥) ٤٤ - الوكيع بن الجراح (١٩٦) ٤٥ - سفيان بن عيينة (١٩٨) ٤٦ - عبد الله ابن نمير (١٩٩) ٤٧ - خنش بن الحارث ٤٨ - موسى بن يعقوب ٤٩ - العلاء بن سالم العطار ٥٠ - الأزرق بن علي بن مسلم ٥١ - هاني بن أيوب ٥٢ - فضيل بن مرزوق الأغر (١٦٠) ٥٣ - سعد بن عبيدة ٥٤ - موسى بن مسلم الحزامي ٥٥ - يعقوب بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري ٥٦ - عثمان بن سعد.

من القرن الثالث: ٥٧ - ضمرة بن ربيعة (٢٠٢) ٥٨ - محمد بن عبد الله الزبيري (٢٠٣) ٥٩ - مصعب بن المقدام (٢٠٣) ٦٠ - يحيى بن آدم (٢٠٣) ٦١ - زيد بن الحباب الخراساني (٢٠٣) ٦٢ - محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤) ٦٣ - أبو عمرو شبابة بن سوار الفزاري (٢٠٦) ٦٤ - محمد بن خالد الحنفي ٦٥ - خلف بن تميم الكوفي (٣٠٦) ٦٦ - أسود بن عامر شاذان (٢٠٨) ٦٧ - حسين بن الحسن الأشقر الفزاري (٢٠٨) ٦٨ - حفص بن عبد الله بن راشد (٢٠٩) ٦٩ - عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١) ٧٠ - الحسن بن عطية (٢١٣) ٧١ - عبد الله بن يزيد العدوي (٣١٣) ٧٢ - حسين بن محمد بن بهرام (٢١٣) ٧٣ - عبيد الله ابن موسى العبسي (٣١٢) ٧٤ - علي بن قادم الخزاعي (٢١٣) ٧٥ - محمد بن سليمان الحراني (٢١٣) ٧٦ - عبد الله بن داود (٢١٣) ٧٧ - أبو عبد الرحمن بن دينار العبدي (٢١٥١) ٧٨ - يحيى بن حماد الشيباني (٢١٥) ٧٩ - حجاج بن منهال السلمي (٢١٧) ٨٠ - الفضل بن دكين (٢١٨) ٨١ - عفان بن مسلم (٢١٩) ٨٢ - علي بن عياش الألهاني (٢١٩) ٨٣ - مالك بن إسماعيل بن درهم النهدي (٢١٩) ٨٤ - قاسم بن سلام الهروي (٢٢٣) ٨٥ - محمد بن كثير (٢٢٣) ٨٦ - موسى بن إسماعيل المنقري (٢٢٣) ٨٧ - قيس بن حفص بن القعقاع (٢٢٧) ٨٨ - سعيد بن منصور (٢٢٧) ٨٩ - يحيى بن عبد الحميد الحمّاني (٢٢٨) ٩٠ - إبراهيم بن الحجاج السامي (٢٣١) ٩١ - علي بن حكيم بن ذيبان (٢٣١) ٩٢ - خلف بن سالم المهبلي (٢٣١) ٩٣ - علي بن محمد الطنافسي (٢٣٣) ٩٤ - هدبة بن خالد القيسي (٢٣٥) ٩٥ - عبد الله بن محمد العبسي (٢٣٥) ٩٦ - عبيد الله بن عمر الجشمي (٢٣٥) ٩٧ - أحمد بن عمر بن حفص الجلاب (٢٣٥) ٩٨ - إبراهيم بن المنذر الحزامي (٢٣٦) ٩٩ - يحيى بن سليمان الكوفي (٢٣٧) ١٠٠ - ابن راهويه الحنظلي (٢٣٧) ١٠١ - عثمان بن محمد العبسي (٢٣٩) ١٠٢ - الحسن بن حماد سجادة (٢٤١) ١٠٦ - هارون بن عبد الله (٢٤٣) ١٠٧ - حسين بن حريث المروزي (٢٤٤) ١٠٨ - هلال بن بشر الأحدب (٣٤٦) ١٠٩ - أبو الجوزاء أحمد بن عثمان (٢٤٦) ١١٠ - محمد بن العلاء (٢٤٨) ١١٥ - يوسف بن عيسى بن دينار المروزي (٢٤٩) ١١٢ ١١٤ - نصر بن علي بن نصر الجهضمي (٢٥١) ١١٣ - محمد بن بشار الشهير ب (بندار) (٢٥٢) ١١٤ - محمد بن المثنى العنزي (٢٥٢) ١١٥ - يوسف بن موسى القطان (٢٥٣) ١١٦ - محمد بن عبد الرحيم =

. . . .

= صاعقة (٢٥٥) ١١٧ - محمد بن عبد الله العدوي المقري (٢٥٦) ١١٨ - محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦) صاحب الصحيح ١١٩ - الحسن بن عرفة (٣٥٧) ١٢ - عبد الله بن سعيد الكندي (٢٥٧) ١٢١ - محمد بن يحيى النيسابوري الدهلي (٢٥٨) ١٢٢ - حجاج بن يوسف الثقفي (٢٥٩) ١٢٣ - عثمان بن حكيم الأودي (٣٦١) ١٢٤ - عمر بن شبّة (٣٦٢) ١٢٥ - ١٢٥ حمدان أحمد بن يوسف السلمي (٣٦٤) ١٢٦ - عبيد الله بن عبد الكريم المخزومي (٣٦٤) ١٢٧ - أحمد بن منصور بن سيار أبو بكر البغدادي صاحب المسند (٢٦٥) ١٢٨ - إسماعيل بن عبد الله بن مسعود العبدي (٢٦٧) ١٢٩ - الحسن بن علي بن عفان (٢٧٠) ١٣٠ - حمد بن عوف الطائق الحمصي (٢٧٢) ١٣١ - سليمان بن سيف الطائي الحراني ١٣٢ - محمد بن يزيد القزويني (٢٧٣) ١٣٣ - عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦) ١٣٤ - عبد الملك بن محمد أبو قلابة الرقاشي (٢٧٦) ١٣٥ - أحمد بن حازم الغفاري (٢٧٦) ١٣٦ - محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩) ١٣٧ - أحمد بن يحيى البلاذري (٢٧٩) ١٣٨ - إبراهيم بن الحسين الكسائي (٢٨٠) ١٣٩ - أحمد بن عمرو أبو بكر الشيباني (٢٨٧) ١٤٠ - زكريا بن يحيى السجزي (٢٨٩) ١٤١ - عبد الله بن أحمد بن حنبل (٢٩٠) ١٤٢ - أحمد بن عمرو أبو بكر البزار (٢٩٢) ١٤٣ - إبراهيم بن عبد الله الكجي صاحب السنن (٢٩٢) ١٤٤ - صالح بن محمد جرزة (٢٩٣) ١٤٥ - أحمد بن عثمان العبسي (٢٩٧) ١٤٦ - القاضي علي بن محمد المصّيصي ١٤٧ - إبراهيم بن يونس المؤدب حرمي ١٤٨ - أبو هريرة محمد بن أيوب الواسطي.

القرن الرابع: ١٤٩ - عبد الله بن الصفر السكري (٣٠٢) ١٥٠ - أحمد بن شعيب النسائي صاحب السنن (٣٠٣) ١٥١ الحسن سفيان النسوي البالوزي صاحب المسند الكبير (٣٠٣) ١٥٢ - أحمد بن علي الموصلي صاحب المسند الكبير (٣٠٧) ١٥٣ - أحمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ (٣١٠) ١٥٤ - أحمد بن محمد الضبعي الأحول (٣١١) ١٥٥ - محمد بن جمعة القهستاني صاحب المسند الكبير (٣١٣) ١٥٦ - عبد الله بن محمد البغوي (٣١٧) ١٥٧ - محمد بن أحمد الدولابي (٣٢٠) ١٥٨ - أحمد بن عبد الله المعروف بابن النيري (٣٢٠) ١٥٩ - أبو جعفر أحمد بن محمد الازدي الطحاوي (٣٢١) ١٦٠ - إبراهيم بن عبد الصمد الهامشي (٣٢٥) ١٦١ - محمد بن علي الترمذي ١٦٢ - عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي (٣٢٧) ١٦٣ - أحمد بن عبد ربه القرطبي (٣٢٨) ١٦٤ - الفقيه أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي (٣٣٠) ١٦٥ - حبشون بن موسى الخلال (٣٣١) ١٦٦ - أبو العباس أحمد بن عقدة (٣٣٣) ١٦٧ - محمد بن علي بن خلف العطار ١٦٨ - الهيثم بن كليب أبو سعيد الشاشي (٣٣٥) ١٦٩ - محمد بن صالح بن هاني الوراق النيسابوري (٣٤٠) ١٧٠ - محمد بن يعقوب (٣٤٤)=

. . . .

= ١٧١ - يحيى بن محمد الغبري البغياني (٣٤٤) ١٧٢ - المسعودي علي بن الحسين البغدادي (٣٤٦) ١٧٣ - محمد بن أحمد بن تميم الخياط القنطري (٣٤٠) ١٧٤ - جعفر بن محمد بن نصير (٣٤٧) ١٧٥ - محمد بن علي الشيباني ١٧٦ - دعلج بن أحمد السجستاني (٣٤١) ١٧٧ - محمد بن الحسن بن محمد النقاش المفسر الموصلي (٣٥١) ١٧٨ - محمد بن عبد الله الشافعي البزاز (٣٥٤) ١٧٩ - محمد بن حبان التيمي البستي (٣٥٤) ١٨٠ - سليمان بن أحمد ابن أيوب اللخمي الطبراني (٣٦٠) ١٨١ - أحمد بن حنبل صاحب المسند الكبير (٣٦٥) ١٨٢ - أحمد بن جعفر القطيعي (٣٦٧) ١٨٣ - الزبير بن عبد الله التوزي (٣٧٠) ١٨٤ - محمد بن أحمد بن بالويه النيسابوري (٣٧٤) ١٨٥ - علي بن عمر بن أحمد الدار قطني (٣٨٥) ١٨٦ - الحسن بن إبراهيم ابن رولاق (٣٨٧) ١٨٧ - عبيد الله بن محمد العكبري ابن بطة (٣٨٧) ١٨٨ - محمد بن عبد الرحمن الذهبي (٣٨٨) ١٨٩ - أحمد بن سهل الفقيه البخاري ١٩٠ - النسائي ١٩١ - يحيى بن محمد الأخباري القرن الخامس: ١٩٢ - أبو بكر الباقلاني (٤٠٣) ١٩٣ - محمد بن عبد الله ابن اليشع النيسابوري (٤٠٥) ١٩٤ - أحمد بن محمد بن موسى (٤٠٥) ١٩٥ - الخركوشي (٤٠٧) ١٩٦ - أحمد بن عبد الرحمن الشيرازي (٤٠٧) ١٩٧ - محمد بن أحمد بن محمد (٤١٢) ١٩ - ابن مردويه الأصبهاني (٤١٦) ١٩٩ - أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (٤٢١) ٢٠٠ - القاضي أحمد بن الحسين ابن السماك (٤٢٤) ٢٠١ - الثعلبي النيسابوري المفسر الشهير (٤٢٧) ٢٠٢ - عبد الله بن علي بن محمد بن بشران (٤٢٩) ٢٠٣ - الثعالبي النيسابوري (٤٢٩) ٢٠٤ - أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠) ٢٠٥ - الحسن بن علي بن محمد التيمي ابن المذهّب (٤٤٤) ٢٠٦ - ابن السمان (٤٤٥) ٢٠٧ - البيهقي (٤٥٨) ٢٨ - القرطبي (٤٦٣) صاحب الاستيعاب ٢٠٩ - الخطيب البغدادي (٤٦٣) ٢١٠ - الواحدي النيسابوري (٤٦٨) ٢١١ - مسعود بن ناصر بن عبد الله السجزي (٤٧٧) ٢١٢ - ابن المغازلي (٤٨٣) ٢١٣ - علي بن الحسن القاضي الخلعي (٤٩٢) ٢١٤ - ابن الحداد الحسكاني (٤٩٠) ٢١٥ - أحمد بن محمد بن علي العاصمي. القرن السادس: ٢١٦ - حجة الإسلام الغزالي (٥٠٥) ٢١ - محمد بن علي الكوفي الرسبي (٥١٠) ٢١٨ - ابن منده (٥١٢) ٢١٩ - البغوي (٥١٦) ٢٢٠ - عبد الواحد الشيباني (٥٢٥) ٢٢١ - علي بن عبد الله بن نصر بن السري الزاغوني (٥٢٧) ٢٢٢ - رزين بن معاوية العبدري الأندلسي (٥٣٥) ٢٢٣ - جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨) ٢٢٤ - القاضي عياض اليحصبي السبتي (٥٤٤) ٢٢٥ - الشهرستاني الشافعي (٥٤٨) ٢٢٦ - النطنزي ٢٢٧ - السمعاني الشافعي (٥٦٢) ٢٢٨ - يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي القرطبي (٥٦٧) صاحب التفسير الكبير ٢٢٩ - موفق بن أحمد أبو المؤيد اخطب الخطباء الخوارزمي (٥٦٨) ٢٣٠ - الأربيلي المعروف بملّا ٢٣١ - علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم =

. . . .

= الدمشقي ثقة الدين الشهير بابن عساكر (٥٧١) صاحب التاريخ الكبير ٢٣٢ - محمد بن أبي بكر عمر بن أبي عيسى الأصبهاني (٥٨١) ٢٣٣ - أبو بكر الحازمي (٥٨٤) ٢٣٤ - ابن الجوزي البكري (٥٩٧) ٢٣٥ - الفقيه أسعد بن أبي الفضائل محمود بن خلف العجلي أبو الفتوح (٦٠٠).

القرن السابع: ٢٣٦ - فخر الدين الرازي (٦٠٦) صاحب التفسير الكبير ٢٣٧ - ابن الأثير الشيباني الجزري (٦٠٦) ٢٣٨ - أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالكي الشهير بابن الشيخ (٦٠٥) ٢٣٩ - تاج الدين زيد بن الحسن بن زيد الكندي (٦١٣) ٢٤٠ - الشيخ علي بن حمية القرشي (٦٢١) ٢٤١ - أبو عبد الله ياقوت الحموي (٦٢٦) ٢٤٢ - علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (٦٣٠) صاحب التاريخ الكامل وأسد الغابة ٢٤٣ - حنبل بن عبد الله بن الفرج البغدادي الرصافي (٦٤٠) ٢٤٤ - ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (٦٤٣) ٢٤٥ - محمد بن طلحة القرشي النصيبي ٢٤٦ - أبو المظفر يوسف الأمير حسام الدين قزاوغلي (٦٥٤) ٢٤٧ - ابن أبي الحديد المعتزلي (٦٥٥) ٢٤٨ - الكنجي الشافعي (٦٥٨) صاحب كفاية الطالب ٢٤٩ - عبد الرزاق بن عبد الله بن أبي بكر عز الدين الرسغي (٦٦١) ٢٥٠ - فضل الله بن أبي سعيد الحسن الشافعي النوربشتي ٢٥١ - يحيى الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦) ٢٥٢ - الشيخ مجد الدين عبد الله بن محمود بن مورود الحنفي الموصلي (٦٨٣) ٢٥٣ - القاضي ناصر الدين عبد الله عمر أبو الخير البيضاوي (٦٨٥) صاحب الطوالع والمصباح في أصول الدين ومختصر الكشاف في التفسير وتأليفات أخرى ٢٥٤ - أحمد بن عبد الله فقيه الحرم محب الدين أبو العباس الطبري (٦٩٤) ٢٥٥ - إبراهيم بن عبد الله الرصابي اليمني ٢٥٦ - محمد بن أحمد الفرغاني (٧٠٠).

القرن الثامن: ٣٥٧ - شيخ الإسلام أبو إسحاق إبراهيم بن سعد الدين محمد بن المؤيد الحمويه (٧٢٢) ٢٥٨ - علاء الدين أحمد بن محمد بن أحمد السمناني (٧٣٦) ٢٥٩ - يوسف ابن عبد الرحمن الدمشقي المزّي ٢٦٠ - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الشافعي (٧٤٨) ٣٦١ - نظام الدين النيسابوري صاحب التفسير الكبير ٢٦٢ - ولي الدين محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي صاحب مشكاة المصابيح ٢٦٣ - أبو محمد القيس الحنفي النحوي (٧٤٩) ٢٦٤ - ابن الوردي (٧٤٩) ٣٦٥ - جمال الدين محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي (٧٥٠) ٢٦٦ - القاضي عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (٧٥٦) ٢٦٧ - الكازروني (٧٥٨) ٢٦٨ - أبو السعادات عبد الله بن اسعد بن علي اليافعي الشافعي (٧٦٨) ٢٦٩ - عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القيسي (٧٧٤) ٢٧٠ - عمر بن حسن بن مزيد بن أميله المراغي (٧٧٨) ٢٧١ - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الهواري ابن جابر الأندلسي (٧٨٠) ٢٧٢ - السيد علي بن شهاب بن محمد الهمداني=

. . . .

= (٧٨٦) ٢٧٣ - المقدسي المعروف بالصامت (٧٨٩) ٢٧٤ - سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله الهروي (٧٩١).

القرن التاسع: ٣٧٥ - علي بن أبي بكر بن سليمان أبو الحسن الهيثمي (٨٠٧) ٢٧٦ - ابن خلدون الحضرمي الأشبيلي المالكي (٨٠٨) ٢٧٧ - السيد الشريف الجرجاني (٦١٨) ٢٧٨ - خواجة پارسا (٨٢٢) ٢٧٩ - محمد بن خليفة الوشتاني المالكي (٨٢٧) ٢٨٠ - محمد ابن محمد بن محمد أبو الخير الدمشقي المقري المعروف بابن الجوزي (٨٣٣) ٢٨١ - المقريزي الحنفي (٨٤٥) ٢٨٢ - الدولت آبادي (٨٤٩) ٢٨٣ - العسقلاني (٨٥٢) ٢٨٤ - ابن الصباغ المالكي (٨٥٥) ٢٨٥ - العيني الحنفي (٨٨٥) ٢٨٦ - ابن عجلون (٨٧٦) ٢٨٧ - القوشجي صاحب شرح التجريد ٢٨٨ - الإيجي الشافعي ٢٨٩ - السنوسي التلمساني (٨٩٥) ٢٩٠ - ابن روزبهان الشيرازي خواجه ملّا.

القرن العاشر: ٢٩١ - الميبدي شارح الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام (٨٧٠) ٢٩٢ - السيوطي (٩١١) ٢٩٣ - السهودي الشافعي (٩١١) ٢٩٤ - القسطلاني المصري (٩٢٦) ٢٩٥ - السيد عبد الوهاب بن محمد رفيع الدين أحمد الحسيني البخاري (٩٣٢) ٢٩٦ - ابن الدبيع الشيباني (٩٤٤) ٢٩٧ - ابن حجر الهيثمي (٩٧٤) ٢٩٨ - المتقي الهندي (٩٧٥) ٢٩٩ - الشربيني القاهري (٩٧٧) ٣٠٠ - ضياء الدين أبو محمد أحمد بن محمد الوتري (٩٨٠) ٣٠١ - ملك المحدثين الهندي الفتني (٩٨٦) ٣٠٢ - ميرزا مخدوم بن عبد الباقي (٩٩٥) ٣٠٣ - الصفوري الشافعي مؤلف نزهة المجالس ٣٠٤ - الشيرازي صاحب الأربعين (١٠٠٠).

القرن الحادي عشر: ٣٠٥ - الهروي المعروف بالقاري الحنفي (١٠١٤) ٣٠٦ - ابن سان القرماني (١٠١٩) ٣٠٧ - المناوي القاهري (١٠٣١) ٣٠٨ - الفقيه شيخ بن عبد الله العيدروس الحسيني (١٠٤١) ٣٠٩ - الشيخاني القادري ٣١٠ - علي بن إبراهيم صاحب السيرة النبوية (١٠٤٤) ٣١١ - ابن باكثير المكي (١٠٤٧) ٣١٢ - الحسين ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي اليمني (١٠٥٠) ٣١٣ - شهاب الدين الخفاجي (١٠٦٩) - عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي البخاري (١٠٥٢) ٣١٥ - محمد بن محمد المصري ٣١٦ - محمد بن محبوب صاحب تفسير الشاهي.

القرن الثاني عشر: ٣١٧ - البزرنجي الشافعي (١١٠٣) ٣١٨ - الشيرخيتي المصري (١١٠٦) ٣١٩ - الصنعاني (١١٠٨) ٣٢٠ - ابن حمزة الحراني (١١٢٠) ٣٢١ - الزرقاني المصري (١١٢٢) ٣٢٢ - السهارينوري صاحب مرافض الروافض ٣٢٣ - ميرزا محمد بن معتمد خان البدخشي ٣٢٤ - محمد صدر العالم ٣٢٥ - العمادي (١١٧١) ٣٣٦ - العمري الدهلوي (١١٧٦) ٣٢ - محمد بن سالم بن أحمد المصري الحنفي (١١٨١) ٣٢٨ - الصنعاني =

من الأعاظم[1] وصدّق صحته وتواتره القاطع ثلاثة وأربعون من العلماء.

= الحسيني (١١٨٢) ٣٢٩ - شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الحفظي أحد شعراء الغدير.
القرن الثالث عشر: ٣٣٠ - الزبيدي الحنفي (١٢٠٥) مؤلف تاج العروس ٣٣١ - الشيخ محمد بن علي الصبّان الشافعي (١٢٠٦) ٣٣٢ - رشيد الدين خان الدهلوي ٣٣٣ - المولوي محمد مبين اللكهنوي ٣٣٤ - المولوي محمد سالم البخاري الدهلوي ٣٣٥ - المولوي ولي الله الكهنودي ٤٣٦ - المولوي حيدر علي الفيض آبادي ٣٣٧ - الشوكاني الصنعاني (١٢٥٠) ٣٣٨ - الآلوسي (١٢٧٠) ٣٣٩ - الشيخ محمد بن درويش الحوت البيروتي (١٢٧٦) ٣٤٠ - خواجه كلان (١٢٩٣) ٣٤١ - السيد أحمد بن مصطفى القادين خاني.
القرن الرابع عشر: ٣٤٢ - السيد أحمد زيني دحلان (١٣٠٤) ٣٤٣ - الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني مؤلف منتخب الصحيحين من كلام سيد الكونين ٣٤٤ - السيد مؤمن ابن حسن مؤمن الشبلنجي ٣٤٥ - الشيخ محمد عبده (١٣٢٣) مفتي الديار المصرية ٣٤٦ - السيد عبد الحميد بن السيد محمود الآلوسي الضرير (١٣٢٤) ٣٤٧ - الشيخ محمد حبيب الله بن عبد الله اليوسفي ٣٤٨ - القاضي بهلول بهجت قاضي رنكة زور ٣٤٩ - الكاتب الشهير عبد المسيح الأنطاكي ٥٣٠ - الدكتور أحمد فريد رفاعي ٣٥١ - الأستاذ أحمد زكي العدوي ٣٥٢ - الأستاذ أحمد نسيم المصري ٣٥٣ - الأستاذ حسين علي الأعظمي البغدادي ٣٥٤ - السيد علي جلال الدين الحسيني المصري ٣٥٥ - الأستاذ محمد محمود الرافعي المصري ٣٥٦ - الأستاذ محمد شاكر الخياط النابلسي الأزهري المصري ٣٥٧ - الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود المصري ٣٥٨ - الأستاذ الشيخ محمد سعيد دحدوح ٣٥٩ - الأستاذ صفاً خلوص ٣٦٠ - العالم المجتهد ناصر السنة شهاب الدين أبي الفيض أحمد بن محمد بن الصديق.
كل هؤلاء نقلنا أسماءهم عن «الغدير» للمغفور له العلامة الأميني ج ١: ٧٣ - ١٥١ بصورة مختصرة والتفصيل راجع إليه.

(١) وهم: ١ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الآملي (٣١٠) ٢ - أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بابن عقدة ٣ - الواسطي ٤ - الجعابي (٣٥٥) ٥ - أبو غالب الرازي (٣٦٨) ٦ - محمد بن عبد الله الشيباني (٣٧٢) ٧ - علي بن عمر الدار قطني (٣٨٥) ٨ - الشيخ محسن بن الحسين النيسابوري ٩ - علي بن عبد الرحمن القناتي (٤١٣) ١٠ - الحسين بن عبيد الله الغضائري (٤١١) ١١ - أبو سعيد مسعود بن ناصر السجستاني (٤٧٧) ١٢ - أبو الفتح الكراجكي (٤٤٩) ١٣ - علي بن بلال ١٤ - الشيخ منصور اللائي الرازي ١٥ - الشيخ علي بن الحسن الطاطري ١٦ - عبيد الله بن عبد الله الحسكاني ١٧ - محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨) ١٨ - محمد بن محمد الجزري (٨٣٣) ١٩ - عبد الله بن شاه منصور القزويني ٢٠ - السيد سبط الحسن الجايسي ٢١ - السيد مير حامد حسين (١٣٠٦) صاحب العبقات=

وكما أن آية التبليغ بالغة الدلالة على قصة الغدير، كذلك حديث الغدير «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه» حيث فرَّعه الرسول ﷺ على «ألست أولى من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه»...

فالولاية العلوية المتفرعة على الأولوية المحمدية ﷺ لا شك وأنها هيه دون مُجرَّد المحبة التي هي الولاية بين المؤمنين حيث ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[1].

ولقد ناشد الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام بحديث الغدير مناوئين لإمرته[2] كما ناشد آخرون، منهم فاطمة الصديقة الطاهرة سلام الله عليها في حديث الفواطم عنها[3] والإمام الحسن عليه السلام [4] والإمام

= ٢٢ - السيد مهدي ابن السيد علي الغريفي (١٣٤٣) ٢٣ - الحاج الشيخ عباس القمي (١٣٥٩) ٢٤ - السيد مرتضى حسين الخطيب فتحيوري الهندي ٢٥ - الشيخ محمد رضا ابن الشيخ طاهر آل فرج الله النجفي ٢٦ - الحاج السيد مرتضى الخسرو شاهي التبريزي المعاصر.

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٢) منها مناشدته يوم الشورى سنة ٢٣هـ كما عن أبي الطفيل وأيام عثمان ويوم الرحبة ويوم الجمل وفي حديث الركبان ويوم صفين، أخرجها عنه عليه السلام جماعة من الكبار.

(٣) كما أخرج شمس الدين أبو الخير الجزري في كتابه أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام من قوله عليه السلام: أنسيتم قول رسول الله ﷺ يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه؟

وهكذا أخرجه الحافظ الكبير أبو موسى المدايني في كتابه المسلسل بالأسماء وقال: هذا الحديث مسلسل من وجه وهو أن كلّ واحدة من الفواطم تروي عن عمة لها فهو رواية خمس بنات أخ كلّ واحدة منهن عن عمتها هكذا في إخراج شمس الدين حدثنا به شيخنا... إلى قوله - حدثنا بكر بن أحمد القعري حدثتنا فاطمة وزينب وأم كلثوم بنات موسى بن جعفر قلن حدثتنا فاطمة بنت جعفر بن محمد العملاق حدثتني فاطمة بنت محمد بن علي حدثتني فاطمة بنت علي بن الحسين حدثتني فاطمة وسكينة ابنتا الحسين بن علي عن أم كلثوم بنت فاطمة بنت النبي ﷺ عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: أنسيتم...

(٤) كما أخرجه الحافظ ابن عقدة أن الحسن بن علي عليه السلام لما اجتمع على صلح معاوية قام خطيباً واحتج لخلافة علي عليه السلام بحجج منها: «وقد رأوه وسمعوه حين أخذ بيد أبي بغدير=

الحسين عليه السلام [١] وغيرهم عليهم السلام [٢] ومنهم الخليفة عمر بن عبد العزيز[٣]

= خم وقال لهم: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ثم أمرهم أن يبلغ الشاهد الغائب».

(١) كما أخرجه سليم بن قيس الهلالي في كتابه جملاً ضافية أن الإمام الحسين عليه السلام حج مع جماعة واجتمع عليه بمنى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتابعين أكثر من سبعمائة فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه وقال فيما قال: أما بعد فإن هذا الطاغية - يعني معاوية وهو قبل سنتين من موته - قد صنع بنا وبشيعتنا ما علمتم ورأيتم وشهدتم ويبلغكم وإني أريد أن أسألكم عن شيء فإن صدقت فصدقوني وإن كذبت فكذبوني واسمعوا مقالتي واكتبوا قولي ثم ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم ومن ائتمنتموه من الناس ووثقتم به فادعوه إلى ما تعلمون من حقنا فإنا نخاف أن يدرس هذا الحق ويذهب ويغلب والله متم نوره ولو كره الكافرون وما ترك شيئاً مما أنزل الله في القرآن فيهم إلّا تلاه وفسره ولا شيئاً مما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أبيه وأمه ونفسه وأهل بيته إلّا رواه وكل ذلك يقولون اللهم نعم قد سمعنا وشهدنا ويقول التابعون اللهم نعم قد حدثني به من أصدقه وائتمنه من الصحابة - إلى أن قال - قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصبه يوم غدير خم فنادى له بالولاية وقال: ليبلغ الشاهد الغائب؟ قالوا: اللهم نعم - وفيه طرف مما تواترت أسانيده من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام فراجع.

(٢) منها احتجاج عبد الله بن جعفر على معاوية واحتجاج عمرو بن العاص على معاوية واحتجاج برد على عمرو واحتجاج عمار بن ياسر يوم صفين على عمرو بن العاص واحتجاج أصبغ بن نباتة في مجلس معاوية ومناشدة شاب أبا هريرة بحديث الغدير بمسجد الكوفة واحتجاج قيس ابن سعد على معاوية واحتجاج دارمية الحجونية عليه واحتجاج عمرو الأودي على مناوئي أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) ومن احتجاج عمر بن عبد العزيز ما رواه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء ٥: ٣٦٤ عن أبي بكر محمد التستري عن يعقوب وعن عمرو بن محمد السرى عن ابن أبي داود قالا حدثنا عمر ابن شبة عن عيسى عن يزيد بن عمر بن مورق قال: كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس فتقدمت إليه فقال لي: ممن أنت؟ قلت: من قريش، قال: من أي قريش؟ قلت: من بني هاشم، قال: فسكت فقال: من أي بني هاشم؟

قلت: مولى علي، قال: من عليّ؟ فسكتّ قال: فوضع يده على صدره فقال: وأنا والله مولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم قال: حدثني عدة أنهم سمعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من كنت مولاه فعليّ مولاه ثم قال: يا مزاحم كم تعطي أمثاله؟ قال: مائة أو مائتي درهم، قال: أعطه خمسين ديناراً وقال ابن أبي داود: ستين ديناراً لولايته علي بن أبي طالب ثم قال: الحق ببلدك فسيأتيك مثل ما يأتي نظرائك، وأخرجه أبو الفرج في الأغاني وابن عساكر في تاريخه والحمويني في فرائد السمطين والزرندي في نظم در السمطين والسمهودي في جواهر العقدين.

والخليفة مأمون الرشيد(١).

---

(١) روى أبو عمر ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣: ٤٢ عن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل بن حماد بن زيد قال بعث إلي يحيى بن أكثم وإلى عدة من أصحابي وهو يومئذ قاضي القضاة فقال: إن أمير المؤمنين أمرني أن أحضر معي غداً مع الفجر أربعين رجلاً كلهم فقيه يفقه ما يقال له ويحسن الجواب فسموا من تظنونه يصلح لما يطلب أمير المؤمنين فسمّينا له عدة وذكر هو عدة حتى تم العدد الذي أراد وكتب تسمية القوم وأمر بالبكور في السحر وبعث من يحضر فأمره بذلك فغدونا عليه قبل طلوع الفجر فوجدناه قد لبس ثيابه وهو جالس ينتظرنا فركب وركبنا معه حتى صرنا إلى الباب فإذا بخادم واقف فلما نظر إلينا قال يا أبا محمد؟ أمير المؤمنين ينتظر فأدخلنا فأمرنا بالصلاة فأخذنا فيها فلم نستتمها حتى خرج الرسول فقال: ادخلوا فدخلنا فإذا أمير المؤمنين جالس على فراشه - إلى أن قال ـ : ثم قال: إني لم أبعث فيكم لهذا ولكنني أحببت أن أبسطكم أن أمير المؤمنين أراد مناظرتكم في مذهبه الذي هو عليه والذي يدين الله به. قلنا فليفعل أمير المؤمنين وفقه الله فقال: إن أمير المؤمنين يدين الله على أن علي بن أبي طالب خير خلق الله بعد رسول الله ﷺ وأولى الناس بالخلافة له، قال إسحاق فقلت: يا أمير المؤمنين إن فينا من لا يعرف فاذكر أمير المؤمنين في علي وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة فقال: يا إسحاق اختر إن شئت سألتك اسأل وإن شئت أن تسأل فقل، قال إسحاق: فاغتنمتها منه فقلت: بل أسألك يا أمير المؤمنين، قال: سل، قلت: من أين قال أمير المؤمنين إن علي بن أبي طالب أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأحقهم بالخلافة بعده؟ قال: يا إسحاق خبّرني عن الناس بم يتفاضلون حتى يقال: فلان أفضل من فلان؟ قلت: بالأعمال الصالحة قال: صدقت، قال: فأخبرني عمن فضل صاحبه على عهد رسول الله ﷺ ثم إن المفضول إن عمل بعد وفاة رسول الله ﷺ بأفضل من عمل الفاضل على عهد رسول الله ﷺ أيلحق به؟ قال: فأطرقت فقال لي: يا إسحاق؟ لا تقل: نعم، فإنك إن قلت نعم أوجدتك في دهرنا هذا من هو اكثر منه جهاداً وحجاً وصياماً وصلاة وصدقة، فقلت: أجل يا أمير المؤمنين لا يلحق المفضول على عهد رسول الله ﷺ الفاضل أبداً، قال: يا إسحاق! هل تروي حديث الولاية؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: اروه، ففعلت، قال: يا إسحاق أرأيت هذا الحديث هل أوجب على أبي بكر وعمر ما لم يوجب لهما عليه؟

قلت: إن الناس ذكروا أن الحديث إنما كان بسبب زيد بن حارثة لشيء جرى بينه وبين علي وأنكر ولاية علي فقال رسول الله ﷺ: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، قال: في أي موضع قال هذا؟ أليس بعد منصرفه من حجة الوداع؟ قلت: أجل، قال: فإنّ قتل زيد بن حارثة قبل الغدير كيف رضيت لنفسك بهذا، أخبرني لو رأيت ابناً لك قد أتت عليه خمس عشرة سنة يقول: مولاي مولى ابن عمي أيها الناس فاعلموا ذلك، أكنت =

ذلك هو الغدير في الكتاب والسُّنة وقد غرق فيه عالم كثير ونجى الكثير ممن وفى لرعاية الحق حيث ركبوا سفينة نجاة الولاية الكبرى المحمدية ﷺ لعلي أمير المؤمنين عليه صلوات المصلين.

وما النقاش في المعنيِّ من ولايته إلّا كنقش على الماء والهواء فإنه هباءٌ وخواءٌ والله منه براء.

فتلكما آيتا الغدير من التبليغ وتكميل الدين، وهاتيك روايات الغدير، فتراهما تعنيان ذلك الحشد الكبير في بلاغ مُنْقَطِع النظير ما تشترك فيه كافة المؤمنين أم جماعة منهم خصوصٍ؟ وليس في الدور إلّا علي أمير المؤمنين وولده المعصومون عليهم السلام؟.

فلا دَوْرَ - إذاً - للبحث اللغوي حول المولى تشكيلاً في المعني منها، فحتى لو لم نعرف معنى المولى، فأمر المولى نبيّه هكذا، وسؤال النبي «ألست أولى بكم من أنفسكم» تُقرِّران معنى الأوْلى للمولى دونما ريب.

فمهما كان للمولى معانٍ عدة[١] كلٌّ يُعنى حسب ما يُعنى بقرائنها، فهنا القرائن القاطعة مُتصلة ومُنفصلة[٢] دالة على الأولوية الرسالية التي كانت

= منكراً ذلك عليه تعريفه للناس ما لا ينكرون ولا يجهلون؟ فقلت: اللهم نعم، قال: يا إسحاق أفتنزه ابنك عما لا تنزه عنه رسول الله ﷺ ويحكم لا تجعلوا فقهاءكم أربابكم إن الله جلّ ذكره قال في كتابه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ولم يصلّوا لهم ولا صاموا ولا زعموا أنهم أرباب ولكن أمروهم فأطاعوا أمرهم.

(١) وهي حسب موارد استعمالها سبعة وعشرون: الرب - العم - ابن العم - الابن - ابن الأخت - المعتق - المعتق - العبد المالك - التابع - المنعم عليه - الشريك - الحليف - الصاحب - الجار - النزيل - الصهر - القريب - المنعم - الفقير - الولي - الأولى بالشيء - السيد غير المالك والمعتق - المحب - الناصر - المتصرف في الأمر - المتولي في الأمر، وعناية هذه المعاني إلّا الأولى هنا في المولى بين كفر وكذب وغلط وتوضيح واضح.

(٢) هنا بعد القرينة الأولى تفريعاً لـ «هذا علي مولاه» على «ألست أولى بكم من أنفسكم» قرائن أخرى حالية كحشد الغدير وتأكيد آية البلاغ، ومقالية كالتالية: ١ - قول الشيخين في تهنيتهما له عليه السلام بخ بخ لك أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة. ٢ - قوله ﷺ عقيب لفظ=

للرسول نفسه ﷺ وكلّ معاني المولى مختصرة محتصرة في ثلاثة هي الحب والنصرة والأولوية فاعلة ومفعولة.

ذلك، وهذا المقطع من خطبة الغدير ينقله أربعة وستون من علماء الفريقين: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه»(١) ممّا يختص المولى بالأولى كما الرسول ﷺ دون ريب.

ونكران معنى الأولى للمولى نكران لرأس الزاوية من معانيها اللغوية الثلاثة، واستنكار لاستعمالها فيها في القرآن كراراً عدة(٢) نقمة لاغية من

= الحديث: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتي والولاية لعلي بن أبي طالب عليه السلام. ٣ - قوله ﷺ بعد بيان الولاية لعلي عليه السلام هنئوني هنئوني إن الله تعالى خصني بالنبوة وخص أهل بيتي بالإمامة. ٤ - قوله ﷺ بعد ذلك «فليبلغ الشاهد الغائب». ٥ - قوله ﷺ: إن الله أرسلني برسالة ضاق بها صدري وظننت أن الناس مكذبي فأوعدني لأبلغها أو ليعذبني، وتراه ولاية الحب والنصرة فقط وهي عامة للمؤمنين كلهم! ٦ - في لفظ عمر بن الخطاب: نصب رسول الله ﷺ علياً علماً، وفي لفظ علي عليه السلام: أمر الله نبيه أن ينصبني للناس، و: نصبني علماً، وفي لفظ الإمام الحسن عليه السلام: أتعلمون أن رسول الله ﷺ نصبه يوم غدير خم وأمثالها. ٧ - احتجاجات مضت بحديث الغدير لولا المولي فيها هو الأولى لما صحت هذه الاحتجاجات وقوبلت بالاعتراض أو التشكيك وإلى غير هذه من قرائن متصلة ومنفصلة.

(١) وهم أحمد بن حنبل - ابن ماجة - النسائي - الشيباني - أبو يعلى - الطبري - الترمذي - الطحاوي - ابن عقدة - العنبري - أبو حاتم - الطبراني - القطيعي - ابن بطة - الدار قطني - الذهبي - الحاكم - الثعلبي - أبو نعيم - ابن السمان - البيهقي - الخطيب - السجستاني - ابن المغازلي - الحسكاني - العاصمي - الخلعي - السمعاني - الخوارزمي - البيضاوي - الملّا - ابن عساكر - أبو موسى - أبو الفرج - ابن الأثير - ضياء الدين - قزاوغلي - الكنجي - التفتازاني - محب الدين - الرصابي - الحمويني - الإيجي - ولي الدين - الزرندي - ابن كثير - الشريف - شهاب الدين - الجزري - المقريزي - ابن الصباغ - الهيثمي - الميدي - ابن حجر - أصيل الدين - السهمودي - كمال الدين - البدخشي - الشيخاني - السيوطي - الحلبي - ابن باكثير - السهارنيوري - ابن حجر المكي.

(٢) جاء لفظ الولي والمولي في آيات عدة بمعني الأولى منها قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥] حيث المولى هنا =

اللغة، بغيةَ النقمة من صاحب الولاية الكبرى بعد الرسول ﷺ مهما اقتضت لاغية القول من الله ومن الرسول ﷺ!.

هذه عساكر القرائن القطعية مُتصلة ومُنفصلة، وإليكم تفسير النبي ﷺ نفسه لمعنى المولى حين سُئل عن معنى قوله: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» قال: الله مولاي أولى بي من نفسي لا أمر لي معه وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم لا أمر لهم معي ومن كنت أولى به من نفسه لا أمر له معي فعلي مولاه أولى به من نفسه لا أمر له معه[1]: «ولاء

= لا تتحمل المحب والمحبوب - أو الناصر والمنصور، إنما هي الأولى بهم وكما نص عليه من المفسرين والأدباء جمع غفير، فسبعة وعشرون منهم حصر معناها هنا بالأولى، وخمسة عشر منهم جعلها المعنى الأولى، ومنها ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المَائدة: ٥٥] حيث الحصر دليل حصر الولاية في الأولوية لأن الحب والنصر غير محصورين في شخص أو اشخاص خصوص، ومنها ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٥] فإنها دون ريب تولى القيادة الزمنية، ومنها ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [محمَّد: ٢٢] ومنها ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٧] حيث الإخراج هنا هو إخراج السلطة الربانية، ومنها ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعَام: ١٤] ومنها ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [الأعرَاف: ١٥٥] ومنها ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

ذلك وهكذا لفظة المولى مثل ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣] و﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحَجّ: ٧٨] و﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٠] ﴿أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ [النّحل: ٧٦].

(١) أخرجه القرشي علي بن حميد في شمس الأخبار ص (٣٨) نقلاً عن سلوة العارفين للموفق بالله الحسين بن إسماعيل الجرجاني بإسناده عن النبي ﷺ... وفي حديث احتجاج عبد الله ابن جعفر على معاوية قوله: يا معاوية إني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر وأنا بين يديه وعمر بن أبي سلمة وأسامة بن زيد وسعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي وأبو ذر والمقداد والزبير بن العوام وهو يقول: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقلنا: بلى يا رسول الله؟ قال: أليس أزواجي أمهاتكم؟ قلنا: بلى يا رسول الله؟ قال: من كنت مولاه فعلي مولاه أولى به من نفسه وضرب بيده على منكب علي فقال: اللهم وال من والاه وعاد من =

كولائي»[1] «من كان الله وأنا مولاه فهذا عليٌّ مولاه يأمركم وينهاكم ما لكم عليه من أمر ولا نهي»[2] ولقد صدق هذه الأولوية المعنية من المولى هنا صراحاً جمع كثير منهم أربعة عشر من الأعلام[3].

= عاداه أيها الناس إنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معي أمر وعلي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه أمر..

(١) وفي احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام أيام عثمان كما أخرجه شيخ الإسلام الحمويني قوله: ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أيها الناس أتعلمون أن الله عز وجل مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: قم يا علي فقمت فقال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه.. فقال سلمان يا رسول الله ولاء كماذا؟ قال: ولاء كولائي من كنت أولى به من نفسه فعليٌّ أولى به من نفسه وهكذا في مناشدته عليه السلام يوم صفين «ولاء كولائي» وروى الحافظ العاصمي في زين الفتى قال سئل علي عليه السلام عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» فقال: نصبني علماً إذ أنا قمت فمن خالفني فهو ضال.

(٢) وروى السيد الهمداني في مودة القربى: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: معاشر الناس أليس الله أولى بي من نفسي يأمرني وينهاني ما لي على الله أمر ولا نهي؟ قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: من كان الله وأنا مولاه فهذا عليّ مولاه يأمركم وينهاكم ما لكم عليه من أمر ولا نهي..

(٣) هم: ١ - ابن زولاق الحسن بن إبراهيم أبو محمد المصري (٣٨٧) في تاريخ مصر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيه واستخلفه «وحكاه عنه المقريزي في الخطط ٣: ٢٢٢.

٢ - الإمام أبو الحسن الواحدي (٤٦٨) بعد ذكر حديث الغدير ٣ - حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٥٠٥) في سرِّ العالمين بعد ذكر الخلاف في معنى المولى... لكن أسفرت الحجة وجهها وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته يوم الغدير باتفاق الجميع وهو يقول: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» فقال عمر: بخ بخ يا أبا الحسن، لقد أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة، فهذا تسليم ورضى وتحكيم، ثم بعد هذا غلب الهوى لحب الرياسة وحمل عمود الخلافة وعقود البنود وخفقان الهوى في قعقعة الرايات واشتباك ازدهام الخيول وفتح الأمصار سقاهم كأس الهوى فعادوا إلى الخلاف الأول ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ٤ - قال شمس الدين سبط ابن الجوزي (٦٥٤) والمراد من الحديث الطاعة المحضة وهو الأولى ومعناه: من كنت أولى به من نفسه فعليّ أولى به وقد صرح بهذا المعنى الحافظ يحيى بن سعد الثقفي في مرج البحرين ٥ - وقال كمال الدين بن طلحة الشافعي (٦٥٤) في مطالب السئول ص ١٦... وهذا صريح في تخصيصه لعلي عليه السلام بهذه المنقبة العلمية وجعل لغيره كنفسه بالنسبة إلى من دخلت عليهم كلمة «من»=

تتويج الأمير يوم الغدير بتاج إمرة المؤمنين:

من ألقاب الرسول ﷺ «صاحب التاج» وهو تاج الرسالة الكبرى بين كافة المرسلين وكما في «نِبوءِت هيّلد» باللغة الأنقلوسية وهي العبرانية الرمزية «محمَّد كِآيا إعَا بايا دِ يُطمعَ هُو يا وِنِهِي كلَيليا»: محمد هو كبير قدير، الشجرة الرفيعة الطيبة، مأمول لإفناء ما كان وإطفاء النائرة وهو الكل والتاج(١).

لذلك، وأن العمائم تيجان العرب(٢)، لقد عمَّم الرسول ﷺ الأمير عليه السلام يوم الغدير بعمَّة خاصة تعرب عن العظمة والجلال، وتوجَّه بيده الكريمة بعمامته (السحاب) في ذلك الحشد العظيم تدليلاً على أن المتوَّج بها يومذاك مقيَّض بإمرة المؤمنين كإمرته ﷺ فهو يُبلِّغ المسلمين بخطبته

= التي هي للعموم بما لا يجعله لغيره وليعلم أن هذا الحديث هو من أسرار قوله تعالى في آية المباهلة.. والمراد نفس علي ٦ - وقال صدر الحفاظ الكنجي في كفاية الطالب حديث غدير خم دليل على التولية وهي الاستخلاف ٧ - وقال سعيد الدين الفرغاني... كان هذا البيان بالتأويل بالعلم الحاصل بالوصية من جملة الفضائل التي لا تحصى خصه بها رسول الله ﷺ ٨ - وقال علاء الدين أبو المكارم السمعاني (٧٣٦) في العروة الوثقى:... فصار علي عليه السلام - سيد الأولياء وكان قلبه على قلب محمد ﷺ ٩ - وقال الطيبي حسن بن محمد (٧٤٣) في الكاشف... ولذا هنأ عمر بقوله: يا بن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كلّ مؤمن ومؤمنة ١٠ - وقال شهاب الدين دولت أبادي (١٠٤٩) في هداية السدراء مثله ١١ - أبو شكور السالمي ١٢ - ابن باكثير المكي ١٣ - السيد الأمير محمد اليمني (١١٨٢) ١٤ - الشيخ أحمد العجيلي في ذخيرة الآمل.

أقول: كلّ هذه المسانيد نقلناها عن كتاب الغدير للمغفور له العلامة الأميني ج ١ بكامله.

(١) ذلك وحي الطفل لحمان حطوفاه نزل عليه قبل مبعث الرسول ﷺ بسبعين سنة أوردناه في كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية، وعده الشبلجي في نور الأبصار ٢٥ من ألقابه ﷺ.

(٢) رواه القضاعي والديلمي وصححه السيوطي في الجامع الصغير ٣: ١٥٥ وأورده ابن الأثير في النهاية عنه ﷺ.

تلك الهامة ويتوجه بمثل عمته تلك السحاب، وكما قال عليه السلام : عمّني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خم بعمامة فسد لها خلفي، وأن الله أمدني يوم بدر وحنين بملائكة يعتمّون هذه العمّة»[1] ولمّا عمّمه صلى الله عليه وآله وسلم قال له: يا علي العمائم تيجان العرب[2].

أجل، فقد عمّمه عليه السلام عِمَّته السحاب حيث وهبها لعليٍّ عليه السلام فربما طلع عليٌّ فيها فيقول صلى الله عليه وآله وسلم : «أتاكم علي في السحاب»[3].

وهكذا يتوجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتاجه السحاب ليسحب أمته من بعده إليه كما كانوا مسحوبين إليه صلى الله عليه وآله وسلم تكملة لبيان الخلافة الكبرى بعده فلا يرتاب أحد إلّا الذين هم حاقدون فاقدون للإيمان.

فتلك مصارح للأولوية الطليقة في إمرة المؤمنين لعلي أمير المؤمنين عليه السلام في مسارح من خطبة الغدير وهذا تاج الإمرة في ختامها، وهاتيك القرائن العشرون أو تزيد مُتصلة ومُنفصلة، كتاباً وسُنَّة في عناية الأولوية من المولى، ورواة الغدير المائة وعشرة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والمؤلفون حولها الستة والعشرون والتابعون الأربعة وثمانون، والعلماء طيلة القرون الإسلامية الراوون إيّاه عن الصحابة والتابعين الثلاثمائة والستون،

(١) رواه الحافظ عبد الله بن أبي شيبة وأبو داود الطيالسي وابن منيع البغوي وأبو بكر البيهقي في كنز العمال ٨: ٦٠ عنه عليه السلام ورواه من طريق السيوطي عن الأعلام الأربعة السيد أحمد القشاشي في السمط المجيد وفي كنز العمال عن مسند عبد الله بن الشنخير عن عبد الرحمن ابن عدي البحراني عن أخيه عبد الأعلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا علي بن أبي طالب فعمّمه وأرخى عذبة العمامة من خلفه.

(٢) رواه الحافظ الديلمي عن ابن عباس قال: لما عمّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً بالسحاب. .

(٣) قال الغزالي في البحر الزخار ١: ٢١٥ كانت له عمامة تُسمى السحاب فوهبها. . . وقال الحلبي في السيرة ٣: ٣٦٩: كان له صلى الله عليه وآله وسلم عمامة تُسمى السحاب كساها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فكان ربما طلع عليه علي كرم الله وجهه فيقول صلى الله عليه وآله وسلم : أتاكم علي في السحاب يعني عمامته التي وهبها له.

والمصدقون لقاطع تواتره الثلاثة والأربعون، والمناشدون به من علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام ومعهم كثيرون، والمهنئون بإمرته عليه السلام ومنهم الشيخان وكثير سواهما!.

ذلك وقد أورد قصة الغدير كلُّ المؤرخين عن بكرتهم، ومن كبرائهم خمسة وعشرون مؤرخاً[١].

تلك قصة الغدير، فهل ترى أَصْرَح منها في تأمير الأمير، فما لها من نكير إلّا نكير عقله أو إيمانه ولا يُنبئك مثل خبير.

ولئن سُئلنا: فلماذا لم يجر ذكر الإمام علي عليه السلام في القرآن ولا مرة يتيمة حين يكون أَمْر إمرته بهذه الأَهمية الكبرى؟.

فالجواب أن القصد من ذكر الاسم ليس إلّا تسجيل المكانة لصاحبه وقد سُجِّل هكذا، وقد يتطرَّق إلى صُراح الاسم تأويلات أنْ يسمى سواه باسمه، ولكنه ليس من الممكن أن يتسمى بسمته وولده المعصومين سواه وسواهم، حيث الحقيقة لا تقبل التأويل والاختلاق مهما تحمّلها الأسماء.

فحتى إذا كانت صراحة الاسم لحدٍّ لا يقبل أي تأويل، فقد كان يخلق هزازات ونكرانات للأكثرية الطليقة من هؤلاء المسلمين والنتيجة هي الحُكْم بخروجهم عن الإسلام جهاراً بذلك الإنكار لجليِّ النص من القرآن، فترجع المشكلة الشائكة التي كان يخافها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على رسالته من ذلك البلاغ فالجمع بين الحفاظ على ظاهر الإسلام لكلٍّ من يدعيه، وواقع الحجة البالغة

(١) كالبلاذري وابن قتيبة والطبري وابن زولاق والخطيب البغدادي وابن عبد البر والشهرستاني وابن عساكر وياقوت الحموي وابن الأثير وابن أبي الحديد وابن خلكان واليافعي وابن الشيخ البلوي وابن كثير وابن خلدون وشمس الدين الدبسي والنويري وابن حجر العسقلاني وابن الصباغ والمقريزي والسيوطي والقرماني ونور الدين الحلبي وغيرهم (الغدير ١ : ٦).

لمن يُريد صالح الإيمان، فحقُّ العقاب على ناكريها مهما تظاهر بالإيمان وتَمَجْمَجَ في دلالة آيات الولاية وأحاديثها.

ذلك الجمع يقتضي نفس الواقع الذي نعيشه بين الكتاب والسُّنة من قصة الخلافة.

وترى - بعدُ - أن عدم التصريح باسم ولاة الأمر بعد الرسول ﷺ يَنْقُص أو يَنْتَقِض من دلالة الكنايات الكتابية التي هي أبلغ من التصريح، ومن التصريحات الوفيرة في السنة وهناك كثير من الأحكام الثابتة بالسُّنة القطعية ولا دليل لها من الكتاب إلّا عمومات أو إطلاقات.

ولما يصدق الخليفة عمر في صِراح القول ولاية الإمام بأولويته الطليقة فما بال أتباع له ينكرونها ويتشككون فيها، ومن ألفاظه، لما قيل له: إنك تصنع بعليٍّ - أي من التعظيم - شيئاً لا تَصْنع مع أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ فقال: إنه مولاي[1].

وختاماً للكلام حول آية التبليغ تعالوا معنا نسمع الامام عليه السلام ماذا يقول عن رباطه بالرسول ﷺ ما يثبت جدارته القمة بإمرة المؤمنين: «أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومُضَر، وقد علمتم

(١) أخرجه الطبراني، وفي الفتوحات الإسلامية ٣: ٣٠٧ حكم عليّ مرة على أعرابي بحكم فلم يرض بحكمه فتلببه عمر بن الخطاب وقال له: ويلك إنه مولاك ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة، وأخرج الحافظ ابن السمان كما في الرياض النضرة ٣: ١٧٠ وفي ذخائر العقبى للمحب الطبري ٦٨ ووسيلة المآل للشيخ أحمد بن باكثير المكي ومناقب الخوارزمي ٩٧ والصواعق ١٠٧ عن الحافظ الدارقطني عن عمر وقد جاءه أعرابيان يختصمان فقال لعلي عليه السلام: اقض بينهما، فقال أحدهما: هذا يقضي بيننا؟ فوثب إليه عمر وأخذ بتلبيبه وقال: ويحك ما تدري من هذا؟ هذا مولاي ومولى كلّ مؤمن ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن، وعنه وقد نازعه رجل في مسألة فقال: بيني وبينك هذا الجالس - وأشار إلى علي بن أبي طالب عليه السلام - فقال الرجل: هذا الأبطن؟ فنهض عمر عن مجلسه وأخذ بتلبيبه حتى شاله من الأرض ثم قال: أتدري من صغرت؟ هذا مولاي ومولى كلّ مسلم.

مَوْضِعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد، يضمني إلى صدره، ويكنُفني في فراشه، ويُمِسّني جسدَه، ويُشمني عَرْفَه، وكان يمضغ الشيء ثم يُلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قولٍ ولا خطْلةٍ في فعل.

ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم مَلكٍ من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كلِّ يوم من أخلاقه عَلَماً ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يُجاور في كلِّ سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيتٌ واحد يومئذٍ في الإسلام غيرَ رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة.

ولقد سمعتُ رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت: يا رسول الله ﷺ ما هذه الرنَّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أَيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلّا أنك لست بنبيٍّ ولكنك وزير، وإنك لعلى خير»(١).

«كنت أيام رسول الله ﷺ كجزء من رسول الله ﷺ ينظر إلي الناس كما يُنظر إلى الكواكب في أُفق السماء، ثم غضَّ الدهر مني فقُرن بي فلان وفلان، ثم قرنت بخمسة أفضلهم عثمان فقلت واذفراه، ثم لم يرضَ الدهرُ لي بذلك حتى أرذلني فجعلني نظيراً لابن هند وابن النابغة، لقد استنت الفصال حتى القرعى»(٢).

«أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلّي منها محلّ القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليَّ الطير... فرأيت إن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى، أرى

(١) نهج البلاغة الخطبة ٣٧٣ / ٤ / ١٩٠.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٧٣٣.

تُراثي نهباً . . حتى إذا مضى الأول لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى، متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر»[1].

«فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي، مستأثراً عليَّ، منذ قبض الله نبيه ﷺ حتى يوم الناس هذا» (الخطبة ٦ / ٤٩).

«لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلِّمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلَّا عليّ خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه» (٧٢ / ١٢٩).

«فوالله إني لأَوْلى الناس بالناس، لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم» (١٣٤ / ٢٤٧).

«اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفؤوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري. . .» (٢١٥ / ٤١٣) - «فلما مضى ﷺ تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي، ولا يخطر ببالي، أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده ﷺ عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني إلَّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد ﷺ فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلْماً أو هدماً تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان كما يزول السراب، أو كما يتقشَّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل، فإن أعطيناه وإلَّا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى» (٢١ ح/ ٥٦٨).

(١) الخطبة الشقشقية ٤٧ / ٤.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

إن احتفاف آية التبليغ بآيتي التنديد بأهل الكتاب احتفاف قاصد يعني فيما يعنيه أن شريعة القرآن خالدة بما بلغ الرسول ﷺ كأصل في استمرارية الدعوة القرآنية بدعاتها الربانيين، فلييأس أهل الكتاب - ومعهم أضرابهم - من هذا الدين المتين أن يزول أو يذبل، فعليهم إقام التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم حتى يظلوا تحت ظلِّ الإسلام ليكونوا على شيءٍ من المُكنة والمكانة الحيوية، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ... فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهكذا يرسم الله للداعية الواعية المحمدية بهذه التوجيهات منهج الدعوة ومنهاجها، إطْلاعاً له على حكمة الله وتسليةً لقلبه عما يصيب الكافرين، وأنه لن يصيب منهم هذا الدين المتين أية إصابة، ولقد نزلت هذه الآية دَبْرَ حوادث وكوارث منها ما حاجَّ به أهلُ الكتاب الرسول الأقدس ﷺ فحاجهم الله[1].

وهنا ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ تذرو الإيمان بالكتاب دون إقامته في الحياة ذرو الرياح، فالإيمان دون إقامته هو صورة للإيمان وليس سيرة له، فإن قضية صادق الإيمان إقامته، فقد أمروا أن يأخذوا الكتاب بقوة: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٩ - أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال جاء رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حرملة قالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من حق الله؟ فقال النبي ﷺ: بلى ولكنكم حدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوا للناس فبرئت من أحداثكم، قالوا: فإنا نأخذ مما في أيدينا فإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [المائدة: ٦٨].

بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾[٢] وكما ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[٣] وهكذا بأحرى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٤] و﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[٥].

فإقامة الدين هي المهمة المأمور بها، دون الاعتقاد الجاف به وكما ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٦] فكما أن غير المؤمن بأسره ليس على شيء، كذلك المؤمن غير المقيم إيمانه ليس على شيء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

هذه الآية وأضراب لها تمَحوِر الإيمان والعمل الصالح للعاقبة الحسنى مهما كان المؤمن من ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المسلمين، أو ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ فالمؤمنون منهم العاملون صالحاً ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فعلى المسلم المتخلف أن يخاف ويحزن، وليس على الكتابي ولا الصابئي الصالح أن يخاف ويحزن، حزناً على عاجله وخوفاً عن آجله، حيث المحور الأصيل للنجاة هو سيرة الإيمان جانحة وجارحة، دون اسمه وصورته الفاضية عن أصله، بل هو الفائضة على الأعمال كما الأقوال، ولقد مضى القول الفصل حول الآية على ضوء آية البقرة (٦٢) والحج (١٧) وهنا يبقى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ١٩.
(٤) سورة المزمل، الآية: ٥.
(٥) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٦) سورة الشورى، الآية: ١٣.

سؤال: كيف اختص «الصابئون» هنا بالرفع دون الأخريين، وقضية العطف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كما فيهما النصب؟

«الصابئون» هنا عطف على محل المعطوف عليه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وعلَّه لعناية الاستقلال أنهم كما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فلا دَوْرَ - إذاً - لما يُقال: لا يصح العطف على اسم «إن» بالرفع قبل مضيِّ الخبر، حيث القرآن هو محور الأدب ومرجع الأدباء، فإن خالفهم فهو الأصل دون قولة الأدباء، فكلٌّ أدب خالف القرآن من أي أديب، هو غير أديب.

ثم هذه الآية - وبعد تأصيل إقامة الكتاب - ترفض تأثير الأسماء، فإنما هو الإيمان والعمل الصالح من أيٍّ كان مسلماً أو يهودياً أو صابئياً أو نصرانياً، وفي ذكر «الصابئون» خلال الكتابيين الرسميين، ولا سيما بالرفع اللّامح إلى الاستقلال، ضربة قاسية قاضية على الأسماء الخاوية، تأصيلاً لواقع الإيمان وعمل الصالحات.

ثم «من آمن...» إضافة إلى طرد المنافقين عن دور النجاة تبيّن أن الإيمان الأصيل أيضاً لا يكفي، وإنما الظاهر في عمل الصالحات، ولم يقل «منهم» لكي تشمل هذه الضابطة مع المذكورين هنا كلّ من يحمل هذه المواصفة.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهو طليق الميثاق على الإيمان توحيداً: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ...﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

و﴿لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾(١) و﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾(٢) فعامَّة الميثاق وخاصته عليهم هي الميثاق في أصول الدين وفروعه التي يجمعها ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يحملون كلَّ رسالات الله المأخوذ عليهم ميثاقها.

ولكنهم خالفوه إلى أهوائهم تبديلاً لميثاق الهدى إلى ميثاق الهوى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ من رسالات الله ورسله ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

فالرسالة المرضية عندهم هي رسالة الهوى وليست رسالة الهدى إذ لا يرضون من الرسالات إلَّا ما تهواه أنفسهم، وحين يرونها تخالف أهواءهم بكثيرٍ أو قليلٍ فـ ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ من رسل الله ويكذبون ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كما قتلوا من ذي قبل.

فالتكذيب السابق هو المحور ويلحقه اللَّاحق وكما القتل، ولا تعني ﴿يَقْتُلُونَ﴾ فقط حال الرسل الحاضرين معهم، بل والاستقبال، رضاً بذلك القتل، وقتلاً لتلك الرسالات بتكذيبات وتحريفات وتجديفات.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾:

﴿وَحَسِبُوا﴾ ذلك الحسبان الغالط الهابط الساقط - على تكذيبهم وقتلهم أنبياءهم - ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وهما من أفتن الفتن في النشأتين، وبذلك الحسبان وأنهم أبناء الله وأحباءه فلا يعذبون ﴿فَعَمُوا﴾ عن إبصار الحق ﴿وَصَمُّوا﴾ عن سماعه، وبذلك ابتعدوا عن رَوح الله ورحمته ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ليتوبوا ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ تكراراً وإصراراً ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ فلم تك

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٣.

تنفع توبة الله عليهم إلّا لقليل منهم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من طالح وصالح إذ لا تخفى عليه خافية.

هذا، وذلك الحسبان الجاهل القاحل هو من أَفْتَن الفتن وأعضل المِحَن ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1] فالعارف بخسرانه وفتنته يرجى أن ينتبه، ولكن الحاسب فتنته رحمة وخسرانه نعمة ليس لينتبه.

وكان المرة الأولى من عماهم وصممهم هي قبل الرسالة الإسلامية، ومن توبة الله عليهم ابتعاث محمد ﷺ ليحيدوا عن باطل ما كانوا يحسبون، والمرة الثانية هي بعد ظهور الإسلام حيث عمّوا وصموا عنه ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ وقليل هم مؤمنون برسالة الإسلام، ذلك ومن عماهم الأعمى وصممهم الأصم إفسادهم مرتين عالميتين كما شرحناهما في الأسرى ولأن «عموا وصموا» كما ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ كلّ ذلك الثالوث من فعلهم تقصيراً دون قصور، ولم يكن من الله إلّا أن ﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فقد ذاقوا بما قصروا وبال أمرهم وما ربك بظلّام للعبيد.

فقد نقضوا ميثاق الله الذي واثقهم به بتكذيبهم وقتلهم أنبياءَ لهم، ثم حسبوا أَلَّا تكون فتنة، ثم عمّوا وصمّوا، ثم - بعد أن تاب الله عليهم - عمّوا وصمّوا مرة ثانية.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾:

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

هنا عرضٌ لعقيدة - هي عقدة العُقَد - في اللّاهوت المسيحي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾: الإله الأب والروح القدس والابن، بتأويل أنَّ الله تنزَّل عن لاهوت الألوهية فتجسَّد في رحم البتولة العذراء فتمثل بشراً سوياً! فهو - إذاً - الله أم «مريم» بديلة عن «روح القدس» كما تدل عليه ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

ففي الحقول الكنسية اقتسمت الألوهية بين الله والمسيح وأمه وروح القدس، ولكن الحظوة العليا في هذا البين للمسيح الذي لا يخلو دور الألوهية منه إلهاً أم ابناً لله أم أقنوماً من الأقانيم الثلاثة مهما كان غير ابن، فهو إذاً مثلث من الألوهية! ومريم والروح والله لكلٍّ حظوة واحدة منها لا تبقى حيث انتقلت إلى المسيح!.

وهذه ترقية للسيد المسيح في قوسه الصعودي وتنزل لله في قوسه النزولي، فقد كان عبداً ثم تشرف بشرف البنوة التشريفية، ثم البنوة الصّلبية، ثم مشاركاً في ذات الألوهية في ثالوثها، ثم إلهاً لم يبق بعدُ غيره إله، لا إله الأب ولا إله الأم ولا إله روح القدس.

فلكلٍّ من الفرق المسيحية المنحرفة واحدة من هذه المراحل اللّاهوتية للمسيح، والأصل الأصيل - على أية حال - هو المسيح لا سواه.

وذلك أنحس ما وصل إليه اللّاهوت العقائدي في المسيحية، بعدما تقوّلوا: إن المسيح عليه السلام هو ابن الله تشريفاً دون حقيقة البنوة، ثم تخطَّوا هذه القيلة إلى أن المسيح ابن الله، جزءاً من كيانه كيفما كان تجزُّءه، ثم مشاركاً مع الله في جوهر الألوهية، وإلى أن الله تبدَّل بكلِّ كونه وكيانه إلى المسيح بظاهر الولادة المريمية!.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

فـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(١) وهؤلاء هم المثلثون القائلون بالأقانيم الثلاثة.

ثـم ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ. . .﴾(٢) وأولئك هم الثنويون المريميون(٣).

ثم هاتان الآيتان (٧٢ - ٧٣) هنا عرض لثالث ثلاثة من ثالوث عقائدهم اللّاهوتية هو توحيد المسيح عليه السلام في الألوهية، إذابة للإله الآب بتخلٍّ كامل وتجافٍ شامل في رحم مريم العذراء، فتناسيا عنه فضلاً عن مريم وروح القدس، ولذلك نراهم يقولون في شعارهم «إلهنا المسيح» معبِّرين عن مريم عليها السلام بـ «أم الإله و«أنه مولود غير مخلوق» مولود حيث برز بمظهر الناسوت بعد اللّاهوت، وغير مخلوق لأنه هو هو دون تعدد إلّا بالمظهر، فهناك لاهوت وهنا ناسوت(٤)!.

ونسمعهم يذكرون في ذكرياتهم وأذكارهم أنه «الإله المخلص المنجي المتجسد» وذلك لا يخلو عن محتملات تالية: أن الله - سبحانه - تنزل بكلِّ كونه وكيانه عن لاهوت الألوهية والتجرد إلى ناسوت الجسم تجافياً عن كينونته المجردة اللّامحدودة، حلولاً في جسم المسيح؟ وذلك مستحيل حيث

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٣) القول الفصل حول التثليث والتثنية راجع إلى آيتهما في النساء والمائدة.

(٤) نور الثقلين ١: ٦٥٩ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] والمسيح ابن مريم، أما المسيح فعصوه وعظموه في أنفسهم حتى زعموا أنه إله وأنه ابن الله وطائفة منهم قالوا: ثالث ثلاثة وطائفة منهم قالوا: هو الله. . .

المجرد لا يتبدل إلى نقيضه اللّامجرد! إلّا انمحاءً عن وجوده فتكوُّناً بالكيان المادي؟ فذلك فناءٌ وهذا حدوث يُنافيان ساحة الألوهية!.

أم حلولاً لذاته المجردة اللّامحدودة في جسم المسيح المحدود؟ وهو جمع بين النقيضين: اللّامحدود والمحدود، اللّهم إلّا بتحول اللّامحدود إلى محدود فكذلك الأمر!.

فأصل التحول لله مستأصَل عن ساحته فإنه قضيةُ الحدوث، ثم تحوُّله عن التجرد إلى المادة مستأصَل أخرى لاستحالة تبدُّل النقيض إلى نقيضه، اللّهم إلّا بفنائه ثم حدوث نقيضه مكانه وليس هذا من التحوّل، وهو في نفسه مستحيل حيث الفناء في ساحة الألوهية مستحيل! ثم انتقاله على تجرده اللّامحدود إلى جسم المسيح ورحم مريم المحدودين ثالثة، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

أجل فـ ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ - أو - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ كفروا عن شرعة التوحيد الكتابية، ولا نجد في الأناجيل - على تحرُّفها - نصاً أو ظاهراً في ألوهية المسيح أو بنوته لله أو التثليث! كما فصلنا البحث حوله على ضوء الآية (١٧١) من النساء.

وليست خرافة ألوهية المسيح أو بنوته لله أو الثالوث إلّا من المختلَقات الكنسية منذ صعود المسيح عليه السلام وقد ترسبت هذه المختلقات الزور إلى حدٍّ يُعتبر سواها من التوحيد، أم وبنوة المسيح التشريفية من البدع[1].

(١) البدع، ١ - ٤ مذهب المونارخيانية MONARCHIANISME منذ نهاية القرن الأول قام مبتدعون متهودون: «قيرنتوس والإبيونيون» - على حدِّ تعبير مذهب الثالوث - يدعون إلى التوحيد المشدد والأقنوم الواحد - الإله الواحد - ! فأنكروا ألوهية المسيح: (القديس ايريناوس في كتابه ضد المبتدعين ١ - ٢٦) وفي نهاية القرن الثاني قامت البدعة: =

. . . .

= المورناخيانية - تعلم: أنه ليس في الله إلّا أقنوم واحد : (ترتليانوس في كتابه ضد بركسياس:
٣) وهذه البدعة تقسم تبعاً لموقفها من شخص المسيح إلى فرعين:
١ - المونارخيانية الديناميكية أو المتبنية، تعلم: أن المسيح إنسان عادي بسيط وله بطريقة فائقة الطبيعة من الروح القدس ومن مريم العذراء وقد هباه الله يوم اعتماده وبنوع خاص: القوة الإلهية وتبناه - تشريفياً -.
وأهم القائلين بهذه البدعة «تادوتس» الدباغ البزنطي، الذي أدخل تعاليمه روما حوالي سنة ١٩٠ ففصله عن الكنيسة البابا القديس فكتور الأول (١٨٩ - ١٩٨) بولس السميصاني مطران أنطاكيا الذي حكم عليه كمبتدع خلعه مجمع أنطاكيا المنعقد سنة ٢٦٨ وفوتينوس أسقف سرميوم الذي خلعه مجمع انعقد في سرميوم سنة ٣٥١.
٢ - مذهب عدم المساواة SUBORDINATION ISME يسلم هذا المذهب على خلاف سابقه بثلاثة أقانيم إلّا أنه ينكر على الأقنوم الثاني والأقنوم الثالث مساواتهما للأب بالجوهر وبالتالي بالألوهية الحقة.
٣ - المذهب الآريوسي: نسبة إلى الكاهن الاسكندري آريوس (٣٣٦) الذي كان يعلم بأن الكلمة (LOGOS) ليس من الأزل ولم يولد من الآب بل هو خليفة الآب خرج من العدم قبل سائر الخلائق كلها، فهو ليس مساوياً للأب في جوهره، ومنها نعتوا بـ«الأنوميين» بل هو خاضع للتغير وقابل للتطور وليس هو الله بالمعنى الخاص الحقيقي، بل بالمعنى النسبي فقط إذ تبناه بسابق نظره إلى استحقاقه، وقد حرّمت هذه البدعة في المجمع النيقاوي المسكوني الأول (٣٢٥) الذي وضع قانوناً للايمان يعترف فيه: بأن يسوع المسيح هو ابن الله المولود من جوهر الآب، وبالتالي يعلن حقيقة ألوهته ومساواته للأب في الجوهر (٥٤٥٠).
٤ - المذهب المكدونياني: نشأ من الآريوسية المعتدلة فرع لها هو شيعة (بنفما توماك، أي: أعداء الروح القدس) التي ينسبونها منذ أواخر القرن الرابع، وربما عن خطأ - إلى مكدونيوس: أسقف القسطنطنية الآريوسي المعتدل (عزل عام ٣٦٠ وتوفي قبل ٣٦٤) وهذه البدعة أطلقت مذهب عدم المساواة على الروح القدس أيضاً - معلنة إياه بالإستناد إلى عبرانيين ١: ١٤ خليقة وروحاً للخدمة - كالملائكة - وقد قام ضد دعاة هذه البدعة القديس اثناسيوس والكبادوقيون الثلاثة... فدافعوا عن ألوهية الروح القدس وعن وحدة جوهره مع الآب والابن، وقد حرمت هذه البدعة في مجمع عقد في الاسكندرية (٣٦٢) برئاسة القديس اثناسيوس وفي مجمع القسطنطنية المسكوني الثاني (٣٨١) وفي مجمع عقد في روما (٣٨٢) برئاسة البابا القديس داماسيوس (٧٤٥٠ - ٨٢) وقد أضاف مجمع القسطنطنية إلى قانون نيقية فقرة خطيرة يعلن فيها ألوهة الروح القدس إعلاناً هو على الأقل غير مباشر وينسب إليه الصفات الإلهية «نؤمن... بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع =

والذي دسَّ في الكنائس هذه الخرافة الجارفة هو الخصي الكوسج المصري خادم الرهبان «أوريفين»[1] إلى أن تشكلت مجمع نيقية (٣٢٥ م) إذ جاءت من الجماعات الروحية المسيحية من شتى الأقطار مَن يزيد على ألف مبعوث لانتخاب الأناجيل التي يجب أن تعتبر قانونية، ولقد كان (٣١٨)

= الآب والابن - يسجد له ويمجد، الناطق بالأنبياء».

٥ - البروتستانية: طعن لوثر في الاصطلاحات التي نعبر بها عن التثليث، إلّا أنه حافظ على الإيمان بالثالوث ومع ذلك فإن مبدأ الحكم الشخصي الذي نادى به أدّى أخيراً إلى إنكار عقيدة الثالوث.

إن مذهب السوسينية بالنسبة إلى فوستوس سوزّيني قد اعتنق عن الله فكرة التوحيد إلى أقصى حدّ، بحيث لا تسمح باقانيم إلهية، وقد نظر إلى المسيح على أنه إنسان محض وإلى الروح القدس على أنه قوة إلهية لا شخصية».

٦ - أما علم اللاهوت والراسيونالي المعاصر: فإنه كثيراً مّا يحافظ على الاصطلاحات والتعابير الثالوثية التقليدية، إلّا أنه لا يرى في الأقانيم الثلاثة سوى تشخيص لصفات إلهية، كالقدرة والحكمة والجودة، ويرى (هرنك): إن الإيمان المسيحي في الثالوث ليس إلّا وليد الجدل الذي قام بين المسيحية واليهودية فكان أن اكتفوا أولاً بعبارة: ﴿ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ﴾ [التوبة: ٣١] رداً على عبارة «الله وموسى» ثم أضافوا إليها فيما بعد «الروح القدس» تقنين الثالوث الكنسي:

إن أقدم صيغة تعليمية رسمية لإيمان الكنيسة بشأن الثالوث الأقدس هي قانون الرسل الذي اتخذته الكنيسة منذ القرن الثاني في شكل قانون العماد الروماني القديم كأساس لتعليم الموعوظين ولاعتراف الإيمان في حفلة العماد عند اللاتين.

ثم... قانون نيقية القسطنطنية (٣٨١ م) وقد نشأ ضد مذهبي آريوس ومقدونيوس، ثم المجمع الروماني برئاسة البابا القديس داماسيوس (٣٨٢) يدين بصورة اجمالية أضاليل القرون الأولى في الثالوث الأقدس، ثم إلى القرن ٥ و٦ قانون اثناسيوس، ثم قانون مجمع طليطلة الحادي عشر (٧٦٥ م) ثم في القرون الوسطى قانون مجمع اللاترانى الرابع (١٢١٥ م) ثم مجمع فلورنس (١٤٤١ م) ثم في العصر الحديث تعليم لبيوس السادس (١٧٩٤ م)...

(كل هذه منقولات عن كتاب مختصر في علم اللاهوت العقائدي تأليف لوديغ اوث الألماني نقله إلى العربية الأب جرجس المارديني ج ١: ٧٣ تحت عنوان: البدع المضادة للتثليث وتحديدات الكنيسة التعليمية).

(١) هو راهب أعزب عارف باللغات عاش في القرن الثاني.

شخصاً من هؤلاء من القائلين بألوهية المسيح، وقد اجتهد آريوس رئيس الموحدين بالبرهنة على أن المسيح مخلوق وأنه عبد الله مستدلاً بما لديه من الآيات الإنجيلية وبتفاسير الأعزة والآباء من إيقليسيا، واعترف بهذه الحقيقة الثلثان الباقيان من الألف (أعضاء المجمع) وهم الموحدون الذين كانت تتألف منهم الأكثرية العظيمة من أعضاء المجمع النيقاوي.

ومن ناحية أخرى قام رؤساء الثالوثيين (وعلى رأسهم اثنا سيوس) للبرهنة على: أن المسيح إله تام وأنه متحد الجوهر مع الله، وأخيراً ترجَّح رأى المثلثين لا لشيءٍ إلّا للسلطة الجبارة آنذاك من قسطنطين (قونسطنطينوس) تحت ستار إيجاد الأمن بين المتخالفين، وأن قسطنطين يرجح رأي صديقه البابا كاهن رومية الأعظم وهو من الأقلية الثالوثية في نيقية، ويأمر بإخراج أكثر من سبعمائة من الرؤساء الروحيين الباقين:

الموحدين - من المجمع، ويقتل آريوس رئيس الموحدين لكي يصفِّي جوَّ المجمع (٣١٨) الباقين المثلثين.

ولقد صرَّح المسيح عليه السلام بهذا الحادث الجلل العظيم تنديداً بالمثلثين وتمجيداً للموحدين بقوله: «سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كلّ من يقتلكم أنه يُقدِّم خدمة لله وسيفعلون بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» (إنجيل يوحنا ١٦: ٣ - ٣ و١٣: ٩).

والآب لغة يونانية بمعنى الخالق وهم حرَّفوها معنوياً إلى الأب: الوالد.

ذلك، فالنصرانية الموجودة الآن إن هي إلّا من سلطان وثني ملحد وخصي كوسج مصري!.

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ...﴾ وكما في الإنجيل حيث يصرِّح المسيح عليه السلام في ثمانين موضعاً أنه عبد الله ورسوله ومنه «إن الحياة

الأبدية معرفة الله بالوحدانية وإن المسيح رسوله» (يوحنا ١٧ : ٣) و«أوّل الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحد» (مرقس ١٢ : ٢٩) وقد قال له الكاتب : «لقد قلت حسناً إن الله إله واحد وليس غيره من إله ولما رآه المسيح عاقلاً في جوابه وكلامه خاطبه قائلاً : لست بعيداً عن ملكوت اللّه» (مرقس ١٢ : ٣٢ و٣٤).

«ثم ويندّد ببطرس إذ قال له حاشاك يا رب! فالتفت إليه وقال: اذهب عني يا شيطان أنت مَعثرة لي لأنك لا تهتم بما لله ولكن بما للناس» (متى ١٦ : ٢٢ - ٢٣).

وهكذا نرى الوفير من تصاريح برنابا في إنجيله الذي أملاه عليه المسيح عليه السلام يصرح بخالص التوحيد الحق ولا ينبئك مثل خبير[1].

---

(١) ففيه ٧٠: ١ - ٧: «وانصرف يسوع من أروشليم بعد الفصح ودخل حدود قيصرية فيلبس، فسأل تلاميذه بعد أن أنذره الملاك جبرائيل بالشغب الذي نجم بين العامة قائلاً : ماذا يقول الناس عني؟! أجابوا : يقول البعض إنك إيليا وآخرون ارميا أحد الأنبياء، أجاب يسوع : وما قولكم أنتم فيّ؟ أجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله.
فغضب حينئذ يسوع وانتهره بغضب قائلاً : اذهب وانصرف عني لأنك أنت الشيطان وتحاول أن تسيء إليّ، ثم هدد الأحد عشر قائلاً : ويل لكم إذا صدقتم هذا لأني ظفرت بلعنة كبيرة من الله على كلّ من يصدق هذا. . فبكى بطرس وقال : يا سيد لقد تكلمت بغباوة فأضرع إلى الله أن يغفر لي، وفي برنابا ٨: ١١ : «وأراد المسيح أن يخرج بطرس فشفع له التلاميذ ثم هدده ثانياً ألا يكرر مقالته الكافرة هذه».
هذا وقد يصر علماء الإنجيل بموقف بطرس الخاطئ كالتالي: يقول مستر «فلك» والدكتور «كود» و«برنستس» وهو الملقب بالمرشد الفاضل في لسان جويل: إن بطرس رئيس الحواريين غالط في ما كتبه وجاهل بالإنجيل وقد ضل عن الإيمان الصحيح بالمسيح بعد نزول روح القدس، ويصرح «جان كالوين» أن بطرس ابتدع في الكنيسة بدعاً جارفة وأضاف المسيحية بها واستلب منها حريتها وجعل التوفيق المسيحي تحت رجليه.
ذلك وقد سمى من ألّهه من المجانين «. . . . فلما عرفوه أخذوا يصرخون: مرحباً بك يا إلهنا! وأخذوا يسجدون له كما يسجدون لله. فتنفس الصعداء وقال: انصرفوا عني أيها المجانين لأني أخشى أن تفتح الأرض فاها وتبتلعني وإياكم لكلامكم الممقوت.
لذلك ارتاع الشعب وطفقوا يبكون» (برنابا ٩٢: ١٩ - ٢٠) ويشهد على عبوديته الأرض=

وهنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ دون «إن المسيح هو الله» عبارة قاصدة لمعنى خاص هو أن الله الذي لا إله إلّا هو هو المسيح حيث تحوَّل عن لاهوته إلى ناسوت المسيح فلم يبق هناك إله إلّا المسيح، وأما «أن المسيح هو الله» ففيه قوس صعودي أنه تحول عن ناسوته إلى لاهوت الله وهم لا يقولون به، إنما قولهم هنا هو القوس النزولي: إن الله تحول إلى المسيح!.

وهنا في تعريف المسيح بـ «ابن مريم» تنديد شديد بهذه القولة الهاتكة الفاتكة أن كيف بالإمكان كون الله هو المسيح وهو كما يعلمون ابن مريم، فهل إن مريم هي أم الله في تحويله إلى المسيح فلا إله - إذاً - إلّا المسيح!.

وما تأويلهم العليل الكليل أن المسيح هو الله من جزء الروح وهو ابن مريم من جزء الجسم، إلَّا تناقضاً بيناً في حلول المجرد اللَّامحدود في الجسم المحدود.

ولمذهب الحلول هذا أبعاد شاسعة بين المشركين والكتابيين وحتى من عرفاء المسلمين مهما اختلفوا بين قوسي الصعود والنزول، حلول الله في بشر أم تحوُّل بشر إلى الله في وحدة الاثنين أو انمحاء غير الله في الله فيصبح بذلك إلهاً!!!.

وذلك العرفان الخارف لا يقف لحدّ بين اللَّاهوتيين المنجرفين إلى هوَّات الأهواء البعيدة عن حق الوحي والوحي الحق.

= والسماء قائلاً: «أُشهد إمام السماء وأُشهد كلّ شيء على الأرض: أني بريء من كلّ ما قد قلتم. لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعرضة لحكم الله مكابد شقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر لذلك متى جاء الله ليدين يكون كلامي كحسام يخترق كلّ من يؤمن بأني أعظم من إنسان» (برنابا ٩٣: ١٠ - ١١ و٩٤: ١ - ٣).

ويعتبر من يدعوه إلهاً ضالاً مستحقاً للمقت قائلاً: «إنكم قد ضللتم ضلالاً عظيماً أيها الإسرائيليون لأنكم دعوتموني إلهكم وأنا إنسان وإني أخشى لهذا أن ينزل الله بالمدينة المقدسة وباء شديداً مسلّماً إياها لاستعباد الغرباء. لعن الله الشيطان الذي أغراكم بهذا ألف لعنة! (برنابا ٩٢: ٢ - ٤).

وأما أن «الله ثالث ثلاثة» فقد تحتمل معنيين اثنين، أحدهما أن الأقانيم الثلاثة: الأب والابن وروح القدس، هم ثلاثة وواحد وواحد هو ثلاثة، والأقنوم الأصل هو الله! وثانيهما أنه عبارة أخرى لـ«أن الله هو المسيح» تجافياً لله عن لاهوته إلى ناسوت الابن، وتعامياً عن ألوهة الروح القدس.

ذلـــك، وفـــي ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ تنديد شديد بمؤلّهي المسيح عليه السلام أنه لا يفيدهم الفداء الصليبي المزعوم وأنه باختيار الصلب، أو اختيار أبيه: الله - له الصلب فدى بنفسه عمن يعتقد به وبألوهيته أو ثالوثه.

فحتى لو كان المسيح عليه السلام مدعياً ذلك الإشراك أو راضياً به لكان - وعوذاً بالله - من أهل النار، فضلاً عمن اختلقوا له منصب الألوهية وأنه بتفديته هذه ينجي المعتنقين أكذوبة الثالوث، عن النار.

ثم ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ تجتثُّ مستغرقةً الألوهية بكلِّ شؤونها عن غير الله، أقنوماً ذاتياً أو صفاتياً أم سواه، فأيّة مماثلة مع الله في أيٍّ من شؤون الألوهية والربوبية تحمل ألوهةً مَّا هي بصورة مستغرقة مسلوبة عمن سوى الله.

وهـنـا ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ تستغرق - في حرمان الجنة وإيواء النار خلوداً أبدياً ما دامت النار - كافة المشركين بالله، المسوِّين معه غيره ببنوة وتثليث وألوهة.

ثم و﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾[1] عبارة ثالثة هي صيغة واضحة عن أقانيهم الثلاثة.

وحصيلة تقوُّلاتهم اللّاهوتية في حقل الألوهية بعد البنوة التشريفية هي

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

ألوهية الابن كما الروح القدس اعتباراً بأنها من جوهر الأب، واحد هو ثلاثة وثلاثة هي واحد، ثم توحيد الألوهية للابن حيث حلَّ فيه الآب فلا إله إلَّا المسيح.

ومن لوازم الأخير هو ألوهة مريم كما المسيح فإنها - إذاً - والدة الإله، فلا دور بُعد للإله الآب حيث تجافى عن كونه وكيانه انتقالاً إلى رحم مريم إلى جسم المسيح.

ومن تصريحاتهم أن «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير»[1].

وهكذا نجد الروحيين المسيحيين يحاولون تثبيت الثالوث بأي وجه كان، وحين يهاجم عليهم بالبراهين العقلية التي تُحيل الثالوث يعتذرون بأنه فوق العقل كما أن ذات الله فوق العقل، رغم أنه تحت العقل حيث تحيله، دون ذات الله حيث يثبتها العقل، فالجمع بين كون شيء ثلاثة وواحداً هو جمع بين نقضين والمحال محال على أية حال.

ولكي يحيدوا عن ظاهرة التناقض يلجؤون إلى صيغة «توحيد الثالوث» تمثيلاً له بالذات المقدسة عندنا الموصوفة بالأوصاف الثلاثة الذاتية، وأين ثلاثة من ثلاثة؟!.

فالصفات الذاتيات الثلاث عبارات عن ذات واحدة غير متجزئة، فليس في الواقع إلَّا وحدة تجردية بسيطة دون أجزاء وصفات عارضة ولا ذاتية مركبة، ولكنهم يفسرون ثالوثهم بذوات ثلاث مُفصلة عن بعضها البعض ولكنها مُتساوية الجوهر في وحدة حقة حقيقية[2]!.

---

(١) كما في كتاب قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست الأمريكي.

(٢) هنا يقول الكاتب المسيحي المعاصر رئيس مطارنة بيروت الأستاذ الحداد في ص ٤٤ من=

ذلك، وإلى قول فصل سيأتي على ضوء آية الغلو حول خرافة الثالوث وألوهة المسيح وبنوته عقلياً ونقلياً على ضوء قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ . . .﴾[(١)] حيث يشير إلى أنها خرافة وثنية عتيقة تسربت في النصارى ثم ترسبت فيهم، فهم ليسوا أصلاء في هذه الخرافة الجارفة، بل هم يقتفون آثار مختلف صنوف المشركين في تاريخ الإشراك.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾:

توبة إلى الله مما يقولون على الله من جارفة خارفة هارفة، واستغفاراً إياه أن يستر عنهم هذه الانحرافات بمخلّفاتها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للتائبين إليه المستغفرين إياه.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

= كتابه: القرآن والكتاب: «إن توحيد التثليث من أرقى مراتب التوحيد ولم تكن البيئة البدائية في الحجاز لتقوى على استساغته لأنهم ما أوتوا من العلم إلّا قليلاً! والنصرانية منذ كانت هي دين التوحيد مع قولها بعقيدة التثليث في الطبيعة الإلهية الواحدة فالتثليث المسيحي الصحيح لا يعدّد ولا يجزأ اللاهوت الواحد في الله الأحد، فالنصرانية أولاً وأخيراً تؤمن بإله واحد كما ينص عليه مطلع دستور إيمانها الذي هو شهادتها تحت كلّ سماء ومن ثم فالإيمان في ألوهية عيسى - لا في تأليه عيسى - وفي تأنسه وتجسده لا يزيد شيئاً ولا ينقص شيئاً من طبيعة الخالق الواحدة، إذن فالعقيدتان المسيحيتان «التثليث والتجسد» لا تمتان إلى الشرك بصلة، إنهما من صميم التوحيد وتعتبرهما النصرانية القديمة في معناهما الصحيح تفسيراً منزلاً لحياة الحي القيوم في ذاته السامية كما نزل به الإنجيل.

وهذا التعليم الكامل لم يكن الرسل والحواريون يبشرون به لأول وهلة بل كانوا ينادون بالتوحيد الأركان الأولى لأقوال الله في ديار الوثنية والشرك وبعد توطيد الإيمان كانوا يفسرون للمؤمنين غنى الطبيعة الإلهية في تفاعلها اللامحدود وتثلثها الذاتي اللامتناهي على قدر ما يمكن للعقل البشري المحدود أن يستوعب حياة الحي القيوم اللامحدود.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

هنا ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ كما في غيره من الرسل يحصر كيان المسيح في رسالة الله دون زائد ولا ناقص ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾: هي كمال الصدق وتمامه قالاً وحالاً وأعمالاً، ومن الواقع الذي يثبت أنهما من البشر دون ألوهة ولا بنوة أم أمومة لله، أنهما ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ وأكل الطعام دليل الحاجة المستمرة، ثم الخارج منهما من حصيلة الطعام دليل آخر على بُعدهما عن ساحة الألوهية فـ «من أكل الطعام كان له ثقل - ثفل - ومن كان له ثقل فهو بعيد مما ادعته النصارى لابن مريم عليه السلام»[1]، إذاً فكيف يكون المسيح وأمه عليهما السلام إلهين من دون الله كما يتساءل المسيح: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾[2].

ولأن أكل الطعام للمسيح وأمه واقعية لا تنكر كخصيصة ضرورية من خصائص الأحياء المخلوقين، تلبية لحاجة جسدية لا مرية فيها، فكيف يكون إلهاً من يحتاج إلى طعام ليعيش، والله حيٌّ بذاته وحيٌّ قبل أن يخلق طعاماً وطاعماً.

وهنا دور ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ دور التصديق لبشرية المسيح ورسالته حيث ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[3].

وهكذا الرائع كما الشمس في رابعة النهار نُبرهن لهم فـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ

---

(١) نور الثقلين ١: ٦٦٠ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه: «وأما هفوات الأنبياء عليهم السلام وما بينه الله في كتابه فإن ذلك من أدل الدلائل على حكمة الله عز وجل الباهرة وقدرته القاهرة وعزته الظاهرة لأنه علم أن براهين الأنبياء عليهم السلام تكبر في صدور أممهم وإن منهم من يتخذ بعضهم إلهاً كالذي كان من النصارى في ابن مريم فذكر دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي انفرد به عز وجل، ألم تسمع إلى قوله في صفة عيسى حيث قال فيه وفي أمه عليهما السلام: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المَائدة: ٧٥] يعني من أكل....

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١٢.

نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ الدالة على كيان الألوهية وكيان المألوهين ككل ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وقد أفكهم الذين كفروا وهم ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١)؟!.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾:

حجة ثانية - بعد برهان الفقر والحاجة للمسيح عليه السلام - تحلق على كلِّ المعبودين من دون الله، أن كيف تعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ولو ملك لنفسه نفعاً أو دفع ضر لم يكن بحاجة إلى من سواه؟.

فمهما كان فيمَن دون الله نفع ودفع ضر، ولكن أحداً منهم لا يملك ضراً ولا نفعاً بصورة مستقلة هي قضية طليق الملك لهما، حيث الملموس ليل نهار فسخ العزائم ونقض الهمم، فلا تجد أحداً بإمكانه تحقيق كلّ ما يريد من نفع لنفسه أو سواه، أم دفع ضرّ عن نفسه أو سواه، وهذا هو المعني من مِلك الضرّ والنفع.

فـ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ لنفسه فضلاً عن سواه ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾ فأي نفع في عبادته وطاعته؟ والطاعة والعبادة المرسومة في الأكثرية الساحقة من العابدين الله وسواه لا تعني إلّا دفع الضر وجلب النفع، فلتختص العبادة لمن يملكهما أن يضر وينفع، فليُعبد دفعاً عن ضرِّه وجلباً لنفعه في أية حلقة من حلقات الحياة.

إذاً فعرض ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾ في معرض الحجاج لا يعني كلّ العابدين حيث المخلَصون يعبدون الله لأنه الله لا خوفاً من عذابه ولا طمعاً في ثوابه، بل المعنيون هنا هم المشركون الذين يعبدون بغية دفع ضرٍّ أو جلب نفع.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

وتقدم ﴿ضَرًّا﴾ هنا على ﴿نَفْعًا﴾ كذلك يعني الأكثرية من هؤلاء حيث يحاولون دفع الضر عن أنفسهم قبل جلب النفع.

وهنا التعبير بـ ﴿مَا﴾ دون ﴿مِن﴾ يعني إضافة إلى عناية التحليق على كلٍّ الكائنات عاقلة وسواها، إن العاقلة منها كغيرها هما على سواء في ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾(١) لأن ملكهما يختص بمن يملك الكائنات كلها.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ. . . وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لكلّ ما يُسمع ويُعلم، سمعاً للأقوال والأدعية وعلماً بالأحوال والأفعال بحيطة علمية على الكائنات، وحيطة القدرة على إجابة السؤولات ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾(٢).

ذلك وأصل الثالوث:

١ - ثلاثة هي واحد وواحد هو ثلاثة، باستحالته.

٢ - وإن المسيح ابن مريم، فقد ولد بعد أن لم يكن فحادث، ومولود غير مخلوق هنا تناقض ثان.

٣ - وإن صديقة حيث صدقت توحيد الألوهية ورسالة المسيح.

٤ - وكانا يأكلان الطعام دلالة على الحاجة إلى الطعام.

٥ - و﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولو كانا إلهين لملكاهما لغيرهما كما لأنفسهما، هذه براهين خمسة لتزييف خرافة الثالوث والبنوة الإلهية فضلاً عن توحيد الألوهية فيه بتجافي الإله عن لاهوته إلى ناسوت جسم المسيح عليه السلام.

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٩.

(٢) سورة فاطر، الآيتان: ١٣، ١٤.

ذلك وحين يصدق النصارى أن المسيح عليه السلام كان أَعْبَد أهل زمانه كما في تصاريح إنجيلية، فهنا التساؤل: من ذا الذي كان يعبده المسيح عليه السلام هل هو نفسه أنه كان يعبد نفسه، أم غيره؟ فذلك الغير هو الله فهو - إذاً - عابد مألوه.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾[1] - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[2].

والغلو أيّاً كان هو تجاوز الحدِّ المعتدل عقلياً أو شرعياً أو عرفياً، تجاوزاً إلى الإفراط كما هو المعني في الأغلب منه، أم إلى حدِّ التفريط، وهو تخلف عن الحدِّ صعوداً عنه أم نزولاً، وقد يُروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٧١، ١٧٢.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٠، ٣١.

قال: «إياكم والغلو في الدين فإنما أَهْلَك - هلك - من كان قبلكم الغلو - بالغلو - في الدين»[١]. و«صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام الغلاة والقدرية»[٢] و«احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم فإن الغلاة شرُّ خلق الله يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباد الله وأن الغلاة لشرٌّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا»[٣] و«إن فيهم من يكذب حتى أن الشيطان ليحتاج إلى كذبه»[٤] و«لعن الله الغلاة والمفوضة فإنهم صغروا عصيان الله وكفروا به وأشركوا وضلّوا وأضلّوا فراراً من إقامة الفرائض وأداءِ الحقوق»[٥].

ولقد كثر الغالون على مدار الزمن الرسالي في أصول الدين والمذهب وفروعه، متنقبين نقاب الإخلاص وهم عنه في إفلاس، وهم أخطر على الحق من الكفار والمنافقين حيث يخوضون مختلف حقول الدين ويشوهونه بنقاب الدين.

فالقائل بالولاية التكوينية أو التشريعية لنبيٍّ أو وصيٍّ نبيٍّ فضلاً عمن سواهما غال فإنهما من ميزات الربوبية، كما القائل بالتفويض فيهما فإنه من نفس النمط، والقائل بشفاعتهم الطليقة عن إذن الله، وإن ولايتهم تُغني عن سائر التكاليف مثل ما يُروى أن «حب عليٍّ حسنة لا يضرُّ معهما سيئة» وما أشبه من الغلو المورط في معاصي الله ومآسي الأمور!.

وأحاديث التفويض مردودة أو مأوّلة، فـ«ما فوض إلى رسول الله ﷺ فقد فوضه إلينا»[٦] يعني تفويض الولاية الشرعية فحسب، فيجب - إذاً - التفويض إليهم بطاعتهم الطليقة كما يجب التفويض إليه ﷺ في طاعته كما

---

(١) ن مناسك ٢١٧ - جد مناسك ٦٣ - حم ٢١٥٢١، ٣٤٧.
(٢ - ٥) على الترتيب في سفينة البحار ٣: ٣٢٤ - ٣٢٥ عن النبي ﷺ والصادق عليه السلام.
(٦) سفينة البحار ٣: ٣٨٦ عن الصادق عليه السلام.

قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[(١)] وكما لا تعني طاعة الرسول فوق ما أرسل به من أحكام الله، كذلك طاعتهم التي هي استمرارية لطاعته.

وأما أن يحلّوا شيئاً أو يُحرّموا ما لم يحكم به الله، أو يطلبوا من الله شيئاً من ذلك فذلك جرأة على الله محادة ومشاقة[(٢)].

ذلك، فكلُّ ما ورد من نسبة علم الغيب ما كان وما يكون وما هو كائن إليهم عليهم السلام، وأنهم هم وسائل الخلق المفوّض إليهم أمره تكويناً أو تشريعاً، أماذا من شؤون الربوبية، كلّ هذه مردودة أو مأوّلة، ومما يُروى عن الصادق عليه السلام: «ما جاءكم منا مما يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردوه إلينا وما جاءكم عنا ممّا لا يجوز أن يكون في المخلوقين فاجحدوه ولا تردوه إلينا»[(٣)].

ف «ما يجوز وما لا يجوز» محوّل إلى نص من الكتاب أو السُّنة القطعية، إضافة إلى ما يراه العقل السليم من مختصات الربوبية غير الجائز تحولها إلى غير الله، بإذن منه أو سواه، كذاته تعالى وصفاته وأفعاله، فإنه «باين عن خلقه وخلقه باين عنه» بينونة في هذه الثلاث كلها.

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) المصدر عن الكافي عن محمد بن سنان قال كنت عند أبي جعفر عليه السلام فأجريت اختلاف الشيعة فقال: يا محمد إن الله تعالى لم يزل متفرداً بوحدانيته ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة صلوات الله عليهم وآلهم فمكثوا ألف - ألف ألف - سنة ثم خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها وفوض أمورها إليهم فهم يحلون ما يشاؤون، بإذن الله تبارك تعالى، ثم قال: يا محمد هذه الديانة التي من تقدمها مرق ومن تخلف عنها محق ومن لزمها لحق خذها إليك يا محمد».
أقول: لم يأذن الله لهم في ربوبيته فإنما يأذن في غيرها من الأمور غير المختصة به تعالى من بلاغ أحكامه ومن شفاعة باذنه أماهيه.

(٣) سفينة البحار ١ : ٣٢ خص عن المفضل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ....

فالأمور ثلاثة، منها المختصة بالله لا تعدوه إلى سواه، ومنها العامة بين الخلق قدر مساعيهم، ومنها ما يمنحه الله خاصة عباده كما يسعون، انتجاباً لهم في رسالة أو عصمة أما دونها، فمثل أنهم يعلمون متى يموتون وأنه لا يقع ذلك إلَّا باختيارهم، قد يجوز في حقهم حيث المنفي ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1] لا «متى تموت» فمن كرامات الله لهم أن يعرفهم متى يموتون، وهكذا يأول إقدامهم على شرب السم وما أشبه من بواعث قتلهم.

ومن الغلو في حقهم أن الإمامة فوق الرسالة والنبوة، فلأن الرسول ﷺ إمام كما هو رسول، لذلك لا يفضلون عليه ﷺ.

ذلك، لأن الإمامة - على أية حال - هي فرع الرسالة واستمرارية لها، فكيف تكون - إذاً - فوق الرسالة، وليس تفوق أئمتنا عليهم السلام على سائر الرسل عليهم السلام إلّا لما يحملون من العصمة القمة المحمدية ﷺ التي هي فوق العصم كلها.

لذلك، لا تجد إماماً بعد نبي مفضلاً عليه، بل هو خليفة له وممثل عنه باستمرار دعوته، فلأن استمرار الدعوة المحمدية المعصومة هو فوق كافة الدعوات الرسالية، لذلك نعتقد فيهم أنهم أفضل من كافة المرسلين إلَّا الرسول الخاتم ﷺ الذي هم أشعة من نوره.

لا فحسب، بل والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها مفضلة على كافة المعصومين سوى المعصومين المحمديّين عليهم السلام أجمعين.

ذلك، فالغلو مرفوض مرضوض في الدين كلّ الدين، أصولاً عقيدية أم فروعاً أحكامية أماهيه من الدين ككلّ، حيث الغلو تخلُّف عن شرعة الحق، فهو في حقل التقصير ضلال عامد، وفي حقل القصور ضلال خامد، يجب

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

على الدعاة إلى الله أن يوضحوا لهم الحق ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١) - ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٢).

ذلك ومن الغلو بحق المسيح عليه السلام تصعيده إلى منزلة الربوبية كما فعله النصارى في شتات عقائدهم الشركية إلَّا القليل ممن وفى لرعاية الحق من موحديهم، أم تنزيله عن ساحة الرسالة كما فعله اليهود حيث قالوا إنه وليد السفاح.

والغلو أياً كان ليس إلّا باطلاً فلا دور لـ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ هنا إلّا التأكيد، إيغالاً للغلو في غير الحق كـ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾(٣) وما أشبه.

وهنا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ تضاحي ما تعنيه هناك ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾(٤) أي من قبل أهل الكتاب وهم مختلَف صنوف المشركين على مدار تاريخ الإشراك.

تاريخ التثليث بقول فصل:

فقد يذكر لنا تاريخ الوثنية على طول خطوطها وبكلٍّ خيوطها خمسة عشر من الثواليث مما يصدق هاتين الآيتين أن ثالوث النصارى إنْ هو إلّا خرافة تقليدية لهم، عن «الذين كفروا من قبل» في ثالوث: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾!.

ذلك، و«إن أقدم ما نعثر عليه في تاريخ الفراعنة الثالوث المكون من الآلهة: (أوزيريس - إيزيس - حورس): الأب والأم والولد، ثم المكون

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢١.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

من «آمون» وزوجه «موت» وابنه «خونس» وهو تثليث بلدة «تب» وهم: الأب والأم والولد، ثم المكوّن من «أنوبيس - معات - توت» ثم المكوّن من «آنوا - بعل - آيا» وهو ثالوث الكلدانيين، ثم المكوّن من «سن - شمش - عشتار»: الأب والابن والأم، ثم المكوّن من «مينوس - رادامانت - إيبال» أولاد «زوس»: الإله الأعظم، ثم المكوّن من «الأب والابن وروح القدس» وهو للمسيحيين[1] والثواليث الخمسة عشر كالتالية:

---

(١) كما في كتاب حياة السيد المسيح لـ: فاروق الدملوجي ص ١٦٢، ويقول «برتشرد في كتابه: خرافات المصريين الوثنيين ص ٢٨٥: لا تخلو كافة الأبحاث المأخوذة عن مصادر شرقية من ذكر أحد أنواع التثليث أو التولد الثلاثي أي: (الأب والابن وروح القدس) ويقول «موريس» في كتابه: الآثار الهندية القديمة ٦: ٣٥: كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي، أي الإله ذو أقانيم ثلاثة. وفي كتاب «سكان أوروبا الأول» ص ١٩٧: كان الوثنيون القدماء يعتقدون بأن الإله واحد ولكنه ذو ثلاثة أقانيم. وإليكم ثواليثهم:

١ - الثالوث البرهمي: يقول دوان في كتابه: خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلهما في الديانات الأخيرة: إذا أرجعنا البصر نحو الهند نرى أن أعظم وأشهر عباداته اللاهوتية هو التثليث ويدعون هذا التعليم بلغتهم «تري مورتي» وهي جملة مركبة من كلمتين، فـ «تري» تعني: ثلاثة، و«مورتي» هيآت، فهي «ثلاث هيآت» هي «برهمة - فشنو - سيفاً» ثلاثة أقانيم غير منفكين عن الوحدة وهي الرب والمخلص والمهلك، ومجموع هذه الثلاثة أقانيم إله واحد ويرمزون عنها بثلاثة أحرف هي: الألف - الواو - الميم، ويلفظونها «أوم» ولا ينطقون بها إلّا في صلواتهم ويحترمون رمزها في معابدهم احتراماً عظيماً.

ولما أراد برهمة: (خالق الوجود الذي لا شكل له ولا تؤثر فيه الصفات) أن يخلق الخلق اتخذ صفة الفعل وصار شخصاً ذكراً وهو «برهمة الخالق» ثم زاد في العمل إلى الصفة الثانية من الوجود فكان «فشنو»: الحافظ، ثم انقلب إلى الصفة الثالثة الظلالية فكان «سيفا»: المهلك، ويدعون هذه الصفات الثلاث أيضاً «تري مورتي» ويشبهونها بالنار ويدعونها أيضاً «الني - سوريا - اندرا» وغير ذلك من الأسماء الثلاثية.

وفي كتب البرهميين المقدسة المعتبرة لديهم: إن هذا الثالوث المقدس غير منقسم في الجوهر والفعل والامتزاج ويوضحونه بقولهم: برهمة الممثل لمبادئ التكوين والخلق ولا يزال خلاقاً إلهياً هو «الأب» و«فشنو» يمثل الحماية والحفظ وهو «الابن» المنفك والمنقلب عن الحال اللاهوتية و«سيفا» المبدئ والمهلك والمبيد والمعيد وهو «روح القدس» ويدعونه: «كرشنا»: =

. . . .

= الرب المخلص والروح العظيم حافظ العالم المنبثق منه» فـ «فشنو» الإله الذي ظهر بالناسوت على الأرض ليخلِّص الناس فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد.
وفي الكيبتا - من كتبهم المقدسة - إن كرشنا قال: أنا رب المخلوقات جميعها، أنا سر الألف والواو والميم «اوم» أنا برهمة وفشنو وسيفا، التي هي ثلاثة آلهة: إله واحد.
فالأقنوم الثالث وهو في صفته المظلمة «المهلك» وفي صفته الحسنة «المعيد» يعبرون عنه بصورة حمامة ويقصدون بهذه الصورة الرمز عن الإعادة والخلق الجديد وهو الروح الذي يرف على وجه الماء - كما في التوراة أن روح الله كان يرف على وجه الماء - ويعبرون عن الأقانيم الثلاثة الأبدية الجوهرية بـ «أوم».
وقال «ألن» في كتابه «الهند» ٣٨٢: يقول البرهميون في كتبهم الدينية: إن أحد الأتقياء واسمه (اتنيس) رأى أنه من الواجب أن تكون العبادة لإله واحد فتوسل ببرهمة وفشنو وسيفا قائلاً: يا أيها الأرباب الثلاثة اعلموا أني اعترف بوجود إله واحد فأخبروني أيكم الإله الحقيقي لأقرب له نذري وصلاتي؟ فظهرت الآلهة الثلاثة وقالوا: اعلم أيها العابد أنه لا يوجد فرق حقيقي بيننا وأما ما تراه من ثلاثة فما هو إلّا بالشبه والشكل والكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات.
وقال موريس في آثار الهند القديمة ٤: ٣٧٢: لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديك دكّته مرور القرون صنماً له ثلاثة رؤوس على جسد واحد والمقصود منه التعبير عن الثالوث.
٢ - الثالوث البوظي: قال المستر فابر في كتابه اصل الوثنية: وكما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفاً من برهمة - فشنو - سيفا، هكذا نجد عند البوظيين فإنهم يقولون: إن بوظا إله واحد ويقولون بأقانيمه الثلاثة، وكذلك بوظي «جينست» يقولون عن: جيفا - إنه مثلث الأقانيم.
ويقول دافس في كتابه الصين ٣: ١٢١ و١٠٣ ودوان في كتابه خرافات التوراة والإنجيل: البوظيون الذين هم أكثر سكان الصين واليابان يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يسمونه «فو» ومتى ودّوا ذكر هذا الثالوث المقدس يقولون: الثالوث النقي «فو» ويصورونه في هياكلهم بشكل الأصنام التي وجدت في الهند... ويوجد في أحد المعابد المختصة ببوتالا في منشوريا تمثال «فو» مثلث الأقانيم، ومثله في اصل الديانة الوثنية لـ «مستر فابر».
٣ - ثالوث تاوو: يقول دوان في ١٧٢ من كتابه: أنصار «لاوكومتذا» وهو الفيلسوف الصيني المشهور - وكان قبل المسيح عليه السلام بأربع سنين وستمائة - يدعون شيعة «تاوو» وهؤلاء يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم وأساس فلسفته اللاهوتية أن تاوو وهو العقل الأبدي انبثق منه واحد ومن هذا الواحد انبثق ثان ومن الثاني انبثق ثالث ومن هذه الثلاثة صدر كلّ شيء وهذا القول بالتوليد والانبثاق ادهش العلامة موريس لأن قائله وثني.
٤ - ثالوث الصينيين: وقد جاء في الكتب الدينية الصينية أن أصل كلّ شيء واحد وهذا =

. . . .

= الواحد الذي هو أصل الوجود اضطر إلى إيجاد ثان والأول والثاني انبثق منهما ثالث ومن هذه الثلاثة صدر كلّ شيء.
٥ - ثالوث الهنود: قال المستر هلسلي ستونس في كتابه الإيمان والعقل (٧٨) يعتقد الهنود بإله مثلث الأقانيم ومتى ودوا التكلم عنه بصفة الخلاق يقولون: الإله برهمة، ومتى راموا التكلم عنه بصفة الملك يقولون سيفا أو مهديفا، ومتى أرادوا وصفه بصفة الحافظ يقولون: الإله فشنو، ويقولون: إن هذا الثالوث المقدس حاضر في كلّ مكان بالروح والقوة.
٦ - ثالوث المصريين: المصريون القدماء كانوا يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم مصوراً في أقدم هياكلهم ويظن أهل العلم أن الرمز الذي يصورونه وهو جناح طير ووكر وأفعى، أنه إشارة إلى ذاك الثالوث واختلاف صفاته، وقال دوان في (٤٧٣) وكان قسيسو هيكل ممفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم: إن الأول خلق الثاني والثاني مع الأول خلقاً الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس، وسأل «توليو» ملك مصر الكاهن تينشوكي، سأله أن يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه؟ أو هل يكون بعده من هو أعظم منه؟ فقال له الكاهن: نعم يوجد من هو أعظم وهو أولاً: الله، ثم الكلمة ومعهما روح القدس ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية فأذهب يا فاني يا صاحب الحياة القصيرة، وقال بونويك في اعتقاد المصريين ٤٠٢ و٤٠٤ وأغرب عقيدة عمّ انتشارها في ديانة المصريين الوثنيين القدماء هي قولهم بلاهوت الكلمة وإن كلّ شيء صار بواسطتها وإنها منبثقة من الله وإنها الله، وكان «بلاتو» عارفاً بهذه العقيدة الوثنية وكذلك أرسطو وغيرهما، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بسنين ولم نكن نعلم أن الكلدانيين والمصريين يقولون هذا القول ويعتقدون هذا الاعتقاد إلّا في هذه الأيام، وقال أيضاً: كما أن للكلمة مقاماً سامياً عند المصريين، كذلك يوجد في كتبهم الدينية المقدسة هذه الجملة: إني أعلم بسرّ لاهوت الكلمة وهي كلمة رب كلّ شيء وهو الصانع لها فالكلمة هي الأقنوم الأول بعد الإله وهي غير مخلوقة وهي الحاكم المطلق على كافة المخلوقات.
٧ - ثالوث اليونان: في كتاب ترقي التصورات الدينية ١: ٣٠٧ «كان اليونانيون القدماء الوثنيون يقولون إن الإله مثلث الأقانيم، وإذا شرع قسيسوهم بتقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات إشارة إلى الثالوث ويرشون المجتمعين حول المذبح بالماء ثلاث مرات ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ويعتقدون بأن الحكماء صرحوا: إن كلّ الأشياء المقدسة يجب أن تكون مثلثة ولهم اعتناء تام بها العدد في كافة أحوالهم الدينية.
وقال دوان نقلاً عن اورفيوس - وهو أحد كتاب وشعراء اليونان قبل المسيح بقرون - «كل الأشياء علمها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم» وهذا التعليم الثالوثي أصله من مصر وكثيرون من الآباء في الجيل الثالث والرابع قالوا: إن فيثاغورس وهيركليتوس وبلاتو علموا=

. . . .

= التثليث وقد أخذوا فلسفتهم في التثليث عن أورفيوس (انظر دائرة المعارف تأليف تشمبرس عند كلمة أورفيوس).

٨ - ثالوث الرومان: قال فيسك - في كتابه الخرافات ومخترعوها (٣٠٥) - وكان الرومانيون يعتقدون بالتثليث وهو أولاً الله ثم الكلمة ثم الروح.

٩ - ثالوث الفرس: قال دوان (٢: ٨١٩): وكان الفرس يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم مثل الهنود تماماً وهم:

أورمزد ومترات واهرمان، فأورمزد: الخلاق ومترات: ابن الله المخلص والوسيط، واهرمان: المهلك، ويوجد في كتابات زورسترسانن - الشرائع الفارسية - هذه الجملة: الثالوث اللاهوتي مضيّ في العالم ورأس هذا الثالوث «موناد»، وقال هيجن (في الانكلوسكستين) ٢: ١٦٢ والمسيود دونلاب في (ابن الإنسان ٢٠) وينصون في (المسيح الملاك): كان الفرس يدعون متروس: الكلمة والوسيط ومخلص الفرس.

١٠ - ثالوث الفنلنديين: قال بارخوست في القاموس العبراني كان للفنلنديين - وهم برابرة كانوا يسكنون شمالي بروسيا في القرون الخالية -: إله اسمه تريكلاف وقد وجد تمثال له في «هرتوبخربرج» له ثلاثة رؤوس على جسد واحد.

١١ - ثالوث الاسكندنافيين: قال دوان (٣٧٧) وكان الاسكندنافيون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يدعونها: أودين - تورا - فرى - ويقولون عن هذه الثلاثة أقانيم أنها إله واحد، وقد وجد صنم يمثل هذا الثالوث المقدس بمدينة «أوبسال» من «اسوج» وكان أهالي «أسوج ونروج والدنمرك» يفاخرون بعضهم في بناء الهياكل لهذا الثالوث وكانت جدران هذه الهياكل مصفحة بالذهب ومزينة بتماثيل هذا الثالوث ويصورون «اودين» وبيده حسام و«تورا» واقفاً عن شماله وعلى رأسه تاج وبيده صولجان و«فري» واقفاً عن شمال «تورا» وتمثاله فيه علامتا الذكر والأنثى ويدعون «اودين» الآب و«تورا» الابن البكر للأب اودين و«فري» مانح البركة والنسل والسلام والغنى.

١٢ - ثالوث الدرديين والتتر والسيبريين: كان الدرديون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم وهم «تولاك - فإن - مولا» وسكان سيبريا القدماء كانوا يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ويدعون الأقنوم الأول منه: خالق كلّ شيء والأقنوم الثاني: إله الجنود، والأقنوم الثالث: روح المحبة السماوية - ثم يقولون: أقانيم ثلاثة إله واحد، والتتر الوثنيون عبدوا إلهاً مثلث الأقانيم وعلى أحد نقودهم الموجودة في متحف «بطرسبرج» صورة هذا الإله المثلث الأقانيم جالساً على حندوقة. =

١ - الثالوث البرهمي. ٢ - والبوظي. ٣ - وتاوو. ٤ - والصينيين. ٥ - والهنود. ٦ - والمصريين. ٧ - واليونان. ٨ - والرومان. ٩ - والفرس. ١٠ - والفنلنديين. ١١ - والإسكندنافيين. ١٢ - والدرديين والتتر والسيبريين. ١٣ - والجزائر الأوقيانوسية. ١٤ - والمكسيكيين. ١٥ - والهندوس الكنديين.

فقد يبدو أن من هامة التأثير للدعايات المسيحية في هؤلاء الأقوام الثالوثية هي تشابه ثالوثهم مع ثواليثهم، إضافة إلى الإباحية المركَّزة على الفداء الصليبي الذي هو أيضاً من العقائد الوثنية.

ذلك، ومن عجاب الأمر في مضاهاة المسيحية المختلقة والوثنيات أنها حسب سرد التاريخ الوثني والمسيحي، كأنها نسخة طبق الأصل من هذه الوثنيات، ومثالاً على تلك المضاهاة المقارنة التالية بين بوظا والمسيح منذ

= ١٣ - ثالوث الجزائر الأوقيانوسية: قال نيت - في كتابه الصنايع القديمة والخرافات الوثنية ١٦٩ -: سكان الجزائر في الأقيانوس عبدوا إلهاً مثلث الأقانيم فيقولون: الإله الآب - الإله الابن - الإله روح القدس ويصورون روح القدس بهيئة طير.

١٤ - ثالوث المكسيكيين: قال اللورد كينكسبرو - في كتابه آثار المكسيك القديمة ٥ : ١٦٤ -: المكسيكيون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يدعونه «تزكتيلبوكا» ومعه إلهان آخران أحدهما واقف عن يمين الإله المذكور والآخر واقف عن يساره واسم الإله الأول الواقف عن اليمين «اهوتزليبوشتكي» والآخر اسمه: «تلالوكا» ولما عين «برتولوميو» مطرانا سنة ١٤٤٠ - أرسل القس «فرنسيس هرمنديز» إلى المكسيك ليبشر بين الهندوسيين بالديانة المسيحية وكان هذا القس عارفاً بلغة الهندوس ومن بعد مضي عام على ذهابه أرسل مكتوباً إلى المطران المذكور يقول فيه: إن الهندوسيين يؤمنون بإله كائن في السماء وإن هذا مثلث الأقانيم وهو الإله الأب والإله الابن والإله روح القدس وهؤلاء الثلاثة إله واحد، واسم الأب «بزونا» واسم الابن «باكاب» مولود من عذراء واسم الروح القدس «ايكيميا» ويعتقدون صنماً اسمه «تنكاتنكا» يقولون عنه إنه واحد ذو ثلاثة أقانيم، وإنه ثلاثة أقانيم إله واحد.

١٥ - ثالوث الهندوس: قال سكوير - في كتابه رمز الحية ١٨١ -: والهندوس الكنديون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ويصورونه بشكل صنم له ثلاثة رؤوس على جسد واحد ويقولون: إنه ذو ثلاثة اشخاص بقلب واحد وإرادة واحدة. . .

الولادة حتى الصلب والصعود في حلقاتها الأربع عشرة حسب الأسناد التالية(*):

بوظا = المسيح!:

بوظا	المسيح
١ - لما تنزل بوظا من محل عال إلى رحم العذراء مايا شعَّ الرحم بنوره وكان يُرى فيه قبل مولده[1].	١ - لما تنزّل المسيح في محلٍّ عالٍ سماوي ودخل رحم مريم العذراء صار الرحم كمثل البلور وكان يرى فيه قبل مولده[1].
٢ - علامة ولادته نجم طلع من الأُفق وتسمى نجم بوظا[2].	٢ - علامة ولادته نجم طلع من المشرق اسمه نجم المسيح[2].
٣ - ولد بوظا ابن العذراء «مايا» التي حل روح القدس في رحمها يوم عيد الميلاد (٢٥) كانون الأوَّل[3].	٣ - ولد المسيح ابن العذراء مريم التي حلَّ روح القدس في رحمها يوم عيد الميلاد (٢٥) كانون الأول[3].

(*) هذه الأسناد وما قبلها من أسناد تاريخية ننقلها عن كتاب «العقائد الوثنية للأستاذ محمد طاهر التنير البيروتي رحمه الله».

(١) بنسون (٢٠) ودوان (٢٩٠).
(٢) دوان (٢٩٠).
(٣) بنسون في مسيح الملاك (١٠).

(١) إنجيل متى ب ١.
(٢) إنجيل متى ٣: ١.
(٣) دوان (٢٩٠).

٤ - بعد ولادته سُرَّ به جنود السماء وبيمنه خطبوا خطابات وقالوا: اسم نجمه الصباح[١].	٤ - سُرّ ملائكة السماء بولادته وخطبوا بيمنه وقالوا: العظمة لله في السماء والأرض وللناس المسرة حيث أوصل النور إلى محل الظلام[١].
٥ - إن الحكماء عرفوا بوظا وأسراره اللّاهوتية وبعد يوم من ولادته رحب الناس بولادته[٢].	٥ - زار الحكماء المسيح وعرفوا أسراره اللّاهوتية وليوم بعد ولادته سموه إله الآلهة[٢].
٦ - قال بوظا في طفولته لأمه أنا أعظم الناس[٣].	٦ - قال المسيح في طفولته لأمه أنا ابن الله[٣].
٧ - ولد بوظا خفية وملك بمبارا أصرَّ في قتله حيث أخبر أنه يسلبه ملكه[٤].	٧ - ولد المسيح خفية وملك هيردوس اهتم في قتله حيث سمع أنه يسلبه ملكه[٤].
٨ - لما بلغ بوظا الثاني عشر من عمره دخل بعض بيوت الأصنام وسأله أهل العلم عن مسائل فأجابهم عما سألوه من المشاكل[٥].	٨ - لما بلغ المسيح الثاني عشر من عمره ذهبوا به إلى بيت الأصنام في أورشليم وسأله الأحبار عن مشاكل المسائل فأجابهم بما حاروا فيه[٥].

(١) دوان (٢٩٠).
(٢) دوان (٢٩٠).
(٣) كتاب الهردي العقائد البوظية ١٤٥ - ١٤٦.
(٤) كتاب البيل - تاريخ بوظا ١٠٣ - ١٠٤.
(٥) بنسون في مسيح الملاك (٣٧) وبيال في تاريخ بوظا ١٦٧ - ١٦٩.

(١) لوقا ٣: ١٣ - ١٤.
(٢) متى ٣: ١ - ١١.
(٣) إنجيل الطفولة ١ : ٣.
(٤) إنجيل متى ٣: ١.
(٥) إنجيل الطفولة ٣١: ١ - ٢.

٩ - بوظى المنجي اغتسل غسل التعميد وحينذاك كان روح الله حاضراً لم يكن بوظا الإله العظيم فحسب بل كان مع روح القدس أيضاً حيث حلَّ في العذراء مايا فتجسم كوتاما بوظا[١].

١٠ - مات بوظا ودفنوه ثم انفتح كفنه وستر تابوته[٢].

١١ - بوظا هو الألف والياء أزلي أبدي قيوم واحد[٣].

١٢ - قال بوظا إن ذنوب العالمين عليَّ وأنا خلاصهم عنها[٤].

١٣ - قال بوظا لتلاميذه اتركوا الدنيا وحاولوا الفقر والضيق فيها[٥].

(١) مسيح الملاك (٤٥).
(٢) مسيح الملاك (٤٩).
(٣) دوان ٢٩٣.
(٤) تاريخ آداب السنسكريتي (٨٠).
(٥) هاردي في كتاب رهبانية الشرق ٦، ٦٢.

٩ - يحيى عمد المسيح في نهر الأردن ونزل عليه روح الله كحمامة فكان المسيح ابن الله مع كونه روح الله[١].

١٠ - مات المسيح ودفن ثم انفتح كفنه وبعثر عن قبره[٢].

١١ - المسيح هو الألف والياء أزلي أبدي قيوم واحد[٣].

١٢ - المسيح منجي العالم وقد أخذ وتحمل ذنوب العالمين على عاتقه[٤].

١٣ - قال المسيح لتلاميذه اتركوا ثروة الدنيا وعيشوا فقراء[٥].

(١) متى ٣: ١٣ - ١٧.
(٢) متى ب ٣٨ ويوحنا ب ٢٠.
(٣) يوحنا ١: ١ ورؤيا يوحنا.
(٤) دوان ٢٩٣ والتعاليم المسيحية كما مضت.
(٥) متى ١٦: ٢٥ - ٢٨.

بوظا	المسيح
١٤ - قال بوظا: الرجل العاقل يرى حياة الزوجية نارية ولن يقرب هذه الحياة إلَّا لضرورة الاجتناب عن الزنا[1].	١٤ - قال المسيح يحسن للرجل ألا يمس النساء إلَّا في ضرورة حيث الزواج أحسن من أن يحترق بالنار نار الزنا[1].

ذلك بوظا = المسيح في هذه الشطرات وإليكم: بوظا × برهما = المسيح!: مقارنة النصوص بين برهما والمسيح في (٢١) شطرة:

برهما	المسيح
١ - عرفت ولادة كرشنا من النجم الذي ظهر في المشرق[2].	١ - لما ولد المسيح طلع نجم في المشرق ودل الناس على محل ولادته[2].
٢ - كان كرشنا من السلالة الملكية ولكنه تولد على ذل وفقر في مغارة[3].	٢ - كان المسيح من السلالة المكية وخاطبه اليهود سلطاناً ولكنه تولد في مغارة على ذل ومسكنة[3].
٣ - لقد شع نور كرشنا المغارة عند ولادته تلعلع وجه أمه ديفاكي من نوره[4].	٣ - شع من نور المسيح المغارة عند ولادته وحارت عيون القابلة وخطيب مريم - يوسف - من نوره[4].

(١) ريس داويس في كتاب بوظا (١٠٣).
(٢) كتاب التاريخ الهند ٣: ٣١٧ و٣٣٦.
(٣) دوان (٢٨٩).
(٤) دوان (٢٨٩).

(١) كورنتوس ٧: ١ - ٩.
(٢) إنجيل متى ٢: ٣.
(٣) دوان (٢٧٩).
(٤) إنجيل الولادة ٢: ١٣.

٤ - لما ولدت ديفاكي كرشنا خافت عاقبة أمره وأخذت تبكي عليه فتكلم كرشنا وسلى خاطرها[١].

٥ - عرف البقر الذكر أن كرشنا إله فسجد له[٢].

٦ - لما ولد كرشنا كانت أمه وخطيبهاناندا، كانا غائبين حيث ذهبا إلى البلد لتسليم الماليات إلى السلطان[٣].

٧ - سمع نانذا خطيب ديافكي أم كرشنا نداء من السماء: خذ الطفل وأمه وفرّ إلى كوكول واعبر نهر جهنة لأن الملك يريد قتله[٤].

٨ - أخبر الحاكم عن ولادة الطفل الإلهي وأراد قتله فقتل كلّ ذكر ولد في تلك الليلة لكي ينال بغيته[٥].

(١) تاريخ الهند ٣: ٣١١.
(٢) دوان (٢٧٩).
(٣) كتاب ويشنو بورانا ٢: ٥.
(٤) كتاب ويشنو بورنا الفصل ٣.
(٥) دوان (٢٨٠).

٤ - تكلم عيسى عند ولادته مخاطباً أمه أنا ابن الله وكما أخبرك جبرائيل جئت لأخلص العالم[١].

٥ - عرف الرعاة المسيح فسجدوا له[٢].

٦ - لما ولد المسيح كانت أمه وخطيبها غائبين حيث ذهبا ليسجلا اسمهما في الكراس المكي[٣].

٧ - يوسف النجار خطيب مريم نودي في المنام أن: خذ الطفل وأمه وفرّ إلى مصر حيث الملك يريد قتله[٤].

٨ - أخبر حاكم البلاد عن ولادة الطفل الإلهي المسيح وأراد قتله فامر بقتل من ولد في تلك الليلة لكي ينال بغيته[٥].

(١) إنجيل الولادة ١: ٢ - ٣.
(٢) لوقا ٢: ٨ - ١٢.
(٣) لوقا ٢: ١ - ٩.
(٤) متى ٢: ١٣.
(٥) متى ٢: ١٥ - ١٧.

٩ - لدغت حية زميلاً لكرشنا فنظر إليه بالنظرة الإلهية فحيي من فوره[١].

١٠ - يوماً من الأيام سار كرشنا مع بقرات فانتخبته ملكاً لها وذهبت كلٌّ واحدة منها إلى المحل الذي عينه الملك[٢].

١١ - كان أوَّل معجزات كرشنا أن شفى أبرص[٣].

١٢ - صُلب كرشنا ومات على الصليب.

١٣ - لما مات كرشنا حدثت حوادث عظيمة واحتف خطٌّ أسود حول القمر وأظلمت الشمس عند الزوال وأمطرت السماء النار والرماد واشتعلت زبانية النيران وأفسدت الشياطين في الأرض ورأى الناس أن الآلاف من الأرواح يتقاتلون ليل نهار»[٤].

(١) تاريخ الهند ٣: ٣٤٣.
(٢) تاريخ الهند ٢: ٣٢١.
(٣) تاريخ الهند ٢: ٢١٩.
(٤) كتاب التصورات الدينية.

٩ - لدغت حية زميلاً للمسيح فمسحه المسيح بيده فبرىء من فوره[١].

١٠ - في شهر آذار جمع المسيح الأطفال وأخذ يتأمر فيهم كأنه ملكهم وكان لا يعبر أحد هناك إلَّا أمره أن يسجد لهذا الملك[٢].

١١ - كان أول معجزات المسيح أن شفى أبرص[٣].

١٢ - صُلب المسيح ومات على الصليب.

١٣ - حدثت بموت المسيح حوادث عظيمة فخرقت ستار بيت الأصنام وانكسفت الشمس من الساعة ٦ - ٩ وبُعثرت القبور وخرج عنها الكثير من الشياطين في الأرض ورأى الناس أن الآلاف من الأرواح يتقاتلون ليل نهار[٤].

(١) إنجيل الطفولة ب ١٨.
(٢) إنجيل الطفولة ١٨: ١ - ٣.
(٣) متى ٣٦: ٦ - ٧ وهذا أيضاً تصريحة أخرى أن أولها تبديل الماء خمراً في عرس (يوحنا ٣:١-١١).
(٤) متى ب ٢٧.

١٤ - حدثت ثقبة في جنب كرشنا حيث أصابته الحربة القاتلة(١).	١٤ - حدثت ثقبة في جنب المسيح حيث أصابته الحربة القاتلة(١).
١٥ - قال كرشنا للصياد الذي قتله: اذهب برحمتي إلى السماء مكان الآلهة(٢).	١٥ - قال المسيح لأحد اللصوص الذين صُلبوا معه أنت اليوم معي في الجنة(٢).
١٦ - قام كرشنا بعد موته من بين الأموات(٣).	١٦ - قام المسيح بعد موته من بين الأموات(٣).
١٧ - دخل كرشنا الجحيم(٤).	١٧ - دخل المسيح الجحيم(٤).
١٨ - كرشنا خالق كلّ شيء ولولاه لم يكن شيء(٥).	١٨ - المسيح خالق كلّ شيء ولولاه لم يكن شيء فهو الخالق الأزلي(٥).
١٩ - كرشنا هو الألف والياء وهو الأوّل والآخر والوسط لكلِّ شيء(٦).	١٩ - المسيح هو الأول والوسط والآخر لكلِّ شيء(٦).

(١) دوان (٢٨٢).
(٢) ويشنو بورانا (٦١٢).
(٣) دوان (٢٨٢).
(٤) دوان (٢٨٢).
(٥) دوان (٢٨٢).
(٦) وان (٢٨٢).

(١) دوان (٢٨٢).
(٢) لوقا ٢٣: ٤٣.
(٣) متى ٢٨: ٢٠.
(٤) دوان (٢٨٢) مع كثيرة أخرى من المدارك المسيحية ذكرناها في «عقائدنا».
(٥) يوحنا ١: ٣ و١ - كورنتس ٧: ٦ وافسس ٣: ٩.
(٦) رؤيا يوحنا ١: ٨ و٢٢: ٦.

٢٠ - كرشنا برهما العظيم والقدوس وانما ظهوره في الناسوت لسرٍّ من الأسرار العجيبة الإلهية[1].	٢٠ - المسيح هو الله يهوه العظيم القدوس وإنما ظهر في الناسوت لسرٍّ من أسرار ألوهيته[1].
٢١ - كرشنا هو الأقنوم الثاني من الثلاثة[2].	٢١ - المسيح هو الأقنوم الثاني من الثلاثة[2].

وهكذا نرى بعجاب كيف ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾[3] فيخاطَبون بتنديد شديد: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

فرؤساء الضلالة الثالوثية الوثنية ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ ثم ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ ومن ثم على طول الخط ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بحق الله، سبحانه وتعالى عما يشركون.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

هنا تبرز بين لعنات المرسلين الإسرائيليين على هؤلاء الذين كفروا بالله ورسالاته، لعنة داوُد وعيسى ابن مريم عليهما السلام وكما نجدها في زبور داود والإنجيل، وذلك اللعن المعلَن ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ الله ورسله ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ على رسالات الله وأنبيائه وعباد الله.

---

(١) وويشنو بورانا (٤٩٢).
(٢) موريس ليمس في كتاب عقائد الوثنيين الهنود (١٠٠).

(١) تيموثاوس ٣: ١٦.
(٢) الأناجيل السالف ذكرها.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

التناهي عن المنكر فرض وهو التفاعل في حقل المنكر نهياً وانتهاءً من الجانبين، وتخصيص التناهي بالذكر لتقدم السلب على الإيجاب، إضافة إلى أن ترك الواجب أيضاً منكر كفعل الحرام.

فواجب المؤمنين خلق جوٍّ التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر بصورة جماعية حاسمة، فالتفاعل الإيجابي في المعروف والتفاعل السلبي في المنكر، هما فرضان جماعيان على الجموع المؤمنة على أية حال ما فُسِح المجال.

إذاً فتركهما ولا سيّما التناهي يستجر لعنة الله ورسله، حيث يُترك بتركهما القرآن.

ذلك «وإن رحى الإسلام ستدور فحيث ما دار القرآن فدوروا به، يوشك السلطان والقرآن يقتتلان ويتفرقا»[1] وذلك في سلطان العصيان لشرعة الله في سلطات زمنية أو روحية لا تدور حيث ما دار القرآن.

(١) الدر المنثور ٣: ٣٩٩ - أخرج عبد بن حميد عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: خذوا العطاء ما كان عطاءً فإذا كان رشوة عن دينكم فلا تأخذوا ولن تتركوه يمنعكم من ذلك الفقر والمخافة، إن بني يأجوج قد جاؤوا وإن رحى الإسلام... فإنه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره فإن أطعتموهم أضلوكم وإن عصيتموهم قتلوكم، قالوا: يا رسول الله ﷺ فكيف بنا إن أدركنا ذلك؟

قال: تكونوا كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير ورفعوا على الخشب، موت في طاعة خير من حياة في معصية، إن أوّل ما كان نقص في بني إسرائيل أنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر شبه التعزير فكان أحدهم إذا لقي صاحبه الذي كان يعيب عليه آكله وشاربه كأنه لم يعب عليه شيئاً فلعنهم الله على لسان داود وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لكم، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم فلتأطرنّه عليه أطراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض».

والأمر والنهي هما على كاهل الربانيين الصالحين العارفين، فمن حديث الرسول ﷺ: «ما بال أقوام لا يعلِّمون جيرانهم ولا يفقهونهم ولا يفطِّنونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتفطنون..»(١). و«إذا عظمت أمتي الدنيا نزعت منها هيبة الإسلام وإذا تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حُرِمت بركة الوحي وإذا تسابّت أمتي سقطت من عين الله(٢).

---

(١) المصدر (٣٠١) أخرج ابن راهويه والبخاري في الوحدانيات وابن السكن وابن منده والبارودي في معرفة الصحابة والطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن أبزى عن أبيه قال: خطب رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيراً ثم قال: ما بال أقوام... والذي نفسي بيده ليعلمن جيرانه أو ليتفقهن أو ليفطنن أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا ثم نزل فدخل بيته فقال أصحاب رسول الله ﷺ من يعني بهذا الكلام إلّا الأشعريين فقهاء علماء ولهم جيران من أهل المياه جفاة جهلة، فاجتمع جماعة من الأشعريين فدخلوا على النبي ﷺ فقال: ذكرت طوائف من المسلمين بخير وذكرتنا بشر فما بالنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لتعلمن جيرانكم ولتفقهنهم ولتأمرنهم ولتنهونهم أو لأعاجلنكم بالعقوبة في دار الدنيا، فقالوا: يا رسول الله ﷺ فأما إذن فأمهلنا سنة ففي سنة ما تعلمه ويتعلمون فأمهلهم سنة ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩] وفيه عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن ان يبعث الله عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنّه فلا يستجيب لكم، وفيه أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان، وفيه أخرج أحمد عن عدي بن عميرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروا فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة، وفيه أخرج الخطيب في رواية مالك من طريق أبي سلمة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: والذي نفس محمد بيده ليخرجن من أمتي أناس من قبورهم في صورة القردة والخنازير داهنوا أهل المعاصي سكتوا عن نهيهم وهم يستطيعون.

(٢) المصدر ٢: ٣٠٢ - أخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: وفيه =

ذلك، فكما النهي عن المنكر فرض كذلك الانتهاء عنه وهما التناهي، وترى الناهي عن المنكر يُنهى عن نفس المنكر أو منكر آخر حين ينهاه الآتي بمنكر؟.

الناهي عن المنكر عليه ألا يكون فاعلاً لنفس المنكر ولا سيّما جهاراً، وكذلك الآمر بالمعروف، فأقل الواجب من شرط واجب الأمر والنهي أو السماح فيهما ألَّا يكون الآمر والناهي متجاهرين في ترك المعروف أو فعل المنكر: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[2].

فليس على تارك معروف أن يأمر به ولا له ذلك، كما ليس على فاعل منكر أن ينهى عنه ولا له ذلك مهما كانا مسؤولين عن واجب الأمر والنهي تقصيراً عن تحقيق شرطهما، فهما بالفعل مأموران بالأمر والنهي تحقيقاً حقيقاً لشرط الوجوب، ومنهيان عنهما دون شرطه، فقد اجتمع عليهما الوجوب والحرمة بسوء الاختيار.

فالتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر هما مفروضان شرطَ شروطهما، ولكن الائتمار والانتهاء لا يقيّدان بتحقيق شروط الآمر والناهي، وكذلك الأمر والنهي لا يقيَّدان بفعل الآمر غير ما يأمر به من معروف أو تركه غير ما ينهى عنه من منكر، فإنما الشرط أن يأمر بما هو مؤتمر به أو ينهى عما هو منته عنه.

فحين يأمر بمعروف هو فاعله عليه أن يأتمر بما هو تاركه، وكذلك في

= أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله ﷺ أتهلك القرية فيهم الصالحون؟ قال: نعم، فقيل يا رسول الله وبمَ؟ قال: بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله عز وجل.

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

حقل النهي والانتهاء، بل والائتمار والانتهاء هما أوسع نطاقاً من الأمر والنهي حيث لا يشترط في واجب الائتمار والانتهاء ما يشترط في نفس الأمر والنهي.

فالتناهي كما التآمر هما فرضان جماعيان يفرضان الرقابة التامة بين المؤمنين، أن يراقبوا إخوانهم كما يُراقبون أنفسهم ويقونها: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1] ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[2].

ولأن التآمر والتناهي هما بعد معرفة المعروف والمنكر، فالمفروض قبلهما التعريف بهما للعارف والتعرف إليهما لغير العارف، حتى تعمّ المعرفة.

فقد لا يكفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشرط العدالة المطلقة في الآمرين والناهين، إذ لا كفاية فيهما لتحقيق المعروف وإزالة المنكر عن المجتمع الإسلامي.

إذاً فالمفروض - إضافة إلى ذلك - التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، أن يأمر بما هو فاعله ويأتمر فيما هو تاركه، وينهى عما هو تاركه وينتهي عما هو مقترفه وذلك هو التآمر والتناهي.

فواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وواجب الائتمار والانتهاء، يعبر عنهما بالتآمر والتناهي، حيث فيهما الكفاية لخلق جوٍّ الخير في الكتلة المؤمنة.

ذلك، والمنكرات دركات يجب التناهي عن من أنكرها التي هي رأس الزاوية فيها، سواء أكانت بين المؤمنين أو الكفار، فالمجتمعات التي لا

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٢) سورة العصر، الآية: ٣.

تتحاكم إلى شرعة الله، فالمنكر الأكبر فيها هو الذي منه تنبع سائر المنكرات، وهو رفض الألوهية بتوحيدها، فلا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة سائر المنكرات ما لم يقاوَم رؤوس الزوايا فيها.

ثم يتقدم في ذلك الدور المنكر الذي ينكره الكلّ دونما اختلاف حيث لا يعذر مقترفه حتى بين سائر المقترفين، فليراعَ في حقل الأمر والنهي الأقدم الأساس فيهما، ولكي تتفرع عليه فروعه فعلاً للمعروف وتركاً للمنكر، توفيراً للجهود المبعثرة هنا وهناك، وحشداً لها في جبهات موحَّدة قوية صارمة، في الأوّل فالأوّل من المنكرات الأساسية لإقامة الأسس التي عليها وحدة البنيان لصرح الإيمان.

ذلك، وأضعف الإيمان إنكار المنكر بالقلب وكما في حديث الرسول ﷺ «من رأى منكراً فليغيِّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه» وليس هذا موقفاً سلبياً تجاه المنكر، فإنكار المنكر بالقلب - حين لا يستطيع الناهي إنكاره بيده أو لسانه - يعني احتفاظ القلب بإيجابيته تجاه المنكر، كالماء المختزن في خزانته ليروي العطاش عند الإمكانية والاستطاعة، فلا بدّ للمؤمن أن يملأ خزانة قلبه من إنكار المنكر حتى إذا وجد سبيلاً لإنكاره بيد أو لسان أنكره بهما من فوره، أم ولأقل تقدير لا يتأثر بالمنكرات المفعولة.

فقد تقيد آية التناهي - هذه - الآيات المشترطة بصورة طليقة واجب الأمر والنهي بتحقيق المعروف وترك المنكر ككلّ في الآمر والناهي، تقيِّدها بالمعروف المتروك للآمر والمنكر المفعول للناهي، فليس الشرط العدالة الطليقة للآمر والناهي وإلّا فلا يكفي العدول لتحقيق هذين الواجبين، ثم فأين التناهي - إذاً - فيما إذا ينهى عما لا يقترفه من منكر، ثم يُنهى عما يقترفه من منكر آخر، فجو التآمر والتناهي هو الجوُّ الصالح الإيماني برقابة

صالحة بين المؤمنين حيث المؤمن مرآة المؤمن و﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1].

وكما التارك للمعروف والفاعل للمنكر ملعون على ألْسِنَة رسل الله، كذلك - وبأحرى - التاركون للتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، كما لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم بثالوث[2]:

«١ - بما عصوا. ٢ - وكانوا يعتدون. و ٣ - ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ وأقل التناهي متاركة فاعلي المنكر حتى يتركوه[3] محاولة لترك المنكر حسب المستطاع.

فهم في ذلك الثالوث المنحوس ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فعلاً للمنكر أم تركاً للنهي عن المنكر وتركاً للتناهي.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٢) نور الثقلين ١: ٦٦٠ عن تفسير القمي بسند متصل عن مسعدة بن صدقة قال سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام من قوم من الشيعة يدخلون في أعمال السلطان ويعملون لهم ويحبّون لهم ويوالونهم؟ قال: ليس هم من الشيعة ولكنهم من أولئك ثم قرأ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ - إلى قوله - وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١] قال: الخنازير على لسان داود والقردة على لسان عيسى عليه السلام.

وفيه عنه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام أمر معاوية وأنه في مائة الف قال: من أي القوم؟ قالوا: من أهل الشام، قال عليه السلام: لا تقولوا من أهل الشام ولكن قولوا من أهل الشؤم، هم من أبناء مصر لعنوا على لسان داوود فجعل الله منهم القردة والخنازير...

(٣) المصدر عن ثواب الأعمال بإسناده قال: قال علي عليه السلام: لما وقع التقصير في بني إسرائيل جعل الرجل منهم يرى أخاه على الذنب فينهاه فلا ينتهي فلا يمنعه من ذلك أن يكون أكيله وجليسه وشريبه حتى ضرب الله عزّ وجلّ قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ [المائدة: ٧٨] وفيه عن تفسير العياشي عن محمد ابن الهيثم التميمي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ...﴾ [المائدة: ٧٩] قال: أما إنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون مجالسهم ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾: أهل الكتاب ولا سيّما اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ نصرة ومحبة أماهيه من شؤون الولاية ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ وهم هنا المشركون، ومن ذلك أنهم يفضّلونهم على المسلمين حيث ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[1] فـ ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ من شتات كفرهم وبالنتيجة ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ عذاب في الأولى في ضنك المعيشة وآخر في الأخرى في ضنك العذاب: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

ولقد نرى أهل الكتاب ولا سيما اليهود يتولون المشركين والملحدين نقمة على المسلمين منذ عهد الرسول ﷺ وحتى الآن حيث يؤلبونهم على المسلمين بكافة المحاولات، ولم تقم دويلة العصابات الاسرائيلية منذ زمن قريب إلّا بالولاء الجماهيري بين كتل الكفر شرقياً وغربياً، وقد كان للإلحاد الشيوعي السوكيتي وأضرابه نصيب وفير من الاحتلال الصهيوني للقدس وسائر فلسطين.

وهذا درس للمسلمين في ضرورة اعتصامهم بحبل الله جميعاً، كفاحاً صارماً في كلّ ميادين النضال بين الكفر والإيمان.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾:

وترى «النبي» هنا هو نبينا؟ والقضية الأولى للإيمان به وما أنزل إليه هي

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

ولاية المؤمنين به حيث ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[١]! أم هو «النبي» الذي به يعتقدون - على حدِّ دعواهم -؟ والإيمان به يصونهم - لأقل تقدير - عن اتخاذ المشركين أولياء فإنه القضية الأولى للإيمان الكتابي!.

وقد يعني «لو كانوا» إلى ذلك المعني «لو كانوا» هؤلاء الكفار الذين اتخذوهم هؤلاء أولياء ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ محمد ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ كما المسلمون ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ لانطباعهم على الكفر، فهم يحيدون عن الإيمان والمؤمنين بالله، وتصديق ذلك العداء العارم على المؤمنين المسلمين:

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

هنا يقتسم الناس وجاه الذين آمنوا إلى ثلاث، فالنسناس منهم هم ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من اليهود والمشركين، إخوان اثنان في ذلك الأشد بأشُدّه، والناس منهم وهم ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ حين قال المسيح ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢] فـــ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ . . .﴾[٣].

فهم أولاء الذين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ من الحواريين الصادقين في

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الصف، الآية: ١٤.

إيمانهم ومن تبعهم بإحسان، وهم الموحدون القلة بين المثلثين الكثرة، مؤمنين بالرسالة العيسوية كما يصح، ومن أهم قضاياه البشارة بالرسالة المحمدية ﷺ.

فالإيمان الكتابي الصادق مصدِّق بالإيمان القرآني اللّاحق وهو بارز في جمع من النصارى، ولكن اليهود العَنود هم أعدى الأعداء ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إذ لم يؤمنوا بالرسالة الموسوية إلّا نفاقاً عارماً أو كفراً صارماً، اللّهم إلّا القليل ممن وفى لرعاية الحق منهم.

ذلك، وقد يُروى عن النبي ﷺ قوله: «ما خلا يهودي بمسلم إلّا همَّ بقتله - أو - حدث نفسه بقتله»[1] وأما هؤلاء النصارى فـ«أولئك» كانوا قوماً بين عيسى ومحمد ﷺ ينتظرون مجيء محمد ﷺ [2] وأضرابهم من المؤمنين بالحق.

ذلك، ولكنه هل ترى المودة النصرانية غير المحلِّقة على كلهم للذين آمنوا، كيف تجعلهم أقرب مودة لهم، دون اليهود والمشركين وقد آمن منهما جموع كما آمن من النصارى؟.

هذا، لأن الذين قالوا إنا نصارى هم جمع خصوص من المسيحيين، ولا نجد جمعاً هكذا بين اليهود والمشركين اللهمَّ إلَّا فالتين عنهم.

ثم و﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ . . .﴾ عِلل ثلاث لكونهم ككلٍّ، وبطبيعة الحال الكتابية السليمة، هم أقرب مودة للذين آمنوا.

---

(١) الدر المنثور ٢: ٣٠٢ - أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

(٢) نور الثقلين ١: ٦٦٣ في تفسير العياشي عن مروان عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله ﷺ قال: ذكر النصارى وعداوتهم فقال: قول الله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] قال: أولئك . .

فمهما كان بين اليهود أحبار كما بين النصارى قسيسون ورهبان، ولكن أين أحبار من اليهود وأين قسيسون ورهبان من النصارى، فظاهرة الاستكبار في أحبار اليهود، وظاهرة عدم الاستكبار في القسيسين والرهبان، هما ظاهرتان متناحرتان تجعلان اليهود والنصارى ككلّ متناحرين في حقل المودة للذين آمنوا.

ذلك، لأن الحياة السعيدة قائمة بالعلم والتواضع أمام الحق، والقيادة العلمية المتواضعة بين الذين قالوا إنا نصارى تجعل من شعوبهم عارفين الحق، والتواضع البارز فيهم يجعل منهم غير متصلبين أمام الحق، وليس لليهود طول تاريخهم - إلَّا القليل - هذه القيادة السليمة.

وأما المشركون فهم يفقدون أصل القيادة الصالحة إلى قيادة شركية طالحة بحتة كالحة، وأنحس منهم اليهود الذين يعادون الذين آمنوا كما المشركين أو أكثر منهم، وهم أهل كتاب وبينهم قيادات روحية توراتية!.

ذلك، وأما العداء العارم الذي يحمله المبشرون المسيحيون ضد الإسلام، بدعايات وكتابات ومحاولات مضلّلة أخرى ضدَّ الإسلام، في حين لا نجد لليهود هكذا دعايات؟.

نقول فيها أولاً أنهم ليسوا من النصارى مهما ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ﴾ حيث لم يفوا لرعاية الحق في المسيح عليه السلام فهم خارجون عمن يصفهم الله تعالى بتلك المودة الايمانية.

وأما جحود اليهود عن الدعاية اليهودية، فلأنهم يرونهم أنفسهم شعب الله المختار، فلا يختارون - إذاً - ذلك الاختيار لمن سواهم، ثم هم يعرقلون ضدَّ المسلمين كافة العرقلات في مختلف الحقول حتى يخرجوهم عن دينهم، أو يحرجوهم فيميلوا إليهم، فهم أشد وأنْكى من المسيحيين،

وهم رؤوس كافة المشاكل ضدَّ المسلمين وكما قال الله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا...﴾[1].

ذلك، ولا تعني ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلا ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ بمواصفات لهؤلاء ليس يحملها إلَّا جماعة خصوص من النصارى.

فهنا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ والقسّيس هو معرب كشيش، عالم النصارى، والرهبان هم المتعبدون المتزهدون علماء وسواهم، فالعلم والزهادة في القيادة هما المؤثران الرئيسيان في صلاح الشعوب، إضافة إلى عدم الاستكبار في تلك القيادة، ومن ثم، وعلى أثر هذه الثلاث: ﴿قَالُوٓا۟... قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فهم:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

وهؤلاء هم - ممن سبق - نصارى الحبشة حين بعث الرسول ﷺ جماعة من المسلمين إلى النجاشي فلقوا إجابة لهذه الرسالة السامية دونما نكول أو خمول»[2] ولم يسبق لهم مثيل في اليهود، ولا في المشركين،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٠٢ - أخرج عن جماعة أنه بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتاباً إلى النجاشي فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأرسل النجاشي إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم أمر جعفر ابن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ عليهم سورة مريم فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع وهم الذين أنزل فيهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً - إلى - ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وفيه عن سعيد بن جبير في الآية قال: هم رسل النجاشي الذين أرسل بإسلامه وإسلام قومه كانوا سبعين رجلاً اختارهم من قومه الخير فالخير في الفقه والسن، وفي لفظ بعث من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ثلاثين رجلاً فلما أتوا رسول الله ﷺ دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس =

اللهمَّ إلّا في فتح مكة حيث أسلم المشركون طوعاً أو كرهاً بعد ردحٍ طويلٍ من الزمن من محارباتهم ومضايقاتهم ضدّ الرسول ﷺ والذين آمنوا معه.

فقد «كان رسول الله ﷺ وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين فبعث جعفر بن أبي طالب وابن مسعود وعثمان بن مظعون في رهطٍ من أصحابه إلى النجاشي ملك الحبشة...»(١) مهاجرة مؤقتة، ودعاية للإسلام،

= فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق فانزل الله فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ...﴾ [المَائدة: ٨٢].

(١) المصدر: .... لما بلغ المشركين بعثوا عمرو بن العاصي في رهط منهم ذكروا أنهم سبقوا أصحاب النبي ﷺ إلى النجاشي فقالوا: إنه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش وأحلامها زعم أنه نبي وأنه بعث إليك رهطا ليفسد عليك قومك فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم، قال: إن جاؤوني نظرت فيما يقولون، فلما قدم أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا إلى باب النجاشي فقالوا: استأذن لأولياء الله فقال: ائذن لهم فمرحباً بأولياء الله فلما دخلوا عليه سلموا فقال الرهط من المشركين ألم تر أيها الملك أنا صدقناك وانهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها؟ فقال لهم: ما يمنعكم أن تحيوني بتحيتي؟ قالوا: إنا حييناك بتحية أهل الجنة والملائكة، فقال لهم: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ قالوا: يقول: عبد الله ورسوله وكلمة من الله وروح منه ألقاها إلى مريم، ويقول في مريم: إنها العذراء الطيبة البتول، قال: فأخذ عوداً من الأرض فقال: ما زاد عيسى وأمه على ما قال صاحبكم هذا العود، فكره المشركون قوله وتغير وجوههم فقال: هل تقرأون شيئاً مما أنزل عليكم؟ قالوا: نعم، قال: فاقرأوا فقرأوا وحوله القسيسون والرهبان وسائر النصارى فجعلت طائفة من القسيسين والرهبان كلما قرأوا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، قال الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ - إلى - مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

وفي نور الثقلين ١: ٦٦١ عن تفسير القمي كان سبب نزول هذه الآية أنه لما اشتدت قريش في أذى رسول الله ﷺ وأصحابه الذين آمنوا به بمكة قبل الهجرة أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى الحبشة وأمر جعفر بن أبي طالب أن يخرج معهم فخرج جعفر ومعه سبعون رجلاً من المسلمين حتى ركبوا البحر - ثم يستمر في القصة بزيادات عما نقلناه عن الدر المنثور إلى قوله -: ورجع عمرو إلى قريش فأخبرهم أن جعفراً في أرض الحبشة في أكرم كرامة.. فكتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي يخطب أم حبيب فبعث إليها النجاشي فخطبها لرسول الله ﷺ فأجابته فزوجها منه وأصدقها اربعمائة دينار وساقها عن رسول الله ﷺ وبعث إليه ﷺ بمارية القبطية أم إبراهيم وبعث إليه بثياب وطيب وفرس وبعث ثلاثين رجلاً من القسيسين =

فاستنصاراً بمن يؤمن في هذه الرحلة، وقد حصلت كأحسن ما يُرام لصالح الإسلام حيث آمن النجاشي وجمع من القسيسين والرهبان وسواهم من ﴿الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ﴾.

فهؤلاء القُدامى ومن يتابعهم بإحسان طول التاريخ الإسلامي، هم المعنيون بهذه الآيات الواصفة لـ ﴿الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ﴾ دون الضالين منهم والمضللين، فـ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

ولقد أمر الرسول ﷺ المؤمنين أن يصلّوا على النجاشي حيث مات في طريقه إليه ﷺ مؤمناً بهذه الرسالة السامية، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلّي على علج نصراني حبشي لم يره قط وليس على دينه فأنزل الله هذه الآية[2].

= فقال لهم: انظروا إلى كلامه وإلى مقعده ومشربه ومصلاه فلما وافوا المدينة دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ - إلى قوله -: فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ بكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي فأخبروه خبر رسول الله ﷺ وقرأوا عليه ما قرأ عليهم رسول الله ﷺ فبكى النجاشي وبكى القسيسون وأسلم النجاشي ولم يظهر للحبشة إسلامه وخافهم على نفسه فخرج من بلاد الحبشة يريد النبي ﷺ فلما عبر البحر توفي فأنزل الله على رسوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ - إلى قوله -: وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٥].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ٤١١ عن الطبرسي قيل نزلت ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ...﴾ [آل عمران: ١٩٩] في النجاشي ملك الحبشة واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية وذلك أنه لما مات نعاه جبرائيل لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه فقال رسول الله ﷺ: اخرجوا فصلّوا على أخ لكم مات بغير أرضكم، قالوا: ومن هو؟ قال: النجاشي، فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلّى عليه، فقال =

ولقد كان من كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي حين بعث وفده إلى الحبشة: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم صاحب حبشة، سلام عليك، إني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه فيه وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله قد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب معه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجيرتك إلى الله تعالى وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

﴿وَمَا لَنَا﴾ استفهام استنكار لعدم الإيمان بعد مجيء الحق الناصع، أن الحق بنفسه مطلوب فطري وعقلي، ولا سيما في رجاء الرحمة على ضوء الإيمان به ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين سبقونا بصالح الإيمان.

فالإيمان بالله هنا رأس الزاوية، ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ من الله هو شرعة الحق، ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا﴾ هو النتاج الآجل - بعد العاجل - للإيمان الحق، وهذه هي أصول الدين بفروعه في الشرعة القرآنية.

= المنافقون... وقيل: نزلت في جماعة من اليهود كانوا أسلموا منهم عبد الله بن سلام ومن معه عن ابن جريج وابن زيد وابن إسحاق، وقيل: نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم.
أقول: هذا الأخير هو الأصح إذ ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ... وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١١٣-١١٥] مهما كانت النصارى أقرب إيماناً.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥﴾:

﴿. . . بِمَا قَالُواْ﴾ قولة الإيمان والعمل الصالح دون مجرد قولة اللسان، وهذه الإثابة مما يبرهن لنا أن ﴿أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[1] ليسوا كلّ النصارى، وإنما هم الموصوفون بهذه المواصفات الناحية منحى الإيمان، دون الناحية عن الإيمان أو العوان بين الإيمان واللّاإيمان.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٨٦﴾:

تلك هي ضَفَّة صالح الإيمان، وهذه ضَفَّة كالح الكفر وبينهما متوسطات بين ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فقد يُعذَّبون قدر ما يستحقون ثم مصيرهم إلى الجنة.

ذلك، ولأن جُدَد الإيمان من المسيحيين ظلوا شيئاً مّا على الرهبانية المبتدعة فأثّرت في المسلمين، لذلك تأتي هدى من الله تعدل هذه الحالة إلى ما شرّعه الله:

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ

عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾:

هـــذه، و﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] هاتان الآيتان تعدّلان إفراط التقشُّف المتسرِّب من رهبنة النصارى، المترسب في البعض من المسلمين، والتحريم هذا يشمل مثلثه: تحريماً تشريعياً أم شخصياً على نفسه أم على غيره، والأخيران هما تحريمان عمليان.

و﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قد تعني غير المباحات والمرجوحات، فالمحرمات خارجة عما ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فتبقى الواجبات والمستحبات وتحريمهما تشريعياً أم بنذر أو عهد أو يمين تحريم لطيبات ما أحل الله، وأمّا أن تحرّم على نفسك مرجوحاً أم ومباحاً في تركه رجاحة، بحلف وشبهه فلا يدخل في نطاق التحريم فإنهما ليسا من الطيبات مهما كانا مما أحل الله، وليست الرهبنة المنهية إلّا تحريم الراجحات واجبة أو مندوبة.

وقد يشمل تحريم طيبات ما أحل الله إضافة إلى التشريعي منه والعملي

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

أن يعتقد في حرمة محلل أو يفتي به أو يُعامله مُعاملة المحرم، أو أن يخلط الحلال بالحرام دون تميز فيحرم - إذاً - الحلال، فالنهي إذاً يشمل كلَّ مراحل التحريم دونما استثناء.

وما توصيف البعض بـ«رهباناً» امتداحاً لهم طليقاً، فإنما هو امتداح أمام المتورطين في اللذوذ المادية وجمع الأموال من اليهود، ويؤيد ذلك الوسط النسبي: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1].

إذاً فالرهبانية المكتوبة عليهم كانت مشروطة بشروط وملابسات خاصة أمام اليهود، ثم نُسخت في شرعة الإسلام مع سائر ما نسخ من أحكام توراتية أو إنجيلية، فما كانت الرهبانية المكتوبة كأصل من شرعة الناموس، بل هي كتابة مؤقتة لمصلحة خاصة في ملابسات خاصة غير مستمرة ولا راجعة، فلا رهبانية - إذاً - في الإسلام.

وهنا «لا تعتدوا» نهيٌ عن الاعتداء في حقل الطيبات في جانبي الإفراط والتفريط، فمن الإفراط تحريم طيبات ومن أنحسه الإخصاء الذي صمّم عليه بعض المجاهيل من المسلمين، ومن التفريط تحليل البعض من غير الطيبات، كما وهو نهي عن الاعتداء على الله وعلى نفسك وسواك، ثم ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ تعمُّ الطيبات الجنسية نكاحاً محللاً، وطيبات المساكن والملابس والمطاعم والمشارب، دون أي إفراط أو تفريط.

ولقد ورد في الآثار المروية عن النبي ﷺ وأئمة أهل بيته الأطهار عليهم السلام التنديد الشديد بتحريم ما أحل الله بألفاظ مختلفة عدة، مما يشعرنا بملابسة خاصة عند نزول هذه الآية، وإن الرهبنة المدسوسة بين

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

المسلمين ما كانت تقف لحدٍّ مثل ترك المقويات والمشهيات حتى لا يشتهي النساء، ثم وترك إتيان النساء، فقد وصلت إلى العزم على الإخصاء والجبِّ وما أشبه فنهى عنها النبي ﷺ ونزلت هذه الآية والتي في الأعراف وأضرابهما مما تحلِّل الطيبات(١).

---

(١) في الدر المنثور ٢: ٣٠٧ - أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني الشهوة وإني حرمت عليّ اللحم فنزلت هذه الآية، وفيه عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في رهط من الصحابة قالوا نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك قالوا: نعم فقال النبي ﷺ: لكني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأنكح النساء فمن أخذ بسنتي فهو مني ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني، وفيه عن ابن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس معنا نساءنا فقلنا: ألا نستخصي فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ عبد الله هذه الآية، وفيه عن أبي قلابة قال: أراد ناس من أصحاب رسول الله ﷺ أن يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء ويترهبوا فقام رسول الله ﷺ فغلظ فيهم المقالة ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا واستقيموا يستقم بكم، قال: ونزلت هذه الآية، وفيه عن قتادة في الآية قال: ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ رفضوا النساء واللحم وأرادوا أن يتخذوا الصوامع فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: ليس في ديني ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع، وفيه أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي عبد الرحمن قال: قال النبي ﷺ: لا آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً، وفيه أخرج ابن جرير عن السدي قال: إن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس ثم قام ولم يزدهم على التخويف فقال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ما حقنا إن لم نحدث عملاً فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم فحرم بعضهم أكل اللحم والودك وأن يأكل منها وحرم بعضهم النوم وحرم بعضهم النساء فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء وكان لا يدنو من أهله ولا يدنون منه فأتت امرأته عائشة وكان يقال لها الحولاء فقالت لها عائشة ومن حولها من نساء النبي ﷺ: ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين؟ فقالت: وكيف أتطيب وأمتشط وما وقع علي زوجي ولا رفع عني ثوباً منذ كذا وكذا فجعلن يضحكن من كلامها فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن فقال: ما يضحككن، قالت: يا رسول الله ﷺ الحولاء سألتها عن أمرها =

أجل «لا تحرموا.. ولا تعتدوا» اعتداءٍ على الله تشريعاً خلاف ما شرعه، ثم على نفسك تحريماً عملياً لما أحلَّ الله، ثم على غيرك، ومن ثم اعتداءً في حقل طيبات ما أحل الله إسرافاً أو تبذيراً، فإن كلّ ذلك اعتداءٌ تشملها «لا تعتدوا».

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ...﴾ أمر عقيب حظر يفيد الإباحة بمختلف مراحلها، ثم ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ تفيدُ سماح الأكل بالرزق الحلال فإن منه حراماً كما ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[1] فتقييد ﴿وَرِزْقًا﴾ بـ ﴿حَسَنًا﴾ يلمح أن هناك رزقاً سيئاً، وذلك قضية التوحيد الأفعالي أن المأكول المحرم رزق سيّئٌ لمن اختاره بسوء الاختيار.

وقد تعني «كلوا» كافة التصرفات كما ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم

= فقالت: ما رفع عني زوجي ثوباً منذ كذا وكذا فأرسل إليه فدعاه فقال: ما بالك يا عثمان، قال: إني تركته لله لكي أتخلى للعبادة وقصّ عليه أمره وكان عثمان قد أراد أن يجبّ نفسه فقال رسول الله ﷺ: أقسمت عليك إلّا رجعت فواقعت أهلك فقال: يا رسول الله ﷺ إني صائم قال: أفطر: فأفطر وأتى أهله فرجعت الحولاء إلى عائشة قد اكتحلت وامتشطت وتطيبت فضحكت عائشة فقالت: ما لك يا حولاء فقالت: إنه أتاها أمس فقال رسول الله ﷺ: ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ألا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يقول: لا تجبّ نفسك فإن هذا هو الاعتداء وأمرهم أن يكفروا أيمانهم فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ...﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ منهم عثمان بن مظعون حرموا اللحم والنساء على أنفسهم وأخذوا الشفار ليقطعوا مذاكيرهم لكي تنقطع الشهوة عنهم ويتفرغوا لعبادة ربهم فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: ما أردتم؟ قالوا: أردنا أن نقطع الشهوة عنا ونتفرغ لعبادة ربّنا ونلهو عن الناس فقال رسول الله ﷺ: لم أؤمر بذلك ولكني أمرت في ديني أن أتزوج النساء فقالوا نطيع رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية فقالوا: كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ...﴾ [البَقَرَة: ٢٢٥] وفيه عنه ﷺ إن خصاء أمتي الصيام وليس من أمتي من خصى أو اختصى.

(١) سورة النحل، الآية: ٦٧.

بِٱلْبَٰطِلِ﴾[(١)] فقد بلغ الأكل إيجابياً وسلبياً مبلغ العموم لحدّ لولا القرينة المعينة لخصوص الأكل لما تعين به.

وقد تعني ﴿مِمَّا﴾ الحظر عن أكل كلّ الحلال حيث الإنفاقات الواجبة والمستحبة تتهدر بذلك الإسراف والتبذير، اللهم إلّا من له كفاف لا زائد ولا ناقص.

ذلك، ومن أطيب الطيبات المحللة نكاح الطيبات، فتركه مع الحاجة إليه وأنت على سعة من المال إمَّا حمق أو فجور أم رهبنة ليست في الإسلام[(٢)].

أترى أن حلف المسلم على ترك طيبات محللة محظور عليه أن يلغي يمينه؟ :

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٢) المصدر أخرج عبد الرزاق وأحمد عن أبي ذر قال دخل على رسول الله ﷺ رجل يقال له عطاف بن بشير التميمي فقال له النبي ﷺ: هل لك من زوجة؟ قال: لا، قال: ولا جارية؟ قال: ولا جارية، قال: وأنت موسر بخير؟ قال: نعم، قال: أنت إذاً من إخوان الشيطان لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم إن من سنتي النكاح شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم أبالشيطان تتمرسون ما للشيطان من سلاح أبلغ في الصالحين من النساء إلّا المتزوجين أولئك المطهرون المبرؤون من الخنا ويحك يا عكاف... تزوج وإلّا فأنت من المذبذبين.

وفيه أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي عن أبي نجيح قال: قال رسول الله ﷺ: من كان موسراً لأن ينكح فلم ينكح فليس مني، وفيه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: مسكين مسكين مسكين رجل ليست له امرأة، قيل يا رسول الله ﷺ وإن كان غنياً ذا مال؟ قال: وإن كان غنياً ذا مال، قال: ومسكينة مسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج قيل: يا رسول الله ﷺ وإن كانت غنية أو مكثرة من المال؟ قال: وإن كانت.

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾[1].

اللغو في الأيمان يعني - ككلٍّ - اليمين اللّاغية كالتالية:

١ - أن تجعل الله عرضة ليمينك دون تقصُّد لأمر يحتاج إلى يمين كأن تقول: «لا والله وبلى والله ولا يعقد على شيء»[2].

٢ - أو أن تحلف بترك الواجب أو فعل الحرام، أو الالتزام بترك سنة أو فعل مرجوح فإنه من لغو الإيمان إذ لا تُثبت أمراً ولا تنفي بحساب الشرع.

٣ - أم تحلف على فعل راجح لزاماً وسواه، أم على ترك مرجوح لزاماً وسواه ولا تنوي الالتزام به.

٤ - أم تحلف هكذا ناوياً التزامك به ثم تلغيه تحلّة مفروضة أم راجحة أم محرمة.

٥ - أم حلفاً بغير الله فإنه محظور إذ لا حلف إلّا بالله كما لا نذرَ إلّا لله.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) كما في الكافي عن مسعدة عن الصادق عليه السلام في الآية قال: اللغو قول الرجل: . . .
ومثله ما في الدر المنثور ١ : ٢٦٩ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: هو كلام الرجل في يمينه كلا والله وبلى والله، وفيه عن الحسن قال: مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوم ينتصلون ومع النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل من أصحابه فرمى رجل من القوم فقال: أصبت والله أخطأت والله فقال الذي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم حنث الرجل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: كلّا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة؟

ومهما كان المُناسب لملابسة الآية نظرة إلى سالفتها هو الثاني ولكن لفظ الآية لا يتقيد بها، حيث يعمُّ هذه الخمسة دون إبقاء، ومهما كانت الأخيرة لا تحسب من ﴿أَيْمَٰنَكُمْ﴾ فكذلك الأربعة الباقية.

كما وأن ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ تعمُّ كلَّ حفاظ على الأيمان، حفاظاً لها عن كلِّ لغو، فمهما كان اللغو في الأيمان في مراحلها الخمس غير مؤاخذ بها كأصل، حيث المؤاخذة هي ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ و﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[1] ولكن اللغو في الأيمان محظور مغفور.

فالأيمان الصحيحة الصالحة هي واجبة الحفظ ألّا تلغَ، والأيمان الباطلة غير الصالحة هي واجبة الإلغاء وهي نفسها محظورة مهما كانت بجنب «ما عقدتم الأيمان - و- ما كسبت قلوبكم» مغفورة، فالمؤاخذة - إذاً - ليست هي الألسن، بل هي القلوب، ثم كفارته...

فالأيمان اللّاَغية مؤاخذ بها بما عقَّدتم الأيمان، تعقيداً في صالحها بإلغائها دونما عذر، حيث تجب تمشيتها، أو تعقيداً حين تحلفون في صالح كأن لا تنووا تحقيقها، أم في طالح فإنها معقدة شرعياً حيث لا تنفذها شرعة الله، أم في أمر لاغٍ لا صالح ولا طالح كأن لا تنووا أمراً كقول لا والله وبلى والله.

ولأن ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ قد تشمل هذه الخمس كلّها مهما اختلفت دركاتها، فقد تكون الكفارة المتفرعة على التعقيد محلّقة عليها كلها، فإن ضمير المفرد هنا لا مرجع له إلّا «ما عقدتم»: جعلتم تعقيداً للأيمان إيجابياً أو سلبياً، نية أو عملية أماهيه من منافر اليمين.

ذلك، ولكن «ما عقدتم» لا تشمل ما لم تنو أمراً كالأخير إذا لم تعقِّد فيه لا نية ولا أمراً نويته، بل هو ليس من اليمين أصلاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.

فلو رجع الضمير إلى ﴿بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ كانت الكفارة تشمل الرابعة مع ما سواها، ولكن بُعده مرجعاً، وبُعده تفريعاً حيث لا تفرع الكفارة على غير المؤاخذ به - هذان البعدان يبعِّدان ذلك الرجوع، ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ أي ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ حيث تعني الأيمان المعقَّدة المؤكدة حتى تكون بمنزلة العقد المؤكد والحبل المُحصَد - خلافاً للّتي ليست معقودة على شيء - تعقيداً في أصلها كان تحلف على تحقيق محظور أو ترك محبور، أم تعقيداً في النية في الحلف المحبور، أم تعقيداً في تحقيق محبور نويته في حلف، فهذه الثلاثة مشمولة لـ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ...﴾ حيث كسبت قلوبكم فيها رَيْناً وشَيْناً، تخلفاً عن شرعة الله إيجاباً أو تحريماً متخلفاً عنها، أم تخلفاً في نيتك عما تحلف صالحاً، أم تخلفاً عن تطبيق ما حلفت ونويت.

ذلك فاللغو في الأيمان المعقَّدة فيه الكفارة بكلِّ أقسامها، لمكان ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ حيث تعني «ما عقدتم» من لغو الأيمان، ولكنه متقيد بما كان التعقيد محرماً، وأما القاصر المعقِّد عن جهلٍ فلم يكسب قلبه شيئاً حتى يستلزم كفارة.

ذلك ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ من أن تكون لغواً أو أن تلغوا فيها، فالأيمان اللّاغية غير القاصدة ولا المعقدة محظورة غير مؤاخذ بها ولا كفارة فيها، والأيمان القاصدة المعقدة إن كانت صالحة فحفظها هو نية الالتزام بها وتحقيقها، وغير الصالحة حفظها تركها فلا يفعلها، وإذا فعل فلا يعمل طبقها.

ذلك، فأما المعتبرة الحاصرة لكفارة اليمين بالحنث في اليمين الصالحة فهل تصلح لتقييد الآية؟ والأيمان اللاغية المعقدة كلها معنية بطليق ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ الراجع إلى ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ إضافة إلى الطليق العام في

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ حيث الحلف بعد الأيمان يختصها بغير الأولى والأخيرة اللاغية تماماً!.

ولكن الذي يوهن الخطب هو أن ترك نية العمل وترك العمل في المحبور هما واحد، تشملها القائلة «إذا لم تف به» ثم تعقيد المحظور بيمين فيه الكفارة إذا حقق المحظور، وإلَّا فلا كفارة كما في الصحيح: «ما حلفت عليه مما فيه البر فعليه الكفارة إذا لم تف به وما حلفت مما فيه المعصية فليس عليك فيه الكفارة إذا رجعت عنه وما كان سوى ذلك مما ليس فيه بر ولا معصية فليس بشيء»[(١)] وعلى أية حال:

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾

هنا الأوسط يختلف حسب مختلف الأوساط في الإطعام، ولكن ﴿كِسْوَتُهُمْ﴾ طليقةٌ، اللَّهم إلَّا أن تعني تكسوهم كسوتهم وهم الأهلون، ولكنه احتمال لا يحتمل الاستدلال، كما وأن ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ طليقة تعم أية رقبة.

ثم الأوسط يعمّ كمَّ الطعام وكيفه، فإذا كان أقله كمّاً لكلّ مدٌّ وأكثره مدان، وهو كيفاً خبز وأكثره لحم ورُز فالأوسط هنا بين الكمين كمُدٍّ ونصف وبين الكيفين كلحم فقط أو رز.

ومن الكمِّ هو الكمُّ الزمني، فإن كان يطعمهم في الأقل طعاماً وفي الأكثر آخر فالأوسط هو الأوسط بينهما[(٢)] وكما منه الأوسط أكلاً بين أهليكم، فهذا مربع من الأوسط يشمله ﴿أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

---

(١) هو صحيح زرارة قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أي شيء الذي فيه الكفارة من الأيمان؟ فقال: ما حلفت... (الكافي ٧: ٤٤٦ والتهذيب ٣: ٣٣٠ والاستبصار ٤: ٤٢).

(٢) نور الثقلين ١: ٦٦٦ عن الكافي الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هو كما يكون أنه يكون في البيت من يأكل أكثر من المدّ ومنهم من يأكل أقل من المدّ فبين ذلك وإن شئت جعلت لهم أدماً والأدم أدناه ملح وأوسطه الخل والزيت وأرفعه اللحم.

وهنا ﴿عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ نص في عديدهم فلا يكفي إطعام واحد منهم عشر طعمات وما أشبه، وظاهر الإطعام هو كامل الطعام.

وترى إن كان عنده ما يكفي إطعام الأقل من عشرة مساكين فهل يرجع إلى صيام ثلاثة أيام؟ طبعاً نعم فإن ﴿لَّمْ يَجِدْ﴾ تنحو مَنْحى المذكورات الثلاث.

ثم ترى إن لم يستطع - إذاً - الصيام فهل يرجع إلى واجب الإطعام؟ لا دليل عليه اللَّهم إلَّا تطوعاً للخير، وأما «الميسور لا يسقط بالمعسور» فلا دَوْرَ له في مجال النص.

وهل إن ﴿كِسْوَتُهُمْ﴾ تعني أقله بستر العورتين، أم لا أقل من ثوبين[(١)] قميصاً وإزاراً، أم ما صدقت عليه كسوة فيكفي قميص واحد يكسو الأعالي والأداني[(٢)]؟ الظاهر إجزاء الأخير شرط أن يكسو العورتين تماماً، والأحوط إضافة إزار معه، حيث إن ﴿كِسْوَتُهُمْ﴾ طليقة يُكتفى فيها بمسماها المتعود، ولأن الكسوة مهما قلت هي زائدة على الإطعام فقد تكفي عنه حين لا تكفي كسوة.

ذلك كفارة مخيّرة بين هذه الثلاثة ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ شيئاً منها وهو ما زاد عن مؤنة أهله[(٣)] ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ ولا يشترط فيها التتابع إذ لم يشترط،

---

(١) ومما يدل عليه رواية الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في كفارة اليمين... أو كسوتهم لكلّ إنسان ثوبان.

(٢) نور الثقلين ١ : ٦٦٧ عن الكافي عن أبي بصير قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن «كسوتهم» قال: ثوب واحد،

وفي الدر المنثور ٣: ٣١٣ عن حذيفة قال: قلنا يا رسول الله «أو كسوتهم» ما هو؟ قال: عباءة عباءة، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: عباءة لكل مسكين.

(٣) نور الثقلين ١ : ٦٦٦ عن الكافي الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال : هو كما يكون أنه يكون في البيت من يأكل أكثر من المدّ ومنهم من يأكل أقل من المدّ فبين ذلك وإن شئت =

خلاف البعض الآخر كـ ﴿شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾[(١)] [(٢)] و﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ في اللّاغية غير الأولى ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ كما يجب ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

وفي نظرة أخرى إلى الآية لمحات:

١ - ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾[(٣)] تنهى فيما تنهى عن اللغو في الأيمان، فلا تعني ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ﴾ هنا إلّا أصل المؤاخذة فإنه ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ - و بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾. وتعقيد اليمين عما يجب تركه محرم في كلّ مصاديقه.

٢ - ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ﴾ قد تعني الأوسط شخصياً لا جماعياً،

= جعلت لهم أدماً والأدم أدناه ملح وأوسطه الخل والزيت وأرفعه اللحم.
﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦] ما حدّ من لم يجد وإن الرجل يسأل في كفه وهو يجد؟ فقال: إذا لم يكن عند فضل عن قوت عياله فهو ممن لم يجد.

(١) سورة النساء، الآية: ٩٢.

(٢) المصدر عن الكافي عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صيام ثلاثة أيام في كفارة اليمين متتابعات لا يفصل بينهن، وفيه عنه عليه السلام قال: السبعة الأيام والثلاثة الأيام في الحج لا تفرق إنما هي بمنزلة الثلاثة الأيام في اليمين.
وفي الدر المنثور ٣: ٣١٤ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحن بالخيار قال: أنت بالخيار إن شئت أعتقت وإن شئت كسوت وإن شئت أطعمت فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات.
أقول: ولا قوة لهذه الثلاثة على تقييد اطلاق الآية فالأقوى إجزاء الأيام المتفرقات والأحوط أن تكون متتابعات.
ذلك وقد يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلاً قال له: علي أيام من رمضان أفأقضيها متفرقات؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أرأيت لو كان عليك دين فقضيت الدرهم فالدرهم أما كان يجزيك؟ قال: بلى قال: فالله أحق أن يعفو ويصفح (تفسير الفخر الرازي ١٢ : ٧٨) أقول: وهذه استفادة لطيفة من طليق الآية وكما هنا، ولا تطبق فيما نص على واجب التتابع ك ﴿شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ [النِّساء: ٩٢].

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٤.

فليس الأوسط في الجماعة المؤمنة مفروضاً على البائس الفقير الذي لا يطعم أهليه بأوسطه إلّا خبزاً طازجاً، ثم ﴿كِسْوَتُهُمْ﴾ طليقة لا تتقيد بأوسطها إذ لا دليل عليه هنا.

٣ - وهنا ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ دون تقيّد بمؤمنة، هي مثل ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[1] ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ في واجب إيتاء المال كما في (٢: ١٧٧) أم واجب الزكاة والصدقات كما في (٩: ٦٠) وكذلك واجب ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[2].

فقد قيدت الرقبة بالمؤمنة في قتل الخطأ (٤: ٩٢) لا سواه، ولم تقيد فيما سواه إطلاقاً، فهل تقيَّد ﴿رَقَبَةٍ﴾ في هذه العديدة المديدة بـ «مؤمنة» لأنها قيّدت في قتل الخطأ؟ وهذا خطأٌ من التقييد، بعيدٌ عن صالح التعبير الطليق!.

وحصيلة الحكم في الآية هي حرمة اللغو في الأيمان أياً كان، ولكن المؤاخذة مختصة بتعقيد الأيمان كفارة وسواها، ثم سائر اللغو الذي ليس فيه تعقيد الأيمان لا مؤاخذة فيه بكفارة وسواها كأن تحلف دون أن تعقد على شيء أم تحلف بغير الله.

فالحلف بالله دون نية الالتزام، أو الحلف به بما هو محظور، أو الحلف مع النية ثم النقض، فالكفارة هي في هذه الثلاث لا سواها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾:

(١) سورة المجادلة، الآية: ٣.
(٢) سورة البلد، الآية: ١٣.

لقد حرّمت آيات تحريم الإثم الـ (٤٨) بصورة طليقة كلّ إثم وهو ما يبطئ عن الثواب، وكانت في قمتها الخمر فإنها مفتاح لكلِّ المنكرات، مبطئة عن كلِّ ثواب هو قضية عقل الإيمان، فإذا زال العقل زالت الإنسانية والإيمان وانفتحت كلُّ أبواب الشرِّ واللّاإيمان.

نرى (١١) آية من آيات الإثم مكية والباقية مدنية، ومن المكية: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ...﴾[1].

وإذا كان الإثم محرماً فماذا ترى في كبائر الإثم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾[2] كما ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[3] ثم نسمع الله يكبِّر إثم الخمر في آية البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[4]، وبينهما مكية كـ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ﴾[5] حيث عدّ السَّكَر رزقاً سيئاً، ومدنية كـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ...﴾[6] مهما كانت نازلة قبل آية البقرة أو بعدها، فإن لها دوراً عظيماً في تحريم الخمر إذ تقرر الحظر عن الصلاة - وهي عمود الدين - عند السكر، إذاً فهو عمود اللّادين حيث يصدّ عن عمود الدين صدّاً فارضاً محتوماً.

ومن أغْرَب الغرايب أن جماعة مثل الخليفة عمر ما كان يترك الخمر

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٥) سورة النحل، الآية: ٦٧.
(٦) سورة النساء، الآية: ٤٣.

طوال هذه الآيات مكيات ومدنيات قائلاً: «اللَّهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب المال والعقل فنزلت هذه الآية فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا»[1].

وقد شرب الخمر قبل آية المائدة كما تعوّده فأخذ بلحى بعير وشجّ به رأس عبد الرحمن بن عوف ثم قعد ينوح على قتلى بدر فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر رداءه فرفع شيئاً كان في يده فضربه به فقال عمر: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فأنزل الله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فقال عمر: انتهينا انتهينا[2].

فهلّا يكون بيان الله في آي التحريم قبل المائدة بياناً شافياً حتى ابتلي

---

(١) الدر المنثور ١: ٢٥٢ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في المسند ١: ٥٣ وأبو داود في سننه ٣: ١٣٨ والترمذي في صحيحه والنسائي في السنن ٨: ٢٨٧ وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم في المستدرك ٣: ٢٧٨ و٤: ١٤٣ وصححه والبيهقي في سننه ٨: ٢٨٥ والضياء المقدسي في المختارة عن عمر أنه قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب المال فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ...﴾ [البَقَرَة: ٢١٩] في البقرة فدعي عمر فقرأت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت التي في النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ...﴾ [النِّسَاء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا.
أقول: وأخرجه الطبري في تاريخه ٧: ٢٢ والجصاص في أحكام القرآن ٢: ٢٤٥ وأقره الذهبي في تلخيصه والقرطبي في تفسيره ٥: ٢٠٠ وابن كثير في تفسيره ١٥: ٢٥٥ و٢: ٩٢ نقلاً عن أحمد وأبي داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه وعلي بن المديني في إسناد صالح صحيح وفي تيسير الوصول ١: ١٢٤ وتفسير الخازن ١: ٥١٣ وتفسير الرازي ٣: ٤٥٨ وفتح الباري ٨: ٢٢٥ وتفسير الآلوسي ٧: ١٥.

(٢) في لفظ الزمخشري في ربيع الأبرار وشهاب الدين الأبشيهي في المستطرف ٢: ٢٩١ شرب عمر الخمر قبل آية المائدة.

بما ابتلي به ثم انتهى عند آية المائدة؟! وهذا مسّ من كرامة القرآن، ذلك الكتاب البيان! ذلك! وقد يتحسر الخليفة حين تنزل آية المائدة قائلاً: ضيعة لك اليوم قرنت بالميسر[١] ويكأنها ما قرنت به في آية البقرة؟

ذلك وبعد قولة الانتهاء لم يكن لينتهي عن شرب النبيذ الشديد أخت الخمرة اللعينة[٢] وليس ينقضي العجاب من تفقُّه الخليفة وطغواه في تقواه أمام أكبر الكبائر فضلاً عن سائرها وسائر الصغائر!.

آيات تحريم الخمر تلويحاً وتصريحاً هي متفقة الدلالة عليه، مهما كانت متدرجة المدلول في بيان آماد التحريم وأبعاده، وهذه الخاتمة لها في القرآن كلّه تحمل آكد التأكيدات وأشدّ التشديدات في حرمة الخمر وخلفياتها الخطرة فردية وجماعية.

هـنـا ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿رِجْسٌ﴾ ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ ﴿يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ و﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ هذه السبع تفتح على حقول الخمر الدركات السبع الجهنمية، بأخواتها ﴿وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ وهي تتقدمها كرئيسة لها، وهي حقاً كماهيه مفتاح كلِّ شرٍّ[٣] وأكبر الكبائر[٤]

---

(١) المصدر ٣: ٣١٥ وفيه أيضاً قوله: «أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام بعداً لك وسحقاً»؟ وقد قرنت بالميسر في البقرة!.

(٢) للاطلاع على مدارك شربه راجع تفسير آية البقرة في الفرقان وكما تطلع عنده على أبعاد أخرى في حقل الخمر.

(٣) في الكافي عن أبي بصير عن أحدهما عليه السلام قال: إن الله جعل للمعصية بيتاً ثم جعل للبيت باباً ثم جعل للباب غلقاً ثم جعل للغلق مفتاحاً فمفتاح المعصية الخمر، وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب.
وفي الدر المنثور ٣: ٣٢٢ - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كلّ شر، ورواه مثله عنه صلى الله عليه وآله وسلم أبو الدرداء.

(٤) في الكافي عن إسماعيل قال أقبل أبو جعفر عليه السلام في المسجد الحرام فنظر إليه قوم من =

ولذلك نراها محرَّمة في كافة الشرائع[١].

كما وأن ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[٢] و«واحذروا» ترغيبات ثلاث في تركها، وتلك - إذاً - عشرة كاملة هي عشيرة لحقل الخمر، مصرحة ومشيرة إلى بأسها ونحسها وبخسها وفلاح التاركين إياها.

في هذه الآية يُردف ذلك المربع مع بعضها البعض لأنها كلها حزمة واحدة ذات رباط عريق في مزاولتها، وأنها من معالم الجاهلية المُتَغَلْغِلَة فيها، فقد كانت الذبائح على النُّصب أو المستقسمة بالأزلام يُصاحب شواءها نوادي الخمور كما يُصاحبها الميسر، شركاء أربعة في شهواتهم الجماعية بملابساتها الأخرى التي نفتح مغاليقها الخمرُ ومعها الميسر.

فالأنصاب هي ما ذُبِحَ على النصب وهي الأوثان، ذَبحاً للتقديس والتقريب والتبرك، والأزلام هي القداح التي كانوا يستقسمون بها الذبيحة وكما في أخرى بداية المائدة ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾[٣] فإنه قتل للحيوان بصورة الميسر، فالذي قدحه هو المعلَّى يأخذ النصيب الأعلى وإلى من لا نصيب له حيث لا يصيب قدحه الهدف المُرام مهما كان هو صاحب الذبيحة أو المشترك فيها فيخسرها كلها.

ف «الميسر» هنا محرم على أية حال، والأزلام ميسر خاص فيه الذبح

= قريش فقالوا: هذا إله أهل العراق فقال بعضهم: لو بعثتم إليه بعضكم فأتاه شاب منهم فقال: يا عم ما أكبر الكبائر؟ قال: شرب الخمر.

وفيه عن أبي البلاد عن أحدهما عليهما السلام قال: ما عصي الله بشيء أشدّ من شرب المسكر أن أحدهم يدع الصلاة الفريضة ويثب على أمه وابنته وأخته وهو لا يعقل.

(١) أخرجنا خمس عشرة آية من التوراة والإنجيل وملحقاتهما تصرح بحرمة مغلظة للخمر، راجع تفسير آية البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البَقَرَة: ٢١٩] في الفرقان.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

غير المشروع بالميسر المحرم على أية حال فهو محظور على محظور، والأنصاب ذبح للحيوان على النصب ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[(١)] فهو أيضاً محظور على محظور، فأصل الحظر في الأنصاب والأزلام هو الميسر المشترك بينهما، مع ما يختص كلّ واحد بخاصة خاصة.

وما هو دور هذه المحرمات في نهاية العهد الرسالي والمسلمون هم مسلمون طيلة سنين؟ إن لها الدور العام لكافة المكلفين على مدار الزمن، إضافة إلى اجتثاث الجذور الجاهلية التي ترسبت في هؤلاء المسلمين من ذي قبل، فبقيت منها بقايا وزوايا لا بدَّ من القضاء عليها، فلا بدَّ من تنقية تلكم الرواسب عن بكرتها، استئصالاً لها بأسرها حتى يكون الحاكم - فقط - هو الله بشرعته النقية التقية.

هنا رأس الزاوية في هذه الزوايا الأربع الجاهلية هي: الخمر، وهذه هي المرحلة الأخيرة في علاج مشكلتها في المنهج الإسلامي السامي، فقد حرمت على طول الخطّ التشريعي مكياً ومدنياً بأنها من الإثم، ثم إنها الرزق السيّئ كما في العهد المكي، ثم في العهد المدني مانعة عن الصلاة، وإن فيها إثماً كبيراً، ومن ثم ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وإلى سائر السبعة والعشرة الكاملة.

وهنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تستجيش القلوب المؤمنة حسب درجات الإيمان، وأن الانتهاء عن الخمر وأخواتها هو قضية الإيمان، مما يوحي أن اقترافها خروج عن الإيمان، كما وأن قرن «الأنصاب» وهي للمشركين بأخواتها يوحي بأنها كلها في صف الإشراك بالله، مهما اختلفت من الناحية العقيدية والعملية، فهناك عقيدة الإشراك وفي الثالوث الباقية عملية الإشراك، وقد جمعت كلها بأحكام ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ. . .﴾.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

ثم ﴿رِجۡسٌ﴾ ترجس الخمر ذاتياً وعملياً، شرباً وسواه من محاولات فيها تقريباً وتقديماً لشربها، كما وترجس الثلاثة الأخرى، فالميسر رجسٌ في نفسه ورجسٌ في الأموال المستفادة منه، ورجسٌ فيما يتقامر به، فهو ثالوث من الرجس! والأنصاب رجس في أصلها وهي النُّصب لأنها أوثان:

﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾(١) ورجس فيما ذبح عليها: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾(٢) والأزلام رجس في الاستقسام بها وفي المستقسم بها، ثم وهي ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

وترى ﴿رِجۡسٌ﴾ في الخمر دليل نجاستها كسائر النجاسات العينية؟ ورجس الميسر لا يعني نجاسة آلات القمار ولا نجاسة المقامرين، إنما هو نفس الميسر رجاسة عملية تنجس الأرواح والمجتمعات!.

والرجس لغوياً هو كلّ ما استقذر من عمل وأصله من الرَّجْس وهو الصوت الشديد، وسحاب رجاس إذا كان شديد الصوت بالرعد، فالرِّجس - إذاً - في مثل الخمر والميسر والأنصاب والأزلام هو العمل القبيح الذي فيه رعد القباحة صاعقة والوقاحة، وليس هكذا أي نجس ظاهري في مجرد مسّه، كما وأن ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يؤكد ذلك القبح الوقيح.

ثم وكيف تعني ﴿رِجۡسٌ﴾ تلك النجاسة الجسمية المتعدية الخبيثة وقد عدَّ الله المنافقين من الرجس: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾(٣) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ

(١) سورة الحج، الآية: ٣٠.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٥.

كَٰفِرُونَ﴾[١] كـمـا ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾[٢] و﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٣] فلا تعني الرجس فيها ولا فيما سواها[٤] النجاسة الخبيثة المعروفة، إنما هي النجاسة العقيدية والعملية والأخلاقية، ولا نجد - ولا مرة يتيمة - يعني من الرجس في آياته هذه النجاسة، فكيف يستدل بمجرد لفظة الرجس هنا على نجاسة الخمر جسمياً، فهي فيها نجاسة عقلية وخلقية فعقيدية وعملية أماهيه.

ذلك، إضافة إلى أن واجب الاجتناب المتفرع على ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ لا يفرض الاجتناب الخَبَثي فإنه - قطعاً - غير واجب، اللَّهمّ إلَّا شرباً للخمر وما أشبه من محاولات لها، وعملاً للمسير والأنصاب والأزلام، ثم النجاسة الظاهرية ليست من عمل الشيطان وإلَّا لكان المعصومون عليهم السلام مصحوبين بعمل الشيطان لمكان النجاسات الخبثية الطائرة عليهم كما على سواهم! كما ولا يلزم من كون شيءٍ من عمل الشيطان نجاسته الخبثية كالميسر والأنصاب والأزلام وسائر الأشياء والأعمال المحرمة.

ذلك، والروايات الواردة بحق الخمر نجاسة وسواها معروضة على

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٤) ومما سواها ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١] ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠] ثم و﴿رِجْسٌ﴾ في ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] لو دلت على النجاسة الجسمية، لم تكن قرينة على أن الرجس في سائر القرآن هو هيه، وقد تلمح «فإنه» أن ليس الرجس هو النجاسة الجسمية حيث الميتة والدم المسفوح كذلك نجسان فلِمَ اختصت هذه النجاسة بلحم خنزير؟.

الآية الساكتة لأقل تقدير عن نجاستها، أو الظاهرة في النجاسة غير الظاهرية، أم تتساقط لكون الدالة على طهارتها نصاً، وسواها لأكثر تقدير ظاهرة، ولكن الأمر بالتجنب أعم من النجاسة الظاهرية[١] فالأقوى طهارة

---

(١) ذهب إلى طهارة الخمر من أصحابنا الصدوق وأبوه والجعفي والعماني وجماعة من المتأخرين كالمحقق الخراساني والأردبيلي والسيد في المدارك والفاضل الخراساني، ومن المعاصرين المرجع الديني السيد أبو القاسم الخوئي، وأما إخواننا فالشهرة المطلقة بينهم كما عندنا على النجاسة والقائلون منهم كما منا بالطهارة قلة مثل ربيعة شيخ الإمام مالك وحكي عن حبل المتين أنه قال: اطبق علمائنا الخاصة والعامة على نجاسة الخمر إلّا شرذمة منا ومنهم لم يعتد الفريقان بمخالفتهم.

ومن الأخبار الدالة على الطهارة صحيحة ابن أبي سارة قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن أصاب ثوبي من الخمر أصلّي فيه قبل أن أغسله؟ قال: «لا بأس إن الثوب لا يسكر».

أقول: وهي انتباهة حسنة حيث ربط الإمام عليه السلام النجاسة بالإسكار، إذاً فهي النجاسة العقلية حيث تسكر العقل، دون النجاسة الظاهرية حيث لا تسكر الملابس أو مظاهر الجسم، وموثقة ابن بكير قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام وأنا عنده عن المسكر والنبيذ يصيب الثوب؟ قال: «لا بأس» وصحيحة علي بن رئاب المروية عن قرب الأسناد قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الخمر والنبيذ المسكر يصيب ثوبي فأغسله أو أصلي فيه؟

قال: صل فيه إلّا أن تقذره فتغسل منه موضع الأثر إن الله تبارك تعالى إنما حرم شربها» (وسائل الشيعة أبواب النجاسات ب ٣٨ ج ١٠ و١١ و١٤) وغيرها من الروايات.

ومما استدل بها للنجاسة موثقة عمار الساباطي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الدن يكون فيه الخمر هل يصلح أن يكون فيه خل أو ماء كامخ أو زيتون؟ قال: إذا غُسل فلا بأس» (المصدر ب ٥١ ح ١) وصحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في الإناء يشرب فيه النبيذ؟ فقال: تغسله سبع مرات» (المصدر باب الأشربة ب ٣٠ ح ٢) وموثقته الأخرى عن دواء يعجن بالخمر؟ فقال: «لا والله ما أحب أن انظر إليه فكيف أتداوى به أنه بمنزله شحم الخنزير أو لحم الخنزير» (المصدر ٣٠: ٤) وموثقة عمار الساباطي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تصلّ في ثوب أصابه خمر أو مسكر واغسله إن عرفت «موضعه فإن لم تعرف موضعه فاغسل الثوب كلّه فإن صليت فيه فأعد صلاتك».

أقول: وغير الأخير لا صراحة فيه ولا ظهور في النجاسة والأخير معارض بما سبق وليس وجوب الغسل دليلاً على النجاسة فقد يكون كوجوب إزالة أجزاء ما لا يؤكل لحمه مثل الشعر والوبر، وأما الحمل على التقية فلا دور له في أمثال هذه الموارد التي تقل فتاوى أهل السنة =

الخمر فضلاً عن الفقاع والعصير العنبي قبل الثلثين، وإن كان الأحوط التطهير عنها.

١ - ثم ﴿رِجْسٌ - مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ - فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ تعمُّ كلَّ المحاولات الناحية منحى شربها حيث التحريم موجَّه إلى نفس الخمر وأخواتها[١] وكما في حديث رسول الله ﷺ ولا معنى لحرمتها في نفسها إلَّا للمحاولات المرغوبة المترقبة منها، ولذلك لعن فيها عشرة، لا فقط شاربها، فكلُّ المحاولات حول الخمر، الناحية منحى شربها، هي محرمة قضيةَ حرمتها في نفسها حيث تعني كلَّ ملابساتها إلى شربها.

= الموافقة لها، وأما تقديم هذه الأخبار بصحيحة علي بن مهزيار بالإسناد عن سهل بن زياد قال قرأت في كتاب عبد الله بن محمد إلى أبي الحسن عليه السلام جعلت فداك روى زرارة عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في الخمر يصيب ثوب الرجل أنهما قالا: لا بأس بأن يصلي فيه إنما حرم شربها وروى غير زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إذا أصاب ثوبك خمر أو نبيذ - يعني المسكر - فاغسله إن عرفت موضعه وإن لم تعرف موضعه فاغسله كله وإن صليت فيه فأعد صلاتك، فأعلمني ما آخذ به؟

فوقع بخطه عليه السلام وقرأته: خذ بقول أبي عبد الله عليه السلام (جامع أحاديث الشيعة ص ٣٣ ب ٧ رقم ٢ من التهذيب والاستبصار والكافي).

أما هذه الصحيحة فليست هي بصحيحة، فإن في تعارض المنقول عن الإمامين، إن كان الحق مشكوكاً بينهما ليس من المرجح قول أبي عبد الله على قوله الآخر مع الباقر عليه السلام وإن كان كلاهما صادرين كما هو نص الرواية فكيف يصح الأخذ بقول لأبي عبد الله وترك قوله الآخر الذي يقول به الباقر عليه السلام؟ ولا موقف للتقية في أي من الطهارة والنجاسة، بل إن كان هناك تقية فالقول بالنجاسة موافق للتقية والقول الآخر مخالف له.

(١) في الكافي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: غارسها وحارسها وعاصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبايعها ومشتريها وآكل ثمنها.

أقول: وحول الخمر لعنات أخرى بالنسبة لحضور مائدة يشرب عليها الخمر وبيع العنب ممن تعلم أنه يعمله خمراً كما في الدر المنثور ٣: ٣٢٥ - أخرج البيهقي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: من حبس العنب أيام قطافه حتى يبيعه من يهودي أو نصراني أو ممن يعلم أنه يتخذ خمراً فقد تقدم في النار على بصيرة.

٢ - ومن ثم ﴿رِجۡسٌ﴾ وأخواتها تدلُّ - فيما تدلُّ - على حُرمتها الذاتية على مدار الزمن الرسالي، فلا تجد رسالة ربانية إلَّا بتحريم الخمر كما فصلناه على ضوء آية البقرة.

و﴿رِجۡسٌ﴾ هذا يعمُّ ترجيس صالح الروح والجسم والقال والحال والأعمال، رجساً فردياً وجماعياً، خَلقياً وخُلقياً وعقيدياً وعلمياً ومعرفياً وفي كلِّ الحقول الإنسانية عن بكرتها، أسراً لها بأسرها في وثاقها حيث تحرِّر الإنسان وتُطلقه عن عقليته الإنسانية بل وعن العقلية الحيوانية حيث يُضبحُ حيواناً مجنوناً شرساً.

ومن ثم ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ كوصف ثان لهذه الأربعة فيه وجهان، إنها - وفي قمتها الخمر - من صنع الشيطان، فهو أوَّل مبتدع لها كما وهو من عمله المستمر في شيطنة الأعمال، ومن عمله وسوسته في صدور الناس بحق الخمر وأخواتها، ثالوثاً من عمل الشيطان، فأين المؤمن ومبتدَع الشيطان وعمله الشيطاني ووسوسته؟ ولذلك نراها أنها من أوليات المحرمات[1].

---

(١) وسائل الشيعة ١٧: ٢٤٣ ح ٢٠ في الأمالي بسند متصل عن محمد بن مسلم قال سئل أبو عبد الله عليه السلام عن الخمر فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أول ما نهاني عنه ربي جلّ جلاله عن عبادة الأوثان وشرب الخمر وملاحاة الرجال» وأخرجه مثله عنه صلى الله عليه وآله وسلم أم سلمة كما في الدر المنثور ٣: ٣٢٦.

أقول: فالأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن آية المائدة هي التي حرمت الخمر، أنها مختلقة معروضة عرض الحائط إلّا أن تعني غلظ الحرمة لا أصلها.

وفي عيون الأخبار بإسناده إلى الريان بن الصلت قال سمعت الرضا عليه السلام يقول: ما بعث الله عز وجل نبياً إلّا بتحريم الخمر، وفي سيرة ابن هشام عن خلاد بن قرة وغيره من مشايخ بكر ابن وائل من أهل العلم أن أعشى بن قيس خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد الإسلام فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره فأخبره أنه جاء يريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليسلم فقال له: يا أبا بصير فإنه يحرم الخمر...

٣ - ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهنا واجب الاجتناب متفرع على مثنَّى ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فهذه ضابطة ثابتة أن كلَّ رجسٍ وعملٍ للشيطان هو واجب الاجتناب رجاءَ الإفلاح في معتركات الحياة، فإفلاج الشيطان لشيطناته، وضمير الغائب في ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ راجع إلى ﴿رِجْسٌ﴾ فيشمل كلّ هذه الأربعة، تفريعاً لواجب الاجتناب على ﴿رِجْسٌ﴾ الموصوفة بـ ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أم هو راجع إلى عمل الشيطان، أم إلى المذكورات الست.

ذلك، ولا تختص الخمر بما يؤخذ من العنب والتمر، بل هي كلُّ ما تخمر العقل بطبيعة حاله أياً كان مأخذه، وكما فيما استفاض نقله عن النبي ﷺ [(١)] والخمر تعني كلَّ مسكر، فقد «حرّم الله الخمر وكلّ مسكر حرام»[(٢)].

ذلك، والخمر والميسر هما أختان مُتماثلتان في الرجاسة والنحوسة، كما وتختصان بالذكر في ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مما يدل على زيادة الرجاسة فيهما على الأنصاب والأزلام.

ف ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ وهما من أخطر الأخطار على الأمة الاسلامية وكافة الناس، فإن عامل العداوة

---

(١) في الدر المنثور ٣: ٣١٨ - عن ابن عباس ان رسول الله ﷺ حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر حرام، وفيه قال رسول الله ﷺ: إن من الحنطة خمراً ومن الزبيب خمراً ومن التمر خمراً ومن العسل خمراً وأنهاكم عن كلّ مسكر، وفيه مثله عن ابن عباس عنه ﷺ: «وكلّ مسكر حرام».

وفيه أخرج مسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رجلاً قدم من اليمن فسأل النبي ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المزر فقال النبي ﷺ: أو يسكر هو؟ قالوا: نعم قال رسول الله ﷺ: كلّ مسكر حرام إن الله عهد لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال قالوا: يا رسول الله ﷺ وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار أو عصارة أهل النار.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣١٧ - أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال:

والبغضاء عامل لكلِّ إفساد في الأرض بمختلف حقوله ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ككلٍّ عشواً عن ذكره تعالى إلى كلِّ لغو ولهو ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي عمود الدين وعماد اليقين، فهذه أقانيم ثلاثة لثالوث الخمر والميسر بين إيجابية العداوة والبغضاء وسلبية ذكر الله والصلاة، فهي ذاهبة بمعنى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ المتمثلة لزاماً بين المؤمنين، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟.

هنا يتبيّن لنا بوضوح هدف الشيطان بخيله ورجله، وغاية كيده وميده وثمرة رجسه بعمله أنه فصْم عرى المحبة والوداد بين خلق الله وبينهم وبين الله، بالعداوة والبغضاء هناك، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة هنا، وهل الدين إلَّا الحب؟ وهو ذاهب به بالخمر والميسر في هذا البين.

فالخمر بما تفقد الإنسان من الوعي، وما تُثير من عرامة اللحم والدم وبما تُهيج من شهوات ونزوات فتُطلِق صاحبها عن أسر العقلية الإنسانية - بل والحيوانية - بأسرها!.

والميسر بما تُصاحبه - على أية حال - من خسارات فأحقاد، مهما لم يخسر مالياً فإنه يخسر من كيانه في سباق اللعب، وإن كان يزيده عداوة وبغضاً أن ذهب ماله!، هاتان أختان شرستان هَرِجتان محرجتان من يصاحبهما.

لذلك، فكما الخمر قليلها محرّم إلى جنب كثيرها، كذلك الميسر محرم في غير شرط إلى جانب ما فيه شرط، فإن نفس التغلب في ميدان الميسر تورث العداوة والبغضاء، كما أن نفس الإلهاء عند المقامرين يصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة.

فحتى ولو لم يورث الميسر عداءً بين المقامرين، فهو لا بدّ وأن يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة بطبيعة الحالة الملهية فيه.

إذاً فكلُّ ما يوقع العداوة والبغضاء أو يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة

- فضلاً عما يورثهما - إنه محرم، غضّاً عما في الخمر والميسر من توتّر الأعصاب وخسار الصحة البدنية والعقلية.

وهل ترى محرماً قط مثل الخمر والميسر - في تحليق الضرر على كلِّ الحقول، ولا سيما الخمر التي تذهب بالعقول وتجعل من شاربها بهيمة مجنونة شرسة؟!.

لذلك نرى في الخمر حدّاً أدبياً ليس في الميسر إلّا تأديباً تعزيرياً، مما يدل على مدى فاعلية الخمر في حقول الإفساد أكثر من الميسر، بل وهي التي تيسّر الميسر وكلّ محظور.

فشارب الخمر علماً وعمداً يُضرب الحدّ(١) وإن شرب قليلاً لا يسكر(٢)

---

(١) كما استفاض به الأثر من طريق الفريقين فمن طريق أصحابنا صحيحة محمد بن إسماعيل بن بزيع عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن الفقاع فقال: هو خمر وفيه حدّ شارب الخمر» (التهذيب في حدّ المسكر رقم ٣٦) ومعتبرة ابن فضال قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام وسألته عن الفقاع فقال: «هو الخمر وفيه حد شارب الخمر» (الكافي ٦: ٤٢٤ رقم ١٥) وصحيحة سليمان بن خالد قال كان أمير المؤمنين عليه السلام «يجلد في النبيذ المسكر ثمانين كما يضرب في الخمر ويقتل في الثالثة كما يقتل صاحب الخمر» (الاستبصار ٤: ٢٣٥) ومن طريق إخواننا في الدر المنثور ٣: ٣١٦ - أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس أن الشراب كانوا يضربون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأيدي والنعال والعصي حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال أبو بكر: لو فرضنا لهم حداً فتوخى نحو ما كانوا يضربون في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى توفي ثم كان عمر من بعده فجلدهم كذلك أربعين حتى أتي برجل من المهاجرين الأوّلين وقد شرب فأمر به أن يجلد فقال: لِمَ تجلدني بيني وبينك كتاب الله قال: وفي أي كتاب الله تجد أن لا أجلدك - إلى أن قال -: فقال عمر: فماذا ترون؟

فقال علي بن أبي طالب: نرى أنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى وعلى المفتري ثمانون جلدة فأمر عمر فجلد ثمانين أقول: لا نصدق خلاف ذلك الحد على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مهما كان مستفاداً من القرآن أو هو سنة، إذ انقطع الوحي كتاباً وسنة بعد الرسول فكيف يتجدد حدّ لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!.

(٢) كما في خبر إسحاق بن عمار الساباطي سأل الصادق عليه السلام عن رجل شرب حسوة خمر؟ قال: يجلد ثمانين جلدة قليلها وكثيرها حرام (علل الشرايع ٣: ٢٢٥).

فإن شارب القليل يورد في مشرب الكثير، ثم ولا داعي له في ذلك التذوُّق اللعين إلَّا ازديادٌ، فيه فاعلية الخمر، وحده ثمانون جلدة لتظافر الأثر على ذلك الحدّ[١].

أفبعد ذلك كلِّه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهو استفهام إنكاري يلمح أن جماعة من المسلمين لم يكونوا لينتهوا عنه مع كرور المناهي مكياً ومدنياً في الذكر الحكيم! كما سبق نقله عن الخليفة عمر من قوله: انتهينا انتهينا، وخطاب الإيمان الموجه إلى أمثاله من المتورطين في هذه الكبيرة وأمثالها ليس إلَّا لإقرارهم بالشهادتين سواء أكان مع إيمان مَّا أم بنفاق، فلا يدل على صالح الإيمان بمجرد خطابه، بل هو إلى صالحه وطالحه وكالحه حيث لم يك ينتهي صاحبه رغم كرور المناهي عن الخمر.

ذلك، فكلُّ المحاولات حول الخمر محرمة حتى بيع العنب ممن تعلم

---

(١) منه موثق أبي بصير «كان علي عليه السلام يجلد الحر والعبد واليهودي والنصراني في الخمر والنبيذ ثمانين» (الكافي ٧: ٢١٥ والتهذيب في حد المسكر رقم ٩١) وهنا روايات أخرى تجعل حدَّ العبد نصف الحر وقضية درء الحدود بالشبهات وإن الأقل هو الثابت الاقتصار بالأربعين.
وفي الدر المنثور ٣: ٣٢٥ - أخرج عبد الرزاق وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن معاوية بن أبي سفيان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من شرب الخمر فاجلدوه قالها ثلاثاً إن شربها الرابعة فاقتلوه، وفيه أخرج عبد الرزاق عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين بعثه إلى اليمن سأله قال: إن قومي يصنعون شراباً من الذرة يقال له المزر فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أيسكر؟ قال: نعم قال: فانههم عنه قال نهيتهم عنه ولم ينتهوا قال: فمن لم ينته في الثالثة منهم فاقتله، وفيه أخرج عبد الرزاق عن مكحول قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من شرب الخمر فاضربوه ثم قال في الرابعة: من شرب الخمر فاقتلوه، ورواه مثله عنه صلى الله عليه وآله وسلم أبو هريرة، والزهري وعمرو بن دينار إلَّا أن فيه فحدوه بل فاضربوه، أقول: وقصة الحد والضرب في شرب الخمر متواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رواها عنه مثل هؤلاء في أصل الحد قبيصة بن ذؤيب وأبي الرمد البلوي، وشرحبيل بن أويس وام حبيبة بنت أبي سفيان.
وفي لفظ الديلمي قال: وفدت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله إنا نصنع طعاماً وشراباً فنطعمه بني عمنا فقال: هل يسكر؟ قلت: نعم فقال: حرام، فلما كان عند توديعي إياه ذكرته له فقلت يا نبي الله إنهم لن يصبروا عنه قال: فمن لم يصبر عنه فاضربوا عنقه.

أنه يعمله خمراً، أم حضور مائدة يُشرب عليها الخمر، أمّاذا من ملابسات في حقل الخمر.

هذا، ومن غرائب الوفق العددي بين ثالوث «الأصنام والخمر والخنزير» أن كلًّا منها مذكورة مرات خمس في الذكر الحكيم.

تلك هي الخمر، المحرم قليلها وكثيرها، الثابت حدّها فيهما، وأما الميسر فقد يعمّ القمار ككلّ بشرط وسواه حيث الحِكَم المذكورة في الآية مشتركة بينهما، والقول إن «الميسر» لامحة إلى شرط الانتفاع بيُسر فيه وإلَّا فلا ميسر، مدفوع بنص الحكم هنا، ولو اختصت الحرمة بيسر الحصول على المال لكان كلّ ما في تحصيله يسر محرماً، ولم يكن الميسر بالنسبة لمن يدفع الشرط محرماً!.

ذلك، وطليق الآية وأضرابها وطليق الرواية في حرمة الميسر يحرِّمانه على أية حال، بشرط وسواه، وبآلته الخاصة وسواها، مهما كان بالشرط وخصوص الآلة أشدّ تحريماً، ثم بشرط دون آلة، ومن ثم بآلة دون شرط، وأخيراً دون شرط وآلة.

والضابطة الأصيلة في حرمة الميسر كما الخمر هي حصيلة ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ... وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وكما يُروى أن «كلّ ما ألهى عن ذكر الله فهو الميسر»[1] مهما اختلفت دركاته في رهن وسواه، وبآلة خاصة وسواها.

---

(١) كما في مجالس المفيد الثاني ولد الشيخ الطوسي بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الميسر... وفي رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام قيل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما الميسر؟ قال: كلّ ما يقامر به حتى الكعاب والجوز، والمقامرة هي المغالبة وهي تتحقق دون شرط كما تتحقق بشرط، وفي رواية تحف العقول أن ما يجيء منه الفساد محضاً لا يجوز التقلب فيه من جميع وجوه الحركات، ولا ريب في فساد القمار.

وفي الدر المنثور ٣: ٣١٩ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر =

ثم «الميسر» هو اسم مكان وليس اسم آلة، فهو مكان اليسر ومجاله، وهو بطبيعة الحال يُسرٌ محرّم يورث العداوة والبغضاء، من يُسر الحصول على مال دونما سعي فإنه أكل بالباطل، حيث لم تفد في الميسر حتى تستحق عنه بديلاً، ويُسر الحصول على تغلب، ولا تغلب إلَّا في فضيلة، ويُسر بثِّ العداوة والبغضاء، ويُسر الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وعلى الجملة هو يُسر في محظور دونما سعي تستحق به أي حق، فضلاً عن باطل من مال أم وأهم منه رجاحة الحال في تخيل البال.

أجل يجوز الشرط في سباق الخيل أو السباحة وما أشبه لمكان رجاحة السباق في أمثالها حيث تنفع لنضال وما أشبه من فوائد عامة وعوائد هامة، حسب ما تدل عليه النصوص، مثل سباق الرمي والخيل والسباحة، حيث تنفع المسلمين في حقل الجهاد، فسباق الرمي يشمل كافة الأسلحة المتطورة، كما الخيل تشمل كلَّ المركوبات جوياً وبرياً وبحرياً، ثم السباحة هي كماهيه مهما اختلفت أشكالها.

فهذه الثلاثة مما لا بدّ منها في جبهات الحرب، ولذلك هي محبورة غير محظورة، وهكذا الأمر في سائر الإعدادات الحربية لمكان عامة الأمر ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[1] ولكن الأشبه في الكلِّ أن يكون الجعل من ثالث حتى يبعد عن الميسر كلَّ البعد.

= بها زجراً فإنها من الميسر رواه عنه ﷺ أبو موسى الأشعري وسمرة بن جندب وابن مسعود، فلم يشترط فيه الشرط، وفيه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ من لعب بالنردشير فقد عصى الله ورسوله، وعن عبد الرحمن الخطمي سمعت رسول الله ﷺ يقول: مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقول فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقول فيصلي، وعن يحيى بن أبي كثير قال: مر رسول الله ﷺ بقوم يلعبون بالنرد فقال: قلوب لاهية وأيد عاملة وألسنة لاغية.

أقول: وذكر الآلات الخاصة للقمار لا يدل على حصر الحرمة في الميسر فيها، وإنما هو بيان للمصاديق المتعددة في القمار.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

ولئن قلت: كما أن صالح التدرب على معدات حربية للجهاد يتقدم على محظور العداوة والبغضاء، كذلك صالح الاستقواء فكرياً قد يتقدم عليها وكما في الشطرنج وما أشبه.

قلنا: نحن على حرفية النص المختص بالسباق في حقل التدرب الحربي، ثم القوة الفكرية لا تختص بمثل اللعب بالشطرنج فلها مندوحة في حقول المباحات والراجحات واجبة وسواها، إضافة إلى أنها فائدة شخصية، ولكن التدرُّب للجهاد فائدة جماعية لا مندوحة عن السباق فيها من غيرها.

ثم وبالإمكان أن تُخصَّص أموال لهذه السباقات المشروعة دون أخذ وعطاء بين المتسابقين.

إذاً فلا يعني الاستثناء إلَّا تقديم الأهم على المهم، ولا مهمة في سائر الميسر السباق إلَّا اللّهو، وأما السباق في نطاق الأمر فهو عبادة وليس لهواً حتى يُلهي عن ذكر الله أو يُورث العداوة والبغضاء.

ولو أن عبادة مّا أورثت العداوة والبغضاء فليست بالتي تترك صداً عنهما حيث المُعادي البغيض في حقل العبادة هو خارج عن كتلة الايمان!.

إذاً فكلُّ السباقات التي تنحو منحى الحصول على الطاقات والقوات الجهادية، هي محبورة غير محظورة، وعلَّ منها السباق في الحقول العلمية.

والضابطة المستفادة من هذه الآية أن كلّ ما يورث العداوة والبغضاء ويصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة محرمة كحرمة الخمر والميسر، اللّهم إلَّا تطبيق المسؤوليات الإسلامية التي قد تُوجب العداوة والبغضاء في الذين يكرهون تلكم المسؤوليات، كافرين ومسلمين.

فالخلافات العلمية من جراء ترك القرآن والإقبال إلى غيره من ضوابط مختلقة لا تتبنى القرآن والسنة، هذه محرمة، كما الإقبال إلى غير القرآن لحدٍّ يُلهي عن القرآن، هو كذلك محرم.

فالأصل الرباني في شرعة الله هو الاتجاه إلى الله بتوحيده وتوحيد عبادته.

ولأن أضرار الخمر تحلّق على كافة المجالات الحيوية للإنسان، روحياً وجسمياً، فردياً وجماعياً، فلا تحل على أية حال وإنْ للاستشفاء بها من مرض، وقد روي ألَّا شفاء فيها، وقد اعترف بأطراف من مضارها القاطعة جمع من غير المسلمين(١) لحدٍّ منعوا عن الاستشفاء بها(٢).

---

(١) ففي كتاب (خواطر وسوانح في الإسلام) لـ «هنري الفرنسي»: إن أحدَّ سلاح يستأصل به الشرقيون وأمضى سيف يُقتل به المسلمون هو الخمر وإدخالها ولقد جردنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبت شريعتهم الإسلامية أن يتجرعوه فتضاعف نسلهم ولو أنهم استقبلونا كما استقبلنا قوم من منافقيهم بالتهليل والترحيب وشربوها لأصبحوا أذلّاء لنا كتلك القبيلة التي شربت خمرنا وتحملت أذلّاء لنا «وقال بتنام» المقنّن الإنجليزي «من محاسن الشريعة الاسلامية تحريم الخمر فإن من شربها من أبناء أفريقيا آل أمر نسله للجنون، ومن استدامها من أهل أوروبا زاغ عقله، فليحرم شربها على الأفريقيين وليعاقب عقاباً صارماً الأوروبيون ليكون العقاب بمقدار الضرر».

(٢) في كتاب لطبيب أمريكي يسمى (كيلوج) منع التداوي بالخمر لأن ضرها في الجسم عند التداوي أكثر من نفعها بالشفاء الموقت لما تفعل في الأمعاء وباقي الأحشاء من الضراء، وفي كتاب «اليد في الطب» يذكر نحواً من ثلاثين صفحة حول أضرار الخمر.
ويقول العالم الانجليزي (بنتام) في كتابه (أصول الشرايع) ترجمة المرحوم أحمد فتحي زغلول باشا تحت عنوان: الجرائم الشخصية ما نصه: النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله وفي الأقاليم الجنوبية يصيّره كالمجنون، ففي الأوّل يكتفى بمعاقبة الأوّل على السكر كعمل وحشي وفي الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد لأنه شبيه بالتشرر وقد حرمت ديانة محمد ﷺ جميع المشروبات وهذه من محاسنها - وفي كتاب اليد الطبي تأليف الأستاذ كبلوج تحت عنوان: الاستعمال الطبي للخمر من الصفحة ١٧٥ - إلى - ٥٠٤ ومما كتب فيه: إني لست أبحث في منع الخمر للسكر، فهذا فرغ منه العلماء، وإن بحثي اليوم في مضاره الطبية وإن التداوي به يجلب للإنسان أمراضاً لا قبل له بها فإن التداوي به ممنوع طبياً وليس فيه أدنى فائدة.
وقال الأستاذ (لبيج): إنه إذا اعتدل الإنسان في شربه قوي جسمه وأكسبه نشاطاً، وقد نقض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين وهم الأستاذ للمان والأستاذ بيرن والأستاذ دروى، ثم الأستاذ إدوارد سميث الإنجليزي، وقد برهن الثلاثة الأول على بطلان ما تقدم =

. . . .

= بقولهم: إن الخمر تخرج من الجسم ولا أثر لها، وزاد الأخير بقوله: إنه حلل الدم فلم يجد فيه أدنى شيء من العناصر التي يتركب منها الخمر، وقال الدكتور ملر الاسكوتلاندي: الخمر لا يشفي شيئاً، وقال الدكتور هيجنبوتوم أمام الجمعية الطبية البريطانية: أنا لا أعلم مرضاً قط شُفي بالخمر، وقال الدكتور جونسون الإنجليزي: إن الخمر ليس ضرورياً البتة ليستعمل دواء، وقال في إبطال قولهم: إن الخمر غذاء وإنه يحفظ الجسم أو يقوي العضلات: ما هذه القوة إن هي إلّا اسم آخر من أسماء السموم، فقولنا: فلان نشوان طرب ثمل، معناه: مسموم وبرهن على ذلك بقوله: إذا أدخلنا الخمر أو أي سمٍّ آخر من العقاقير السامة التي تعدّ بالمئات في الجسم فإن جميع الأعضاء تستعد للمقاومة والمدافعة لإخراجه من الجسم، ومن هنا كان النشاط، وقال في نقض قولهم: إن الخمرة تمنع المرض: إن الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة، فإذا كان ما تقولون حقاً فأضرار الخمرة أشد من تلك الأمراض فتكاً بالجسم، فكيف بها إذا كانت لا تشفي منها شيئاً، فإن تجارب الأطباء السابقة تثبت أنها لا تترك أثراً في النسيج والأثر الحقيقي إنما يكون في النسيج. وقال الدكتور سميث الإنجليزي رداً على الأستاذ لبيج: إن الخمرة يخسر بسببها الجسم جزءاً من الحرارة، بل يزيد ذلك الفقد.

ذلك وفي صحيح مسلم مع شرح الإمام النووي ص ٣٦٤ - إن طارق بن سويد سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إني أصنعها للدواء، فقال الرسول ﷺ: «إنه ليس بدواء ولكنه داء».

ذلك، وقد أثبت الدكتور (باركس) و(السيرجون هيل) مفتش عام في الجيش البريطاني والدكتور هنري مارتس وآخرون: إن الخمر لا يشفي المرض ولا ينفع الجسم، وقال (باركس) في إبطال القول: «لا ضرر في الخمر الصافي: إن الخمر الصافي هي سم صاف» وقد أخذ يبطل القول: إن الخمر يمحو الهمّ والكسل ويجعل الفقير الذي لا منزل له ولا صاحب يشعر بأنه غني أو ملك أو. . . : إن الإنسان إذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه وفقد الإحساس ونسي ما هو فيه من شقاء الحياة ومتاعبها لعاجز عن الاعتبار بتلك التجارب العالية الرفيعة القدر الشريفة المنزلة، والشعور الشريف الذي تكون فيه البهجة العالية بالحياة الحقيقية.

ويذكر الطنطاوي الجوهري في تفسيره ١: ١٩٦ منذ ثمان سنين جاء رجل إلى مصر من أعضاء دار الندوة (البرلمان) للسويد والنرويج، وذكر أنه رئيس جمعيات منع الخمر في العالم وأنه زار جميع دول أوروبا والشرق كفرنسا وانجلترا والروسيا والصين واليابان - وكلّ الحكومات ساعدته - وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل، وذكر أنه في أمريكا حرم خمسة وأربعون مليوناً من أهلها الخمرة على أنفسهم، وقال: إن ولي العهد لبلاد السويد ربي على ألّا يشرب الخمر ونحن نفتخر بأنه أوّل ملك لا يشرب الخمر في أوروبا.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في محكم كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في سنته الجامعة غير المفرقة: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[1] - ﴿وَاحْذَرُوا﴾ من عصيان الله ورسوله ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عما فرض عليكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: لوحي الكتاب والسنة، والله هو المبلّغ عنه، الواجبة طاعته على أية حال، فهو المثيب وهو المعاقب.

وهنا ﴿فَاعْلَمُوا﴾ إعلام صارخ بحجة بارعة أخيرة للأسماع الصاغية ﴿أَنَّمَا﴾ حصراً لكيان الرسول في ﴿عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وكلّ بلاغاته حول الخمر طول العهدين كانت مبيِّنة رغم تطلّبات الخليفة عمر «اللّهمَّ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً» ويكأن بيان الله غير شاف في سائر الآيات المحرمة للخمر!.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

هنا يُنفى ﴿جُنَاحٌ﴾ أياً كان عن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ مضياً، فليس النص «يطعمون» - أياً كان شرط الإيمان وعمل الصالحات أولاً، ثم تقوى بعدهما ومعها إيمان وعمل الصالحات، ثم تقوى وإحسان، فما هي صالحات هنا بعد صالحات، ودرجات ثلاث من التقوى ودرجات ثلاث من الإيمان ثم إحسان - أخيراً - بعد درجات التقوى والإيمان؟.

هنا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ منهم هؤلاء الذين كانوا يشربون

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

الخمر قبل هذه الآية ثم انتهوا[١] فلا يبقى عليهم جناحه ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ الخمر منذ نزول الآية فتركوها فإنها كفارة له، فكلما يقرب إليه راجح واجباً وسواه، وكلّ ما يبعد عنه مرجوح محرماً وسواه، وأصل ثانٍ هو الموادة بين المؤمنين على توحيد الله وعبوديته، فكلُّ ما يورث العداوة والبغضاء بينهم محرّم، اللهم إلّا ما هو مفروض يفرضه الله ويرفضه مُتخلفون عن طاعة الله كافرين ومسلمين.

وهنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تنظيم في حقل الإيمان بعقل الإيمان، اعتصاماً بحبل الله دون تفرق عنه أو تفرق فيما بينهم، حيث إن الإيمان هو رمز الوحدة في كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، فلا عداوَة - إذاً - ولا بغضاء.

وعلَّ الفارق بينهما أن العداوة هي الباطنة أم هي أعمّ من الظاهرة، والبغضاء هي الظاهرة قضيةَ صيغة التفضيل، فهما العداوة باطنة وظاهرة، والمفروض بين قبيل الإيمان الاعتصام بحبل الله جميعاً دون أي تفرق.

فالمفروض على المؤمنين تكريس كلَّ طاقاتهم وإمكانياتهم في الاعتصام بحبل الله جميعاً، وسلب كافة التفرقات حتى يسودوا سائر الناس النسناس الذين يتربصون بهم كلَّ دوائر السوء فـ ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢].

---

(١) في الدر المنثور ٣: ٣٢٠ عن ابن عباس قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: يا رسول الله ﷺ فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ...﴾ [المائدة: ٩٣] وفيه عن البراء بن عازب قال: مات ناس من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر فلما نزل تحريمها قال أناس من أصحاب النبي ﷺ: كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها فنزلت هذه الآيات، أقول: لا تعني «لما نزل تحريم الخمر» إلّا نزول آية المائدة بهذه الصراحة والتأكيدات دون نزول أصل التحريم حيث سبقتها فيه مكيات ومدنيات، ولو كان نزول أصل التحريم لما كان جناح على الذين كانوا يشربونها قبل التحريم حتى يسألوا عنهم وتنزل آية براءتهم!.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

فإن تركوا المعصية توبةً فالله يتوب عليهم دون أن يبقى جناح الشرب لزاماً عليهم.

ذلك، ولأن شُرب الخمر ناقض للإيمان فلا بدّ بعد التقوى عنه من تجديد الإيمان وعمل الصالحات التي تصلح لجديد الإيمان، ومن ثم تقوى ثانية علَّ منها التقوى في التصميم بعد التقوى في ترك الشرب حتى تكون توبة نصوحاً، فإن مجرد الترك لا يستلزم واقع الترك إلّا بتصميم عليه، وإيمان ثانٍ بعد جديده يتبنّى ذلك التقوى، ثم تقوى في الصميم بعد التصميم فإن من التصميم ما هو غير صميم، وأخيراً «أحسنوا» إحساناً لمراتب الإيمان وعمل الصالحات والتقوى، مما يدل على غلظ الحرمة في الخمر وأخواتها حيث يبقى جناحها لولا هذه التنقيات التقيات.

ومن هنا نتبيّن أن هذه المذكورات في هذه الآية كانت مُحرّمة طول العهد الرسولي مكياً ومدنياً، ولم تكن لأحد عاذرة في شُرب الخمر واقتراف أخواتها، فإن كرور الآيات هنا وهناك مراراً وتكراراً كانت تمنع عنها بأشدّه مهما اختلفت صِيَغ التحريم، حتى وصلت إلى ذلك التهديد الحديد ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ مهما لم تنتهوا طوال كرور الآيات المذكرات الناهيات بمختلف التعبيرات.

وهنا «ما طعموا» تعمّ طعم عوائد الميسر وذبائح الأنصاب والأزلام إلى طعم الخمر، حيث الشرب طعمٌ مهما لم يكن كلُّ طعم شرباً، وكما في مثل «ومن لم يطعمه إنه مني» فالعبارة الصالحة لجامع شرب الخمر وطعم الثلاثة الأخرى هي «طعموا».

فـ «لا جناح» هنا وجاه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ هناك تبيِّن كبيرة عدم الانتهاء والعفوَ عن المُنتهين بتلك الشروط المسرودة التي لا نظيرة لها في شروطات التوبة في سائر الكبائر، مما يدل على أن هذه الأربع هي من أكبر الكبائر.

ذلك، فليس نفي الجناح هنا فيما طعموا تحليلاً للمحرمات قضيةَ أنهم آمنوا وعملوا الصالحات واتقوا وأحسنوا، فإن قضيتها - وبهذه التأكيدات المتكررة - تركُ المحرمات دون اقترافها حيث القضية لا تحمل نقيضها، فإنما يُنفى الجناح عن المؤمنين الصالحين شرط أن يكفّروا عما طعموا فيما سبق من حرام إذا طعموه، أم يتركوه مهما لم يطعموه، تحليلاً للمأكولات المحللة ككلّ، وتوبة على الذين أكلوا محرمات ثم تابوا هكذا توبة نصوح[1].

ذلك، والتقوى بحالها قضيتُها العليا ترك أمهات المعاصي وهذه الأربع هي من أكبر كبائرها، فكيف تجتمع مع طعم الخمر بعد تحريمها بهذه التأكيدات الوطيدة، ولا نجد تأكيدات وتنديدات بكبيرة مثل ما نجدها في الخمر والميسر، وإليكم نصوصاً من أمير المؤمنين ومولى المتقين إيضاحاً لما ورد في القرآن من قضايا التقوى وصفات المتقين فضلاً عما في آيتنا من مثلث التقوى والايمان ومثنى عمل الصالحات وموحِّد الإحسان الذي يجمع في خضمه مثلث الإيمان والتقوى وعمل الصالحات:

«فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه

---

(۱) الدر المنثور ۳: ۳۲۱ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن محارب بن دثار أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ شربوا الخمر بالشام فقال لهم يزيد بن أبي سفيان شربتم الخمر؟ فقالوا: نعم، لقول الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا...﴾ [المَائدة: ۹۳] فكتب فيهم إلى عمر فكتب إليه إن أتاك كتابي هذا نهاراً فلا تنتظر بهم الليل وإن أتاك ليلاً فلا تنتظر بهم النهار حتى تبعث بهم إليّ لا يفتنوا عباد الله فبعث بهم إلى عمر فلما قدموا على عمر قال: شربتم الخمر؟ قالوا: نعم فتلا عليهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ...﴾ [المَائدة: ۹۰] قالوا: اقرأ التي بعدها ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ [المَائدة: ۹۳] قال: فشاور فيهم الناس فقال لعلي: ما ترى؟ قال: أرى أنهم شرعوا في دين الله ما لم يأذن به الله فيه فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم فقد أحلوا ما حرم الله وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين ثمانين.

لكم، وقوموا بما عصبه بكم، فعلي ضامن لفلجكم آجلاً، إن لم تمنحوه عاجلاً» (الخطبة ٢٧ / ٧٥) - «أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقي وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي» (٤٠ / ٩٩) - «فاتقى عبدٌ ربه، نصح نفسه، وقدم توبته، وغلب شهوته» (٦٢ / ١٨٨)[(١)].

فهذه شرذمة من التقوى وإليكم جماعها من إمام المتقين ويعسوب الدين حيث يصف المتقين عن بكرتهم لمن يستوصفهم[(٢)]:

---

(١) و«أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال، ووقت لكم الآجال، وألبسكم الرياش، وأرفغ لكم المعاش، وأحاط بكم الإحصاء، وأرصد لكم الجزاء، وآثركم بالنعم السوابغ، والرفد الروافغ، وأنذركم بالحجج البوالغ، فأحصاكم عدداً، ووظف لكم مدداً، في قرار خبرة، ودار عبرة، أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها» (٨١/ ١/ ١٣٧) - «أوصيكم بتقوى الذي أعذر بما أنذر، واحتج بما نهج، وحذركم عدواً نفذ في الصدور خفياً، ونفث في الآذان نجياً، فأضل وأردى، ووعد فمنى، وزين سيئات الجرائم، وهون موبقات العظائم» (٨١/ ٢/ ١٤٥) - «عباد الله إن تقوى الله حمت أولياءه محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظمإ، واستقربوا الأجل، فبادروا العمل، وكذبوا الأمل، فلاحظوا الأجل» (١١٢/ ٢٢٠) - ف«أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، والأبصار اللامحة إلى منار التقوى، أين القلوب التي وهبت لله، وعوقدت على طاعة الله» (١٤٢/ ٢٥٦) - «ألا وبالتقوى تقطع حُمّة الخطايا» (١٥٥/ ٢٧٧) - «فاتقوا الله تقية من سمعٍ فخشع، واقترف فاعترف، ووجِلَ فعمِل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعُبر فاعتبر، وحذِّر فحذِر، وزجِر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتذى، وأري فرأى، فأسرع طالباً، ونجا هارباً، فأفاد ذخيرة، وأطاب سريرة، وعمر معاداً، واستظهر زاداً ليوم رحيله ووجه سبيله وحال حاجته وموطن فاقته، وقدم أمامه لدار مقامه، فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له، واحذروا منه كنه ما حذركم من نفسه، واستحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز لصدق ميعاده، والحذر من هول معاده» (٨١/ ٢/ ١٤١) - «فاتقوا الله عباد الله، تقية ذي لب شغل التفكر قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه، وأظمأ الرجاء هواجر يومه، وظلف الزهد شهواته، وأوجف الذكر بلسانه، وقدم الخوف لأمانه، وتنكب المخالج عن وضح السبيل، وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب، ولم تفتله فاتلات الغرور، ولم تعم عليه مشتبهات الأمور» (٨١/ ٢/ ١٤٤).

(٢) هذه الخطبة إجابة لهمام صاحب له عليه السلام حين قال: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى=

«أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معايشهم، ووضعهم من الدنيا مواضعهم».

فالمتقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نُزِّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعَّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مُربحة يسرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يُريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يُرتلونه ترتيلاً، يُحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مُفترشون لجباههم وأكفِّهم ورُكَبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم

= كأني أنظر إليهم فتثاقل عليه السلام ثم قال: يا همام «اتق الله وأحسن» فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] فلم يقنع فخطب عليه السلام هذه الخطبة فلما انتهت صعق همام صعقة كانت نفسه فيها.

مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول لقد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متَّهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زُكِّي أحد منهم خاف مما يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي مني بنفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدىً، وتحرجاً عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجلٍ، يُمسي وهمه الشكر، يبيت حذراً ويُصبح فرحاً، حذِراً لما حذِّر من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سُؤلها فيما تحب، قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبُه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميِّتة شهوته، مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول، والشرُّ منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يُكتب من الغافلين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مُدبراً شرّه، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه، لا يُضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذُكِّر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق، إن صمت لم يغمَّه صمته، وإن ضحك لم يعلُ صوته، وإن بُغي عليه صبر، حتى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في

عناء والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة» (الخطبة ١٩١ / ٣٧٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾:

هنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون خصوص الحُرُم، و﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ دون تقيد بصيد الحرم قد تدل على الحظر عن الصيد كأصل، فأصله محظور والاعتداء فيه أشد حظراً حيث ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

فحين تنال الصيد الأيدي والرماح بسهولة فهنا الابتلاء، فليس لغير المحتاج إليه أن يناله على وفره، وليس للمحتاج أن يناله أكثر من سُؤله[1] كما وليس للحُرُم نيلٌ منه على أية حال، فطالما البلوى بالصيد الوفير لغير الحرم غير خطير، فهي للحُرُم خطير خطير[2].

وطالما صيد اللهو حيث لا يُعنى إلّا إياه حرام على أية حال، فمطلق صيد البر حرام على الحُرُم على أية حال مهما كان لحاجة، وهذه الآية تبيِّن حرمة الصيد كأصل ثم التالية تغلظ حرمته وأنتم حرم.

وهنا مواصفة ﴿ٱلصَّيۡدِ﴾ بـ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ دليل اختصاصه بصيد البر، وكما في آيات عدة.

---

(١) نور الثقلين ١ : ٦٧١ في الكافي علي بن إبراهيم عن ابن أبي عمير عن حماد عن الحلبي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٤] قال: حشر عليهم الصيد في كلّ مكان حتى دنا منهم ليبلوهم الله به.

(٢) المصدر عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: حشرت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمرة الحديبية الوحوش حتى نالتها أيديهم ورماحهم.

ذلك ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ عَلْماً منه علامة عليكم لا عِلماً: معرفة ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ الطليق بذاته، فإنه حاضر بآياته، و﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ عن الناس ولكنه ليس إلّا في صيد بالغيب.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البلاء أن يصيد دون مُبرر أو أن يعتدي في الصيد المحظور ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولا سيما فيما يصيد تلاعباً بحياة الصيد دونما حاجة إليه فإنه ظلم خالص كالس.

وهنا ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ تعم إلى قسم من نوع الصيد وهو البري، قسماً من أي صيد بري كالفروخ والبيض حيث تناله الأيدي على أية حال.

وقد يُلمح ذلك التهديد الشديد ببلوى الصيد أنه كان في السنة محرماً كأصل، وإلّا فلا دور للتهديد عن الصيد ولما يأت النهي عنه، وهكذا تتأيد الروايات الناهية عن صيد اللهو، فقد امتحن الله هذه الأمة بصيد البر ولا سيما وهم حُرُم، كما امتحن بني إسرائيل بصيد البحر ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾:

لقد مضى قول فصل حول ﴿ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ في الآية الأولى من المائدة، ومنه أن ﴿حُرُمٌ﴾ تعني إلى حالة الإحرام الكونَ في الحرم، فيا ويلاه إن كان الصيد في كلتا الحالتين! وهنا محور النهي هو قتل الصيد متعمداً

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

دون الآية الأولى الطليقة في حرمة الصيد بكلِّ المحاولات الإيجابية بحقه، وعلّ الاختصاص هنا لبيان الجزاء الخاص، فليس في غير قتله عمداً ذلك الجزاء قضية النص الخاص لموضوعه وهو القتل المعمد.

وطليق ﴿ٱلصَّيْدَ﴾ هنا حقيق للدلالة على حرمة قتل أي صيد، من محرم اللحم(١) إلى محلَّله، بل وعلَّ المحرم الأكل أشد محظوراً من محلَّله حيث لا يُبرره حل أكله على أية حال، اللَّهم إلَّا ما يصاد لغير الأكل من المنافع المحللة، فما يصاد دون أي نفع فمحظور صيده على أية حال وإن لم تكونوا «حرماً» فإنه إيذاء وظلم دون أي مبرر، تلاعباً لاغياً بحياة حيوان لا يضرك ولا ينفعك.

إذاً فقتل هكذا صيد وأنت محرم في الحرم يحمل ثالوثاً من المحظور بل وزيادة هي اللهو في الصيد فإنه محرم في غير الحاجة الحيوية.

وهل يُضاعف الجزاء في قتل الصيد محرماً في الحرم؟ طليق ﴿فَجَزَآءٌ﴾ الراجع إلى طليق القتل متعمداً، هو كالنص في وحدة الجزاء فالصحاح

(١) كما في صحيح معاوية «إذا أحرمت فاتق قتل الدواب كلها إلّا الأفعى والعقرب والفارة فإنها توهي السقاء وتضرم أهل البيت وأما العقرب فإن نبي الله مد يده إلى حجر فلسعته العقرب فقال: لعنك الله لا تذرين براً ولا فاجراً والحية إذا أرادتك اقتلها وإذا لم تردك فلا تردها والكلب العقور والسبع إذا أراداك فاقتلهما فإن لم يرداك فلا تؤذهما والأسود الغدر فاقتله على كلّ حال وارم الحدأة والغراب رمياً على ظهر بعيرك» (الكافي ١ : ٧٧) وفي صحيح حريز: «كل ما خاف المحرم على نفسه من السباع والحيات وغيرها فليقتله ولو لم يردك فلا ترده» (التهذيب ١ : ٥٥١ والاستبصار ٣: ٢٠٨ والكافي ٤ : ٣٦٣) وصحيح الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تستحلن شيئاً من الصيد وأنت حرام ولا أنت حلال في الحرم ولا تدلن عليه محلاً ولا محرماً فيصطاده ولا تشر إليه فيستحل من أجلك فإن فيه الفداء لمن تعمده (الكافي ٤ : ٣٨١).
أقول: فاستثناء هذه المذكورات دليل حرمة غيرها من الصيد ولا سيما «شيئاً من الصيد» الشامل لكل صيد.

الواردة في المضاعفة[١] غير صحاح إلّا أن تُحمل على الرجحان.

والقول إن الصيد هو المحلَّل فقط لا والمحرم، بحجة أنه لا ضمان في قتل الضاريات، مردود بأنه مخصَّص بدليل، كما الاستدلال بـ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ وَحُرِمَ... ٱلْبَحْرِ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴾ اعتباراً بحلِّ صيد البحر مطلقاً وحيوان البحر يعم المحلل والمحرم! وحلّ صيد البرّ خارج الإحرام كذلك! هو كذلك مردود بأن المحلَّل من الصيد لا يختص بحلِّ الأكل براً وبحراً، وأن صيد البر لهواً محرم في حقل المحلَّلات، والصيد هو كلُّ وحشي غير أهلي لا تصل إليه الأيدي بصيده، وطليق الصيد يشمل المحرم أكله إلى المحلل، ما فيه منافع أخرى أم ليست.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ وتعمُّد القتل حالة الإحرام والحرم المحظور فيهما القتل يلمح بشرط العلم بالإحرام والحرم كالعلم بالحرمة وقصد القتل مع العِلمين، كما و﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ﴾ ثم ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾ تؤيدان شرط العلم بالإحرام والحَرَم إذ لا وبال ولا انتقام في قتل الصيد في غير الإحرام والحرم إلّا لهواً، وهنا المحظور المعاقب عليه هو قتل الصيد وأنتم حُرُم مطلقاً، فما لم تجتمع أعمدة العمد الثلاثة لم يحكم على القاتل بالجزاء.

إذاً فالجاهل بالحرم أو الإحرام، كالجاهل الحرمة إلى غير العامد في القتل، هم شركاء ثلاثة في الخروج عن ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ فالروايات الواردة خلاف ذلك مُأولة أو مطروحة[٢].

---

(١) مثل قول الصادق عليه السلام على المحكي في الحسن الصحيح عن معاوية بن عمار: إن أصبت الصيد وأنت حرام في الحرم فالفداء مضاعف عليك وإن أصبته وأنت حلال في الحرم فقيمة واحدة وإن أنت أصبته وأنت حرام في الحل فإنما عليك فداء واحد (الكافي ٤: ٣٩٥) والموثق عنه عليه السلام وإن أصبته وأنت حرام في الحرم فعليك الفداء مضاعفاً (التهذيب ١: ٥٥٣).

(٢) وفي نور الثقلين ١: ٦٧٣ في مجمع البيان: فأما إذا قتل الصيد خطأ أو ناسياً فهو كالمتعمد =

ثم ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ تعني مُماثلة الجزاء من النِّعم لما قتل من الصيد، فإن كان في النِّعم ما يُماثل المقتول فليقتل كفارة عما قتل، وإن لم يكن مُماثل إلَّا أقل منه أو أكثر جسماً وقيمة فليقتل الأقل ويدفع بقية الثمن لأهله، وليدفع قيمة الصيد المقتول في الأكثر، فالمماثلة هي المفروضة عيناً وقيمة، وإلَّا فقيمة.

ففي حمار الوحش أو بقرة حمار أهلي أو بقر، وفي الظبي شاة[1] وهكذا، ولأن المماثلة العادلة بحاجة إلى خبروية عادلة، إذاً فلـ ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ بالمماثلة.

ذلك، وليكن المماثل ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ مما يدل على وجوب المماثلة العينية، فلا تكفي القيمة ما أمكنت تلك المماثلة، و﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ تعني

= في وجوب الجزاء عليه وهو مذهب عامة أهل التفسير وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام، وفيه ٦٧٨ في تهذيب الأحكام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أصاب المحرم الصيد خطأ فعليه الكفارة فإن أصابه ثانية خطأ فعليه الكفارة أبداً إذا كان خطأ فإن أصابه متعمداً كان عليه الكفارة فإن أصابه ثانية متعمداً فهو ممن ينتقم الله ولم يكن عليه الكفارة.

(١) في صحيح حريز عن الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ [المائدة: ٩٥] في النعامة بدنة وفي حمار الوحش بقرة وفي الظبي شاة وفي البقرة بقرة (التهذيب ١: ٥٤٤) وفي صحيح زرارة وابن مسلم في محرم قتل نعامة عليه بدنة فإن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً وإن كانت قيمة البدنة أقل من إطعام ستين مسكيناً لم يكن عليه إلّا قيمة البدنة، وفي صحيح أبي عبيدة الحذاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أصاب المحرم الصيد ولم يجد ما يكفر من موضعه الذي أصاب فيه الصيد قوم جزاءه من النعم دراهم ثم قومت الدراهم طعاماً لكلّ مسكين نصف صاع فإن لم يقدر على الطعام صام لكلّ نصف صاع يوماً (الكافي ٤: ٣٨٧ والتهذيب ١: ٤٠٣). أقول: نصف الصاع محمول على الرجحان لما قدمناه من لمحة الآية، وصحيح ابن عمار عن الصادق عليه السلام من أصاب شيئاً فداءه بدنة من الإبل فإن لم يجد ما به يشتري بدنة فأراد أن يتصدق فعليه أن يطعم ستين مسكيناً لكلّ مسكين مد فإن لم يقدر على ذلك صام مكان ذلك ثمانية عشر يوماً مكان كلّ عشرة مساكين ثلاثة أيام» (التهذيب ١: ٥٤٥).

البلوغ المناسب للكعبة وهو قربها خارجها وخارج المسجد الحرام، وكما في ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(١) حيث يعني الحرم.

﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ وهي طبعاً فيما لا يسطع على المماثل عيناً أو قيمة، وطليق ﴿مَسَاكِينَ﴾ يُطلق واجب الإطعام في طليق الجمع، وهو بطبيعة الحال قدر المستطاع.

ثم ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ حين لا يسطع على ذلك الطعام، وأقل العدل في عَدل ذلك عِدل ثلاثة مساكين وهو ثلاثة أمداد، كما وهي كفارة ثلاثة أيام من الصيام في أقلها، لطليق ﴿كَفَّارَةٌ﴾ الشامل لأقلها دون أكثرها وأوسطها.

ذلك و﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ حيث جاء بالمحظور المحظور، صيد بقتله وهو من الحُرُم.

وهنا ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ يختص بمن أدى الكفارة الواجبة، فـ ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ تُلمح أن ليست في العدد كفارة، لأنه عصيان كبير كبير لا تمحيه وتكفّره أية كفارة إلّا النقمة الربانية بعد الموت(٢) ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، ولأن الكفارة توبة عملية حيث تكفِّر الخطيئة، والعائد هنا مهدد بالانتقام دون أية كفارة، فذلك دليل على أنه ليس في العود المعمد كفارة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

هنا «صيد البحر - و - صيد البر» تعنيان المصدر والصادر من البحر:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٢) نور الثقلين ١ : ٦٧٨ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في محرم أصاب صيداً؟ قال: عليه الكفارة قلت: فإن أصاب آخر؟ قال: إذا أصاب آخر فليس عليه كفارة وهو ممن قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥].

عمل الصيد ونفس الصيد، مهما كان حلّ الأكل أم سائر الحل، ثم ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ تختص بحل طعمه، سواء أكان طعام الصيد وهو الحِلُّ أكله منه، أم طعام البحر دون صيد وهو ما يلقيه البحر بأمواجه دون صيد[1] مما يدل على عدم اختصاص الحل في طعام البحر بصيده، خرج الميت في الماء صيداً وغير صيد، كما خرج غير السماك والروبيان بقاطع السنة اللَّهم إلَّا ما ليس له فَلس.

إذاً فصيد البحر طليق في حِلِّه، في حِلِّه وإحرامه، في حاجته ولهوه، اللَّهم إلَّا ما لا يُستفاد منه إطلاقاً فغير حلّ لمكان ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾، وللإيذاء والتبذير، وإلَّا ما خرج بقاطع السنة من أكل غير السمك الأملس غير المفلس والروبيان.

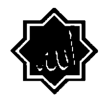
وتحريم صيد البر ما دمتم حُرُماً تحريم عميم وأنتم حُرُم، وِجاه الحل المشروط وأنتم غير حُرُم، وهو شرط الحاجة متاعاً وعدم اللهو في صيده، ثم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ تعني عامة التقوى في سائر الحقول إلى خاصة التقوى في حقل الصيد براً وبحراً، فما دل دليل من قاطع الكتاب والسنة على حِلِّه كان حِلاً، أم على حرمته كان حراماً، وفي العوان بينهما عوانٌ حكمه الحل للضوابط الفوقية العامة في حلِّ كلِّ شيءٍ إلَّا ما أخرجه الدليل كـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾[2]، وهنا ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾ كما تحرّم صيد البرّ على الحرم كذلك تلمح بحله لغير الحرم، فقد يجوز أكل صيد البرّ من الحرم لغير الحرم، لاختصاص حرمته بالحرم.

---

(١) الدر المنثور ٢: ٣٣١ - أخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم، قال ما لفظه ميتاً فهو طعامه، أقول: يعني لفظه دون صيد ومات خارجه.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

ولأن إحلال صيد البحر وطعامه طليق ففيما يشك كونه من المحرم المستثنى نرجع إلى ذلك الإطلاق فحِلٌّ كالسماك التي نشك أنها من ذوات الفلوس لكون حاضرها ملساء فيما احتمال كونها ذوات فلوس وارداً أنها ذهبت عبر المنازعات، وأما التي لا أثر عن الفلس فيها ولا تحت آذانها فهي شاردة عن ذلك الاحتمال اللّهم إلّا إذا كانت من الصنف الذي لا فلس تحت آذانها وهي قليلة الفلوس في مظاهرها وخفيفتها لحدٍّ تذهب عبر الاصطكاكات البحرية وسباقاتها بين الرفاق أو المتنازعات.



۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ
وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ
﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ
تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن
قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا
سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ
وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى
ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن
ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ
﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ
ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ
بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ

إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾:

هنا في ﴿ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ بما ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ قيامٌ للناس تحمل قيامات فيها قوامات للناس في مناسك الحج والعمرة التي هي إشارات إلى كلٍّ هذه القيامات.

فلقد «جعلها الله لدينهم ومعاشهم»(١) فهي قيام لهم وقوام لدينهم ومعاشهم حيث تتلاقى عندها مختلف جماهير المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، فليجعلوا أمرهم في الدين والدنيا شورى بينهم حتى يحصلوا على حصالة من صالحة الآراء والتصميمات لصالح دينهم ودنياهم، إصلاحاً لسلطتهم الزمنية والروحية، وتوحيداً لهما في الشورى الصالحة بين الرعيل الأعلى من الربانيين.

فالحج مؤتمر ومنتَدب لا تنوب عنه أية عبادة أخرى أو صدقة(٢)، إذا

(١) نور الثقلين ١ : ٦٨٠ عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس قال: . . .

(٢) المصدر ٦٨٠ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال قلت لأبي=

كان حجاً فيه قيام للناس، دون مجرد مناسك لا يعرفون معناها ومغزاها، فـ «من أتى هذا البيت يُريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه»[1].

وهنا ﴿جَعَلَ﴾ جعل تشريعي لذلك القيام للناس وجاه النسناس، فكما للنسناس مؤتمرات يوحي فيها بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ويدرسون فيها شيطنات على الناس يحققونها فيهم في كافة الأبعاد الحيوية الإنسانية والاسلامية.

كذلك على الناس القائمين بشرعة الحق الهائمين في الإيمان بالحق أن يُحقّقوا كفاحاً صارماً ضدَّ النسناس الخناس، فَضْحاً لخُططهم الساحقة الماحقة للحق وأهله، وخير مؤتمر لذلك القيام والإقدام هو مؤتمر الحج السنوي بعد مؤتمر الجمعة الأسبوعي، ومؤتمرات صلوات الجماعة.

و﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾ هي المربعة المرتفعة من كلِّ شيء، ثم أصبحت عَلماً للكعبة المباركة، الموصوفة هنا بـ ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ وهي بيت الله الحرام، حرمة الاحترام دون أي اخترام، ومن حرمتها حرمة الصيد ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[2] أمناً لكلِّ ذي حيات بل والنبات اللّهم إلّا الخطر فمقابلة بالمثل.

ذلك، وكلُّ محرمات الحرم إلى محرمات الإحرام هي من حرمة الكعبة البيت الحرام ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ لخلق أجواء الأمن.

وهنا محور ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ هو الكعبة المباركة ويلحقها زماناً ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ وهو الأشهر الحرم الخمسة جمعاً بين ثلاثة الحج وأربعة القتال بترك المتكرر بينهما، وهذه الخمسة هي: «محرم - رجب - شوال - ذو القعدة -

---

= عبد الله عليه السلام: إن ناساً من هؤلاء القصاص يقولون: إذا حج رجل حجة ثم تصدق ووصل كان خيراً له؟ فقال: كذبوا لو فعل هذا الناس لتعطّل هذا البيت أن الله عزّ وجلّ جعل هذا البيت قياماً للناس.

(١) نور الثقلين ١: ٦٨٠ عن مجمع البيان هو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١.

ذو الحجة» كما فصّلناه في بداية المائدة، ومن ثم في مناسك الحج: ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾.

في كلِّ هذه الأربعة يكمن ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ ففي الهَدْي والقلائد قيام للناس المطعمين في سماحة الإنفاق وفي رمز الفداء، وللناس المطعَمين في شبعهم من اللحم وعلى حدِّ قول الرسول ﷺ: «إنما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينهم من اللحم فأطعموهم منها».

وأما إذا تهدرت هذه اللحوم حَرقاً أو دفناً فهنالك الطامة الكبرى، قياماً للنسناس الضاحكين علينا أغنياء وفقراء، وقعوداً لنا عن تطبيق حُكْم الله أغنياء وفقراء[1].

في كلِّ هذه قيام للناس في الحفاظ على أنفسهم وسماحتها وشجاعتها وخُلُقها الطيبة، تمرُّناً على صالح الأقوال والأعمال وأمن الحياة وطَمْأَنتها.

ولقد ألقى الله في قلوب العرب منذ جاهليتهم فضلاً عن إسلامهم حرمة هذه الأشهر فكانوا لا يروِّعون فيها نفساً ولا يطلبون فيها دماً ولا يتوقعون فيها ثأراً حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه، فكانت مجالاً فاسحاً آمناً لكلِّ الناس، ولا سيما العائشين الحرم المبارك المكي.

فكما الحرم منطقة أمن من حيث المكان، كذلك الشهر الحرام منطقة أمن من حيث الزمان، ولا سيما حين يتلاقيان فيتلافيان كلّ ما يسبب اللّاأمن، وجعل الهدي والقلائد أمنةً من كلِّ أذىً للمهدين والمقلدين، وكل هذه من خلفيات الحرمة البالغة المدى لـ﴿الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ حيث جعلت بشعائرها الزمانية والمكانية والعملية ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ فيما يتوجب

---

(١) لمعرفة واسعة حول واجب الأضاحي راجع الفرقان ١٧: ١٠٤ - ١١٩ ورسالتنا الفارسية (أسرار مناسك - أدلة الحج).

عليهم أو يرجح لهم فيه قيام للناس وجاه النسناس، فالكعبة البيت الحرام هي منطقة أمان في المكان والزمان لا للإنسان فحسب بل وللنبات والحيوان أيضاً نفسياً وفي ضمير الإنسان، منطقة أمان في مصطرع الحياة الثائر الفائر الطاغي بشُواظه الشذاذ وبدخانه على المكان والزمان، حتى ليتحرج الحُرُم أن يمدوا أيديهم إلى أي ذي حياة اللّهم إلّا ما يُزهق الحياة أو يُحرجها.

ذلك، وقد نستشعر من كلٍّ مناسك الحج قيامات فردية وجماعية إسلامية، لو أن حجاج البيت استشعروها وطبّقوها لأصبحوا بسائر الملتحقين بهم قضية الخلفية الصالحة لهذه الاستشعارات والقيامات، لأصبحوا أصحاب طاقات في كافة الحيويات الإسلامية، علمية - عقيدية - خُلُقية - سياسية - اقتصادية وحربية أماهيه من قيامات فيها قوامات لدولة موحدة إسلامية سامية تستقل أمام سائر القدرات التي امتلكت الأرض بمن عليها.

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولعلمه المحيط بكلِّ شيءٍ يريد ليجعلكم تحيطون على مختلف الطاقات نتيجةَ ذلك المؤتمر، فليعلموا أنه تعالى يعلم طبائع الإنسان بسُؤله أياً كان فيقرر شرعته تلبية لكلِّ سُؤلٍ له صالح وزيادة لا يعلمها إلّا الله.

وقد تلمح ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ هنا أن الحج يضمن في مشاعره كلَّ جنبات شرعة الله فقد قال الله فيه بصورة مجملة وإشارات عملية كلّ ما أراد أن يقوله لكافة المكلفين إلى يوم الدين.

ذلك، فقد «فرض عليكم حج بيته الحرام الذي جعله قِبْلةً للأنام، يردونه ورود الأنعام، ويألهون إليه وُلوه الحِمام، وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزته، واختار من خلقه سُمَّاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا المطيفين بعرشه،

يُحرزون الأرباح في مَتْجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام عَلَماً، وللعائدين حرماً، فرض حقه، وأوجب حجَّه، وكتب عليكم وفادته فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(١).

«ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حَجَراً، وأقل نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشِلة، وقوى منقطعة، لا يزكو بها خفٌّ ولا حافرٌ ولا ظلف، ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا عطافهم نحوه فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملتقى رحالهم، تهوي إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفارٍ سحيقةٍ، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذُللاً يهلِّلون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شُعثاً غُبراً له، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوَّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته» (١٩٠ / ٢ / ٣٦٤).

انتباهة ضافية:

وهنا توافقات بين مختلف الزمن سنة وشهراً وأياماً، فـ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾(٢) توافق تكرار عديد الشهر في كتاب الله اثنتي عشرة مرة، ثم لفظ اليوم بمختلف صيغه تكرر (٣٦٥) مرة

(١) (الخطبة ١ / ٣٥).
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

عديداً أيام السنة، ثم نجد لفظ اليوم جمعاً (٢٣) مرة ومثنًّى (٣) مرات وبلفظ «أياماً» (٤) مرات والمجموع (٣٠) عدد أيام الشهر في الأكثر.

فهل إن هذا تناسق لاغ أم هو قاصد كما في سائر التناسقات القرآنية التي لم يكشف العلم عنها النقاب حتى الآن؟!.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾:

هذا تحذير عن كلٍّ تهذير وتهدير بجنب الله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ كما هو بشارة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فهو «أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة» ومن العقاب الشديد ما هو على «من أذنب ذنباً صغيراً أو كبيراً وهو لا يعلم أن لي أن أُعَذِّبه أو أعفو عنه لما غفرت له ذلك الذنب أبداً، ومن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً وهو يعلم أن لي أن أُعَذِّبَه أو أن أعفو عنه عفوت عنه»[1].

ذلك، ومن بعده تعقيبة التحذير للعصاة الذين لا يتوبون إلى الله ولا يثوبون:

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾:

أجل ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾[2] وليس الرسول ليبلغ إلَّا ما عليه رسالة، دون أي بلاغ آخر أم حساب ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ فهو يحاسبكم بما يعلم من سرٍّ وعلانية.

﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠﴾:

---

(١) نور الثقلين ١ : ٦٨١ في كتاب التوحيد بسند متصل عن معاذ الجوهري عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله عن جبرائيل قال: قال الله جلّ جلاله: من أذنب...

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين تعجبهم كثرة الخبيث ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ فلا تعجب الكثرة إلَّا الخاوي عن العقلية الإيمانية وأنت لك عقلية الوحي، فـ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ خطاب من الرسول بوحي الله لهؤلاء المعجَبين بكثرة الخبيث وليس خطاباً إياه، وحتى لو شمله فيما شمل، فـ «لو» هنا تُحيل له الإعجاب من كثرة الخبيث، فهي بحقه إحالة واقعية وبحق الآخرين إحالة تكليفية تعني أن قضية الإيمان هي ترك ذلك الإعجاب العجاب اللّهم إلّا ممن هو ضعيف الإيمان، لذلك: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ عن محاظيره، فلا تستوحشن في طريق الهدى لقلة أهله، حيث اللب الإيماني هو قيد الفتك وإن عارضك العالمون ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ حيث تُفلجون كافة العراقيل التي تحول بينكم وبين قضاء الإيمان الصادق المتين.

ذلك و﴿ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ تعمّان القال والحال والأعمال، وما تقدم الخبيث هنا في الذكر إلَّا لتقدمه في المظاهر الجلابة الغلابة فـ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾(١).

ذلك، والأكثرية هي دوماً مُفنَّدة مُزيفة اللَّهم إلَّا بين الصالحين، فلا اعتبار بطليق الأكثرية، إلَّا ما هي بين القلّة المؤمنة الصالحة أحياناً، ولكن القلّة بين الكثرة منهم أيضاً هي الأصلح كضابطة.

وهنا عدم استواء الخبيث والطيب أمر فطري عقلي حسي شرعي وفي كلِّ الحقول، اللَّهم إلَّا من يرى الخبيث طيباً والطيب خبيثاً فيرجِّح الخبيث رغم طيبه على الطيِّب زعم خبثه بلبسه بينهما قاصراً أو مقصراً.

وعدم الاستواء هذا في مثلث القال والحال والأعمال قد يحوله إلى الاستواء أم رجاحة الخبيث على الطيب كثرة في عَدَد وعُدَد بالمظاهر

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

المختلَقة التي تجلب العيون والأهواء، ولكن العقلية الإنسانية فضلاً عن الإيمانية تناحر خرافة الاستواء أو الأفضلية المعكوسة حين تتحكم على مختلف الموازين والمقاييس، وأما حين تتحكم الأهواء الماردة والعقول المعقولة بطوعها، الشاردة، فهنالك الويل كلّ الويل، حيث تختل الموازين حين يحتل الخبثاء الأمكنة والمكانات والكراسي والزعامات.

ذلك، فـ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[1].

وحين يختلط الخبيث والطيب على المجاهيل قصوراً أو تقصيراً فالله هو الذي يميِّز بينهما: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2] فمآل الخبيث الفضيحةُ مهما طال وكثُر، كما أن مآل الطيب كحاله النصوع فقد ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ۖ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

هذه الآية تقتسم السؤال عن أشياء إلى محظورٍ ومحبورٍ اعتباراً بالعاقبة

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦، ١٩٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.
(٣) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤-٢٧.

المحظورة والمحبورة، فالسؤال هو كسائر الموضوعات التكليفية بحاجة إلى سماح لولاه فليس محبوراً سواء أكان محظوراً أم سواه.

فالسؤال عما لا يتوجب على السائل علمه ولا يرجح غير محبور، فإن نفس السؤال محظور على أية حال إلّا فيما يرجح علمه على جهله، وهنا محور الحظْر ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ فكما الإساءة إلى النفس دون مبرر هو أرجح منها محظورٌ، كذلك السؤال عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

ذلك، ومن السؤال في غير موقفه ما يشدِّد التَّكليف كما تساءل بنو إسرائيل حول البقرة[١] كما منه ما يسيء في نفسه حين يبدو كأن يُسأل المعصوم عن بعض النسل، أو يتهدر في السؤال ويهذي ويتمسخر، فقد «خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمرٌّ وجهه حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال: أين آبائي؟ قال: في النار، فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة»[٢] وهو غير من يدعى إليه!.

---

(١) الدر المنثور ٢: ٣٣٥ - أخرج ابن حبان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خطب فقال: أيها الناس إن الله تعالى قد افترض عليكم الحج فقام رجل فقال: لكلّ عام يا رسول الله ﷺ؟ فسكت عنه حتى أعادها ثلاث مرات قال: لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما قمتم بها ذروني ما تركتم فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم.

وفيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أذن في الناس فقال: يا قوم كتب عليكم الحج فقام رجل من بني أسد فقال: يا رسول الله ﷺ في كلّ عام؟ فغضب غضباً شديداً فقال: والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم وإذن لكفرتم فاتركوني ما تركتكم وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا فأنزل الله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت النصارى من المائدة فأصبحوا بها كافرين فنهى الله عن ذلك وقال: لا تسألوا، أي إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ولكن انتظروا فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلّا وجدتم تبيانه» وفيه عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته».

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٣٥ - أخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال: خرج =

ذلك، وقد يعني السؤال الاستجهال، كأن الله لم يعرف السؤال فما بين حكماً يتساءل عنه، و«إن الله حدَّ حدوداً فلا تعتدوها وفرض فرائض فلا تُضيّعوها وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة منه لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها»(١).

وأما سؤال الاستعلام فيما يرجح فرضاً وسواه فهو فرض أو سواه وكما يقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢) ويقول رسول الله ﷺ: «خذوا العلم قبل رفعه وقبضه»...(٣).

= رسول الله ﷺ.. فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً وبالقرآن إماماً إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك والله أعلم من آبائنا فسكن غضبه ونزلت هذه الآية.

أقول: وذلك من جراء كثرة الأسئلة المحرجة لخاطره الخطير، غير المعنية في ما يحتاجون إليه، وكما في المصدر ٣٣٤ عن أنس في الآية أن الناس سألوا نبي الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فخرج ذات يوم حتى صعد المنبر فقال: لا تسألوني اليوم عن شيء إلّا أنبأتكم به فلما سمع ذلك القوم ارموا وظنوا أن ذلك بين يدي أمر قد حضر فجعلت ألتفت عن يميني وشمالي فإذا رجل لاف ثوبه برأسه يبكي فقال: يا رسول الله ﷺ من أبي؟ فقال: أبوك حذافة وكان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه.. فقال النبي ﷺ: ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط أن الجنة والنار مثلتا لي حتى رأيتهما دون الحائط، وفيه عن ابن عباس قال: كان ناس يسألون رسول الله ﷺ استهزاء فيقول الرجل: من أبي ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وفي نور الثقلين ١: ٦٨٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بسند متصل عن إسحاق بن يعقوب قال سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت علي فورد في التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان: وأما ما وقع من الغيبة أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ...﴾ [المائدة: ١٠١] أنه لم يكن أحد من آبائي إلّا وقد وقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه وأني أخرج حين أخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي.

(١) الدر المنثور ٢: ٣٣٦ - أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن أبي ثعلبة الخشني قال قال رسول الله ﷺ:

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٣) وفيه أخرج أحمد وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ وقف=

ذلك ﴿وَإِن تَسْئَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ فإن نازل القرآن إجابة عن كلِّ سؤال وكلّ سؤال صالح للإجابة، وأما أن تحرِّجوا موقف الرسول ﷺ في غير حين نزول القرآن فلا، فإنه لا يجيب إلّا بالوحي، وحين جاء الوحي كتاباً أو سنة بأمر فلا سؤال بعدئذ، حيث يعني أن بيان الله غير شافٍ أم أنه نقص عما يجب للمكلفين، وأما السؤال عن حُكم لمّا ينزل في الكتاب أو السنة أم هو مجهول لدى السائل مهما نزل فلا محظور فيه، فإنما السؤال عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم أحكاماً أو موضوعات، هذا هو المحظور وما سواه محبور.

فقد تعني الآية ما عنته «اسكتوا عما سكت الله عنه» فإن الله لم يسكت عما سكت عنه جهلاً أو بخلاً، وهذا يختص بما بيِّن بوجه طليق أو عام دون تقيّد، أم أمر لم يبيِّن مع ما بيِّن من أضرابه.

ومرجع الضمير في ﴿عَنْهَا﴾ هو ﴿أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾؟ وأي فرق في السؤال المسيء حين ينزل القرآن وحين لا ينزل؟!.

= في حجة الوداع وهو مردف الفضل بن عباس على جمل أدم فقال: أيها الناس خذوا العلم قبل رفعه وقبضه، قال: وكنا نهاب مسألته بعد تنزيل الله الآية: ﴿لَا تَسْئَلُواْ...﴾ [المَائدة: ١٠١] فقدمنا إليه أعرابياً فرشوناه برداء على مسألته فاعتم بها حتى رأيت حاشية البرد على حاجبه الأيمن وقلنا له: سل رسول الله ﷺ كيف يرفع العلم وهذا القرآن بين أظهرنا وقد تعلمناه وعلمناه نساءنا وذرارينا وخدامنا فرفع رسول الله ﷺ رأسه قد علا وجهه حمرة من الغضب فقال: أوليست اليهود والنصارى بين أظهرها المصاحف وقد أصبحوا ما يتعلقون منها بحرف مما جاء به أنبياؤهم ألا وإن ذهاب العلم أن تذهب حملته.

وفي نور الثقلين ١: ٦٨٣ في أصول الكافي عن أبي الجارود قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إذا حدثكم بشيء فاسألوني من كتاب الله قال في بعض حديثه أن رسول الله ﷺ نهى عن القيل القال وفساد المال وكثرة السؤال فقيل له: يا بن رسول الله ﷺ أين هذا من كتاب الله؟ قال: إن الله عز وجل يقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النِّساء: ١١٤] وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النِّساء: ٥] وقال: ﴿لَا تَسْئَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

من الفارق أن الإجابة حين ينزل القرآن هي حسب الحكمة الربانية دون الخارجة عنها، فقد يأتي الجواب عن سؤال الأهلّة ﴿قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾[1] حيث الجواب يختص بما يحتاجون في دينهم، دون ما لا يُعنى فيه من مختلف الأهلة من الواجهة الكونية، وأما حين لا ينزل القرآن فسؤال الرسول مُحرِج وسؤال غيره مخرج عن صالح الإجابة لمكان عدم العصمة أم نفاد الحكمة الصالحة.

فلأن القرآن هو إجابة عن كلِّ سُؤل وسؤال صالح للإجابة فلا يبدي ما يسوءكم من الجواب، ولكن سائر الإجابة كسائر السؤال لا يختص بما هو صالح في حقل التكليف، كـ «من أبي» و«كم أعيش» وما أشبه مما لا يُعنى، كالسؤال حول حُكْمٍ عام أو مطلق يعنى منه تقيّد أو تخصص كما كان في قصة البقرة لبني إسرائيل، فإن المطلق والعام وما أشبه في مقام البيان نصاً أو ظاهراً ليس قاصراً عما يُرام، إذاً فسؤال القيد تجاهل عن صالح البيان، كأن الله لم يرد ما يصلح أو لم يبين ما أراد، كما حصل من الخليفة عمر في قصة الخمر!.

إذاً فكلُّ سؤال عن أي مسؤول فيما لا يُعنى من صالح الدين أو الدنيا محظور، وكلُّ سؤال فيما يُعنى من صالح الدارين محبور، ونازل القرآن يعم صالح النشأتين، فلذلك ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

وهنا ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ هو عفوٌ عن السؤال المحظور والإجابة المحظورة المسيئة في وحي القرآن بالنسبة لهذه الأمة المرحومة، وعفوٌ عن مادة السؤال التي هي في إجمال، مثلث من العفو شمله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ وهي في الأخير مواصفة ثانية لـ﴿أَشْيَآءَ﴾ أولاها ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

ولو تقدمت ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ على ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾ لم تشمل الأولين، إذاً فتأخيرها تأخير قاصد إلى هذه العنايات الثلاث.

فقد عفى الله عن أشياء لم يُبيّنها فلا تسألوا عنها، وعفى الله عن ذلك السؤال المحظور فلا تُكرروه، وعفى الله عن إبدائها بعد السؤال فلا تُحفوا.

ذلك، ومن ثم تذكير بسابق هكذا سؤال بجوابه العضال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ كالسائلين حول البقرة في قصتها الإسرائيلية فقد كفروا بكرور سؤالهم في مثل ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ...﴾[1] والسائلين ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] أو ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3] وكسؤال قوم موسى ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[4] و﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَمَّا... كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[5] وما أشبه من السؤالات الكادحة القادحة غير المعنية لعاقل فضلاً عن مؤمن، فإنما سؤال المؤمن هو عن سُؤل الإيمان، مزيداً للمعرفة دون استجهال أو استعجال.

ذلك! فلقد جاء هذا القرآن لا ليقرر عقيدة فحسب، أو شريعة فحسب، بل ليربِّي أمة صالحة في كافة الحقول، إنشاءً لهم على منهج عقلي وخُلُقي، فهنا يعلِّمهم أدب السؤال، فطالما هناك في وحي الكتاب والسنة أمور مجملة أو مُجهَلة فهي قاصدة بالوحي نفس الإجمال والإجهال، وقد يُروى عن النبي ﷺ قوله بهذا الصدد: «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم».

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

فإنما المعرفة في الإسلام تطلُّبٌ لمواجهة حاجة واقعة أو مدققة وفي حدود الواقع المُرام، دون التكهنات غير المعنية في سُؤل الحياة الإنسانية المسلمة.

أجل، إن الإسلام منهج واقعي جادٌّ يُعيِّش الإنسان بكلٍّ متطلبات الحياة الحقة الواقعية، بعيدة عن طائلة الفروض فقهية أو فلسفية أماهيه مما لا تعني الحياة الإسلامية الواقعية وكما لا تعنيها، من دراسات مجردة بفقه الفروع أم فلسفة العقول، لا مجال لها إلَّا في المدارس تلهية للطالب وتضخيماً لحجم العلوم، وهناك علوم لا تُدرّس أم تُهمل هي التي تتبنى الحياة الإسلامية وهي العلوم القرآنية اليتيمة بين أهل القرآن!.

فلم يأت هذا الدين المتين ليكون مجرد شارة أو شعار، أو ليكون موضوع دراسة مجردة لا علاقة لها بالحياة، ولا ليعيش مع الفروض التي لم تفرض إذ لم تقع، أو يضع لهذه الفروض الطائرة أحكاماً فقهية تطير عبر الأثير.

ذلك، والآية التالية تذكر مواضيع من هكذا أَسؤلة لا تُعنى، المستجرّة لمتعودات جاهلية جهلاء:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾:

ومن هذا القبيل جاهلية التبنّي الفارغ والتحول المارق لزوجة أمّا: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾[1].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

وهنا هذه الأربع مواصفات لأنعام أربعة، اختلقوا في الجاهلية حدوداً بهذه المواصفات لحِلّها أو حُرمتها، وقد سألوا عنها فأجيبوا بـ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ. . .﴾ تعني جعلاً شرعياً حيث هي مجعولة تكوينياً.

و﴿بَحِيرَةٍ﴾ من البحر: السعة، وهي هنا الناقة التي ولدت عشرة أبطن فكانوا - إذاً - يشقون أذنها فيسيبونها فلا تُركب ولا يُحمل عليها، فكما كانت بحراً في ولادها، كذلك فلتكن بحراً في حريتها.

و﴿سَآئِبَةٍ﴾ هي التي تسيَّب في المرعى فلا تُرد عن حوض ولا علف إذا ولدت خمسة أبطن أم عشرة[1].

و﴿وَصِيلَةٍ﴾ هي الشاة الأنثى الوصيلة بأخيها فلا يذبح من أجلها لأنهما توأمان، أم طليق التوأم فلا تذبح من أجلهما[2].

و﴿حَامٍ﴾ من الإبل إذا أدرك له عشرة من صلبه كلّها تضرب حمى ظهره

---

(١) نور الثقلين ١ : ٦٨٣ في معاني الأخبار عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: إن أهل الجاهلية كانوا إذا ولدت الناقة ولدين في بطن قالوا وصلت فلا يستحلون ذبحها ولا أكلها وإذا ولدت عشراً جعلوها سائبة ولا يستحلون ظهرها ولا أكلها والحام فحل الإبل لم يكونوا يستحلونه فأنزل الله أنه لم يكن يحرم شيئاً من ذاك، وقد روي أن البحيرة الناقة إذا أنجبت خمسة أبطن فإن كان الخامس ذكراً نحروه فأكله الرجال والنساء وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها أي شقوها وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها فإذا ماتت حلت للنساء، والسائبة البعير يسيب بنذر يكون على الرجل إن سلمه الله عزّ وجلّ من مرض أو بلّغه منزله أن يفعل ذلك، والوصيلة من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن فإن كان السابع ذكراً ذبح وأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثى تُركت في الغنم وإن كان ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم تذبح وكانت لحومها حراماً على النساء إلّا أن يكون يموت منها شيء فيحل أكلها للرجال والنساء والحام الفحل إذا ركب ولد ولده قالوا قد حمى ظهره وقد يُروى أن الحام هو من الإبل إذا نتج عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلاء ولا ماء، وفي تفسير العياشي قال أبو عبد الله عليه السلام: البحيرة إذا بحرت وولد ولدها نحرت.

(٢) المصدر السابق.

فسُمي حاماً فلا يُنتفع له بوبر ولا يُنحر ولا يُركب له ظهر، فإذا مات كانوا فيه سواء، أم هو فحل الإبل ككُلّ"(١).

ذلك، ومهما اختُلِف في تفسير هذه الأربع لم يُختلف في أن أي اختلاق لِحلٍّ أو حرمة في الأنعام أم سواها، مما لم يجعل الله، إنه هَذِر هَدِر لا موقع له من القبول(٢).

والقول إن تحرير الأنعام من الذبح أو النحر ليس إلّا كتحرير الإماء والعبيد فكيف جاز هنا دونما هناك؟ إنه غَول وزور من القول، قياساً أمام النص، فالله يقول: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ وأنت تقول أنا أجعل قياساً على سائر التحرير.

ذلك، وكلّ تقييد أو تحرير في أي قال أو حال أو فعال، إنما تُقبل بدليل من كتاب أو سنّة حيث الشارع - فقط - هو الله دون سواه، مهما كان رسولاً فضلاً عن سواه!.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٣٧ - أخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ في خلقان من الثياب فقال لي: هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كلّ المال، من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: فإذا آتاك الله مالاً فليُر عليك ثم قال: تنتج إبلك رافعة آذانها؟ قلت: نعم وهل تنتج الإبل إلّا كذلك؟ قال: فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول: هذه بحر وتشق آذان طائفة منها وتقول هذه الصرم؟ قلت: نعم، قال: فلا تفعل إن كلّ ما آتاك الله لك حلّ ثم قال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، قال أبو الأحوص: أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها فإذا ماتت اشتركوا فيها، وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن وتلد السابع جدياً وعناقاً فيقولون قد وصلت فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض وإذا ماتت كانوا فيها سواء، والحام من الإبل إذا أدرك له عشرة من صلبه كلها تضرب حمى ظهره فسمي الحام فلا ينتفع له بوبر ولا ينحر ولا يركب له ظهر فإذا مات كانوا فيه سواء.

ومهما اختلفت الروايات في معاني هذه الأربع، وأن تحريرها كان لنذر أو أمر سواه أم للأصنام، فالأصل المعلوم هنا حرمة كلّ تحرير وسواه ما لم يأذن به الله.

هذا، وليست الجاهلية لفترة غابرة من الزمان، بل وقد نلمسها الآن بمختلف صورها كأبشع ما كان، فهي حالة متكررة في كلِّ زمان ومكان لم تتمكن فيهما شرعة الله كأصل يحلّق على كافة الحركات والسكنات من أقوال وأحوال وأعمال.

وقد نجد جاهليات بين المسلمين تُشبه سائر الجاهليات مهما اختلفت الأسماء، حيث الأسماء الخاوية ليست لتقرر الحقائق كما الحقائق لا تتبدل بتبدل الأسماء.

فحينما ينفك رباط القلب بالإله الواحد على ضوء شرعته، ينفك عنه كثيراً أو يسيراً، نجد فكاكاً عارماً عن الحقائق بنفس القدر.

أفليس المسلم الذي يُحرِّر حيواناً للأولياء والقديسين، أو ينذر لهم عملاً، أليس يُماثل الوثني الذي يُحرّر أو ينذر لوثنه؟ ولا نذر أو تحرير إلّا لله فيما أذن به الله!.

وهكذا يتيه الجاهل في منحنيات ودروب لا عداد لها مهما كان موحداً لله في مبدئه.

أجل ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ... وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وبوحي الله ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ومهما كان قليل منهم يعقلون فيفترون عن عقلية شيطانية تزييفاً لشرعة الله وهم حَمَلة مشاعل الضلالة، ولكن ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ حيث يفترون ما يفترون تقليدياً دون أية عقلية أو علم، ومن عدم عقلهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

ذلك التقليد الأحمق الأعمى في تلك الأكثرية غير العاقلة شرعة جاهلة قاحلة لهم يتبعون فيها هم وآباءهم شيطنات الأقلية المضلّلة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أولاء الشارعين ما لم يأذن به الله ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في كتابه ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ الحاكم بين الناس بما أراه الله وهو سنته النازلة بوحي ثانٍ بعد القرآن ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ لأنهم آباؤنا الأقدمون، فللقِدَم قداسة تُؤتسى، ولكن ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ كما هم لا يعلمون ولا يهتدون، فذلك تقليد من جاهلين أقدمين، وليست القِدمة حجة لصدق الجهالة السابقة، إنما هي البرهان المبين وليس إلّا لله ولرسل الله.

فحتى إذا كان آباؤهم يعلمون ويهتدون فلا يصح في ميزان العقل اتّباع غير الله ورسوله حيث الخطأ لزام غير المعصوم.

وهذه الآية هي من عساكر الآيات التي تفرض الرجوع إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، دون أي سناد إلى غيرهما مهما كان سناداً عليماً عيلماً إذ لا أعلم من الله ولا أصدق منه حديثاً.

ذلك، فالتقليد ذميم ليس إلّا من ذميم غشيم، اللهم إلّا في ضرورة مفروضة كأن يقلّد الجاهل عالماً يعلم علمه وتقواه، ولكنه أيضاً محظور إذا كان هناك أعلم منه أو أتقى، فضلاً عن الله ورسوله الحامل عنه حكمه.

فلا يبرّر تقليد الجاهل جاهلاً مثله أي عقل أو أدنى شعور، ولا تقليد عالم غير تقي أو تقي غير عالم وهناك عالم تقي، ولا تقليده على علمه وتقواه وهناك من هو أعلم منه أو أتقى، فأنحس دركات التقليد هو تقليد الأعمى أعمى مثله وكما هو سنة جاهلية في تقليد الآباء القدامى لا لشيء إلّا لِقدمتهم على جهلهم كما هم جاهلون، ثم وهناك بين الآباء القدامى

عالمون كالأنبياء وسائر الأولياء! هم ليسوا ليتبعوهم حيث يخالفون أهواءهم، فإنما يتبعون نظراءهم من المجاهيل.

وهنا ﴿لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ ضربة قاسية قاضية على هكذا تقليد حيث المقلَّد - كما المقلِّد - لا يعلم شيئاً فيه يقتدى، ولا يهتدي إلى علم حتى يعلم فيقتدى.

فقد يُقلِّد الجاهل جاهلاً مثله بفارق أن المقلَّد يهتدي إلى علم فيقلِّد فيه، ولكن الذي سُدّت عنه منافذ الهدى كيف يقتدي ويحتذي فيما لا يهتدي ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾[1]!.

وهنا الواو في ﴿أَوَلَوۡ﴾ عطف على محذوف معروف هو أدنى منه محظوراً كـ: أإذا كان آباؤهم يعلمون أنهم ضالون تقلدونهم، أم إذا كانوا علماء يخالفون وحي الله تتبعونهم؟ ﴿أَوَلَوۡ كَانَ...﴾ وهو أنحس تقليد أن الآباء لا يعلمون شيئاً من هدىً ولا ضلال بل هم كما هم أولاء جاهلون، حلقات جاهلة تشابه بعضها البعض في الجاهلية الجهلاء.

إذاً فذلك تقرير لواقع تقليدهم الأنحس الأركس، دون أن يبرر تقليداً يضاد وحي الله مهما كان المقلَّد عالماً عيلماً.

إذاً فكافة التقاليد عمياء هباء خواء إلّا ما يحصل فيه على هدىً ليست فوقها هدىً، وهي في جو وحي القرآن والسنة منحصر فيهما منحسر عما سواهما مهما كان فيه وَفر من العلم والهدى فإن وحي الله أهدى وأنقى سبيلاً.

ولقد فصلنا القول حول الاجتهاد الصالح وصالح التقليد بمناسبات في

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

طيات آيات كالزمر والنجم وما أشبه فلا نعيد ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

«فيا عجباً وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفُّون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كلّ امرئٍ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات وأسباب محكمات» (الخطبة ٨٦ / ١٥٧).

وحين يصل أمر التقليد الأحمق والضلال الأعمق إلى ذلك العمق من الحمق فلا تفيد دلالة ولا هدى فـ :.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ :

ترى هكذا يؤمر الداعية الرسالية والرساليون المؤمنون به؟ وهي ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[٢]؟ لا يُسمح للداعية ترك الدعوة مهما كان المدعوون صَلتين هكذا وصلبين! وقد سجن ذا النون إذ ذهب مغاضباً تاركاً للدعوة الرسالية وهم مصرون على الضلال!.

فعلى الداعية مواصلة الدعوة ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ ولا سيما رسل الله، فمهما كان ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣] ولكن ليس سواء عليك، فإن في استمرار الدعوة الرسالية قطع لأعذار هؤلاء الذين قد

(١) سورة النحل، الآية: ٩.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦.

يعتذرون بانقطاع الدعوة، وفسحٌ لمجال الهدى للذين قد تؤثر في هداهم تواتر الدعوة!.

هنا يخاطَب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لا الرسول، فإن رسالته غير رسالتهم إذ هي أعلى وأنبل، ثم ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فرض أصلي لا حِوَل عنه على أية حال، ثم إذا أثرت دعوتكم فيمن سواكم فواقع لفرض آخر، وإذا لم تؤثر فواقع لمسؤولية أخرى فـ ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ بعدئذ ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى هدي أنفسكم كواقع وإلى هدي من سواكم كبلاغ حين لا يهتدون.

فلا تعني الآية - إذاً - سلب المسؤولية الدعائية المثبتة على عواتق المؤمنين، الثابتة بتواتر الآيات والروايات التي تحمل فرض الدعوة والدعاية والتوجيه والأمر والنهي، وإنما تعني - فيما تعني - أن واقع الضرر اللّازب هو ألّا تقوا أنفسكم، وأما وقاية الآخرين كواقع فليست هي من مسؤوليات الداعية حتى الرسول فـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[١] وإنما المسؤولية الثانية هي دعوة الآخرين وهي من ضمن ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ حيث الدعوة هي من الواجبات على المؤمنين بشروطها.

إذاً فالمحور الأصيل الذي ليس عنه بدليل ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ثم إذا حققتم حق الهدى في أنفسكم ومن ثم دعوتم الآخرين فلم تؤثر فيهم، إذاً ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

ذلك، وحتى إذا اهتديتم في أنفسكم وتركتم الهداية للآخرين فأيضاً ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ كثيراً ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ حيث الأصل هو ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ومن ثم الوصل أن تهدوا الضالين كما تستطيعون، فهذا الاحتمال يحتمل سلب الضرر نسبياً.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

ومن الخطِر الخطِر جداً التمسك بمثل هذه الآية لترك المسؤولية الدعائية وهي نازلة في الظروف التي لا تنفع الدعوة - أمّاهيه - وهكذا يجيب الرسول ﷺ من سأله عنها بقوله: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحاً مُطاعاً وهُدى متبعاً ودنياً مؤثَرة وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام إن من وراءكم أيام الصبر، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم»[1] والانعزال هنا ليس إلَّا للحفاظ على الأهم، تركاً للمهم الذي لا يؤثر أم ويضر بالأهم.

ذلك، ثم خطاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يحوِّل ﴿مَّن ضَلَّ﴾ إلى غيرهم، فلا صلة لهذه الآية - إذاً - بترك مسؤولية الأمر والنهي فيما بين المؤمنين أنفسهم، الثابتة بضرورة الشرعة الربانية ككُلّ، وعلى حدِّ قول الرسول ﷺ: «أين ذهبتم إنما هي لا يضركم من ضلّ من الكفار إذا اهتديتم»[2]: ضراً منهم إليكم في إضلال بكلِّ حقوله، ما حققتم مسؤوليةَ ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾.

فالمفروض على الذين آمنوا ككُلّ فرضاً على أعيانهم ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾

(١) الدر المنثور ١: ٣٣٩، أخرج الترمذي وصححه وابن ماجه وابن جرير والبغوي في معجمه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قال وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ...﴾ [المائدة: ١٠٥] قال: والله سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله ﷺ قال: بل ائتمروا..

(٢) المصدر أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي عامر الأشعري أنه كان فيهم شيء فاحتبس على رسول الله ﷺ ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: يا رسول الله ﷺ قرأت هذه الآية قال فقال له النبي ﷺ: أين ذهبتم، وفيه أخرج ابن مردويه عن محمد بن عبد الله التيمي عن أبي بكر الصديق سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما ترك قوم الجهاد في =

ثم لا تفرض الدعوة والأمر والنهي إلَّا فرض كفاية على أمة منهم فيهم الكفاية عَدَداً وعُدداً وهم العاملون بالمعروف الذي به يأمرون والتاركون المنكر الذي عنه ينهون، على شروط مسرودة في الكتاب والسنة.

فلا تحمل هذه الآية - إذاً - إلَّا فرض الأعيان لقبيل الإيمان بينهم أنفسهم، ثم ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أي لا يضركم إلَّا ضلالكم، وأما ضلال غيركم فليس ليضركم، اللهم إلَّا إذا تركتم واجب الدعوة إلى الهدى بشروطها، فهناك أيضاً لا يضركم ضلالهم أنفسهم، بل المضر هو ترك واجب الدعوة التي هي أيضاً داخلة في نطاق ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ حيث تفرض واجبات الإيمان ككُلّ، شخصياً وجماعياً، ومن الثاني واجب الدعوة الكفائية.

ذلك، فـ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كتأويل أوّل تعني بالنسبة للضالين غير المؤمنين إذ لا تؤثر فيهم الدعوة، وهي كتأويل ثانٍ بين المؤمنين أنفسهم تعني ظروفاً خاصة لا يجب أو لا يسمح فيها الأمر والنهي بين المؤمنين أنفسهم حيث لا يُجدي نفعاً أو يستجر ضراً هو أضرُّ من ضلالهم(١) فـ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ في خطاب الإيمان تجمع مجامع شروط الإيمان ومنها

= سبيل الله إلّا ضربهم الله بذلّ ولا أقرّ قوم المنكر بين أظهرهم إلّا عمهم الله بعقاب ما بينكم وبين أن يعمكم الله بعقاب من عنده إلّا أن تأولوا هذه الآية على غير أمر بمعروف ولا نهي عن منكر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ. . .﴾ [المَائدة: ١٠٥] وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم قال: خطب أبو بكر الناس فكان في خطبته قال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس لا تتكلموا على هذه الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ. . .﴾ [المَائدة: ١٠٥] إن الذاعر ليكون في الحي فلا يمنعوه فيعمهم الله بعقاب.

(١) الدر المنثور ٢: ٣٤ - أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: ذكرت هذه الآية عند رسول الله ﷺ فقال نبي الله: لم يجيء تأويلها لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام.

الدعوة والأمر والنهي قدر المستطاع ثم ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى شروطات الايمان.

ذلك وفي نظرة أخرى إلى الآية نرى ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ تفرض على المؤمنين الحفاظ على أنفسهم فرضاً على الأعيان، فالمقصر الأوّل في كافة الفلتات عن قضية الإيمان هو المكلف نفسه، ومن ثم هؤلاء الذين يُضلّلونهم عن صراط الإيمان، كما وهم مقصرون إذا تهاونوا عن الدعوة المفروضة عليهم بكلِّ مراحلها.

ثم ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ لها أبعاد ثلاثة أبعدها أنه ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ ضرراً أصيلاً ﴿مَّن ضَلَّ﴾ وأنتم تاركون واجب دعوتهم وأمرهم ونهيهم، ثم البُعدان المذكوران من ذي قبل هما المشتركان في عذر المؤمن في ترك الدعوة، فـ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ مؤمنين وضالين ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خيِّر وشرير، وإنباءً عن غفلة وغفوة مقصرة، وإنباءً عن طاعة قد لا يُرجى الفلاح بها، ثم إنباءً بحصائل الأعمال حيث تجزون ما كنتم تعملون.

وهنا بعدٌ رابع لـ ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ هو إضرار الإضلال، فما دام المؤمن حفيظاً على إيمانه بما عنده من طاقات وإمكانيات فلا يخاف ﴿مَّن ضَلَّ﴾ أن يضله عن سواء السبيل، وهذا من أظهر الأبعاد بين كلّ المحتملات الثلاثة سابقة ولاحقة حيث ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ إخباراً وإنشاءً تنفي ضرّهم أنفسهم بما يختارون ميسّرين في الضرر لا مسيَّرين، فحين لا تطبقون مسؤولية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كما يجب كفاحاً ضدّ عراقيلهم، فهم بإمكانهم أن يضروكم إضلالاً وسواه.

فحين يخاطَب الذين آمنوا بـ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ليس ليُعنى منهم أن يُؤمنوا كأصل، بل هو استحكام عرى الإيمان لحدٍّ لا ينضّر المؤمن بما يضره

الكافرون، وهذه - إذاً - نظيرة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾[1] حيث يعني النهي عن الصدِّ الأمر باستحكام العقيدة والعملية لصالح يوم الحساب لحدٍّ لا يستطيع الكافرون به أن يصدّوك عن الساعة عقيدياً أو عملياً.

وهكذا يؤمر المؤمنون بإحكام عُرى الإيمان في ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أن يصبحوا سداً حصيناً مكيناً أميناً لا تضره - على أشده - أية محاولة كافرة، فإنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2] حيث تعني ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ تعاملهم في كافة الرحمات، لكي يصبحوا أشداء على الكفار في كافة العرقلات.

إذاً - ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ تعني كأول محتمل وأقواه ضرَّهم أنفسهُم بما يختارون ضدّ المؤمنين، لا الضر الموجه إليهم عقاباً من الله فإنه هو ضره عدلاً وليس ضرّهم عداء!.

ذلك، فأقوى المحتملات هو تحقيق ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ لحدٍّ ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾: ذلك الاهتداء الصارم الذي يصدّ عنكم كلّ اعتداء عارم ممن ضل، حيث الضالون الصامدون في ضلالهم يحاولون على طول الخط أن يضروكم كما يستطيعون[3].

فـ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ علمياً وعقيدياً وخلقياً وعملياً وسياسياً واقتصادياً وحربياً، وفي كلّ ما تتطلبه شروطات صامد الإيمان فردياً وجماعياً، إعداداً كاملاً شاملاً يضعف أمامه العدو أياً كان، وحينئذ ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٣) وهكذا يعني ما يروى «حب علي حسنة لا يضر معها سيئة» أي أن حبه يدفع عن السيئة.

وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[١] ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢] وفي جملة واحدة: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٣].

هذا، ثم سائر الضرر ممن ضل، المسيَّر منهم غير الميسَّر لهم، كوزر ضلالهم، إنه المحتمل على هامش ذلك الضر الميسَّر لهم، و﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ يجمع الإنشاء إلى الإخبار، إنشاء بواجب الاستعداد لحدِّ زوال الضرر، وإخباراً بزواله قدر الاستعداد، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٤].

إذاً فالضرر المنفي في ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ مهما كان ضرراً دنيوياً أو أخروياً فهو ضرر من الضالين أنفسهم كأصيل، دون ضرر العذاب من الله تقصيراً في دعوتهم إلى الله من أهل الله، فإنه ليس ضرراً منهم، مهما كان ضرراً من الله بهم لمكان التقصير في حقهم فتزر وازرة مثل وزرهم..

فالمحور الأصيل بين محتملات الآية السبع ضررهم بما يختارونه وجاه المؤمنين، وليست سلبية ذلك الضرر إلَّا بإيجابية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بعد الإيمان، وبقدر تلك الإيجابية.

فمن المفروض على الذين آمنوا أن يصنعوا أنفسهم بشروطات الإيمان بقدر سلبية الضرر ممن ضلّ، فكلما تحقق بُعدٌ من ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ تحقق بُعدٌ من ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ في نفس البُعد وبقدره، وهنا يبهر قول الرسول ﷺ أمام المنجرفين في تفسير هذه الآية: «أين ذهبتم إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.

وقد تعني ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ للذين آمنوا - كأصل - ثنائية المسؤولية الوقائية: أن يقي كلٌّ نفسه لحدٍّ ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ثم بقي المجاهيل منهم الذين لا يستطيعون أن يقوا هكذا أنفسهم، وهذه المسؤولية الثانية هي متقدمة على مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ هي متأخرة عن مسؤولية التعليم وكما تتقدم في آيتها عليها: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(١).

صحيح أن دعوة الكافرين مفروضة على المؤمنين، ولكنها متأخرة عن مسؤوليتهم تجاه أنفسهم، إذاً فالمسؤوليات الإيمانية تترتب كالتالية: أن تصنع نفسك بحيث لا يضرك من ضلّ إذا اهتديت، ثم أن تصنع سائر المؤمنين، ومن ثَمَّ أن تأمرهم بالمعروف المتروك وتنهاهم عن المنكر المفعول، ومن ثَمَّ تأخذ في دعوة الكافرين مهما كانت بضمن إصلاح المؤمنين، ولكنها كهامش على التواصي بالحق والتواصي بالصبر بين المؤمنين أنفسهم.

وبصيغةٍ أخرى واجب غير المؤمن هو الإيمان أوّلاً ثم العمل بقضايا الإيمان ومن ثم دعوة الآخرين إلى الإيمان وقضاياه، وفي حقل الإيمان الأصل هو نفسه تقبلاً ودعوة، ثم العلم بواجبات الإيمان نفسياً وتعلماً ومن ثم العمل بها نفسياً ودعوةً.

وبُعْدٌ خامس أنكم إذا طبقتم شرائط الإيمان فلستم تعاقبون بضلال الآخرين حيث لا تزر وازرة وزر أخرى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

فعلى المؤمن الاشتغال بصناعة نفسه وخاصته وحفاظتها كما فرضت

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٤.

عليه، ثم لا يهزهزه الهزاهز، ولا يزيله القواصف أو يحركه العواصف، فلا يزول الحق عن مقرِّه مهما قلّ أهله بما يجول الباطل في مَقراته وإن كثر أهله فـــــــ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

وهنا «لا يضرك» كما هي إخبار كذلك هي إنشاء بصيغة الإخبار، فلا يغررك تقلب الذين كفروا في البلاد ولا يضررك فتنقلب على عقبيك خوفة عن العزلة والخطفة كما: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ﴾(٢).

ويُعْدٌ سادس هو في سياق الإنشاء أن لا تشتغلوا بمن ضل تغافلاً عن أنفسكم، فعساكم تنحازون إليهم يسيراً ثم كثيراً بُغيةَ تحويلهم عن الضلال وهم يحاولون المعاكسة، فقد يتغلبون عليكم في صراع الحق والباطل، فإهلاك النفس في سبيل إنقاذ الغير هو في نفسه ضلال وموت، وكما نرى عديد الموت والضلال أنهما سيان في القرآن، فكما الضالون يذكرون (١٧) كذلك الموتى، لمكان السماوات بين الضلال والموت!.

فكما لا يجوز التعرض للموت لإنجاء الآخرين، كذلك التعرض للضلال لهدي الآخرين، فالدعوة إلى الله بين محبورة ومحظورة، فالمحبورة هي المؤثرة غير المتأثرة، - أم - لأقل تقدير - لا مؤثرة ولا متأثرة، والمحظورة هي المتأثرة أو المؤثرة المتأثرة، فتترك الدعوة في المحظورة حيث المسؤولية الكبرى فيها ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ﴾ ثم ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ حين تنضرُّون بدعوتهم.

ذلك، وعلى أية حال فلا مساس لهذه الآية بالآيات الآمرة بالدعوة والأمر والنهي فإنها لا تعني ما تعنيه هذه الآيات، على أن الدعوة بمختلف

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٧.

شؤونها الصالحة ليست مما تقبل النسخ اللهم إلَّا أن تُنسخ شرعة الله ككُلّ، حيث الدعوة هي لزام الشرعة نشراً وتطبيقاً وتحليقاً على كافة المكلفين في كافة الشؤون الحيوية: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾(١) و﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(٢) وكيف تنسخ السبيل الرسولية والرسالية وسند خيرية الأمة الآمرة الناهية.

ثم وهنا سابع حيث تعني ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ كلًّا نفسه، ثم ذويه الذين هم كنفسه، ثم سائر المؤمنين فإنهم إخوة أنفسهم كنفس واحدة، فواجب الوقاية والحفاظ هنا يعم ذلك المثلث مهما كانت الأضلاع متدرجة، من نفسك إلى ذويك وإلى سائر المؤمنين.

فهذه أشواطٌ سبعة مستفادة من طليق الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فبترك كلٍّ واحد منها يفتح درك من دركات الجحيم السبع، كما بتطبيق كلٍّ تطوف حول كعبة الحق وحق الكعبة المباركة.

وهنا الشوط السابع وهو الحفاظ الجماهيري المتجاوب بين المؤمنين أنفسهم، هو الذي يحافظ على كيان الإيمان عن أية عرقلة ضد الإيمان، فهو على غرار: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ . . .﴾(٣) و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٤) فـ ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

ولأن ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ تشمل فرض الحفاظ على النواميس الخمسة: عقيدة وعقلاً ونفساً وعِرضاً ومالاً على ضوء معرفة الله وعبوديته الصالحة،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

وذلك حفاظ جماعي بين المؤمنين أنفسهم، حزمة واحدة حول قبيل الإيمان، وعزمة واحدة للحفاظ على كتلة الإيمان، فليجدُّوا في السير في جادَّة جادَّة متناصرين حتى الموت، لذلك يذكر فيما يلي تناصر الإيمان عند الموت في الوصية المفروضة فإن ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ من أبعادها صالح الوصية لإصلاح المعوزين ولا سيما من الأقارب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

ذلك، ولقد سبق فرض الوصية في نفسها من ذي قبل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

فواجب الوصية يقتضي واجب الحفاظ عليها بطريقة حازمة حاسمة تحقيقاً للوصية، وهي الشهادة الصالحة: ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

وهنا خطاب الإيمان يبيّن أن ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ هي من قضايا الإيمان حفاظاً على حقوق الموصي والموصى له والموصى إليه، جمعاً بين حقوق المؤمن في موته وحياته، وهي أحرى من حقوق الحياة الخاصة.

و﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ تبيّن أن حين الوصية المكتوبة هو عند حضور الموت كما في آيتها الأخرى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾.... وحضور الموت هو حاضر أسبابه الظاهرة علماً أو ظناً أو احتمالاً قريباً عادياً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

وترى ﴿إِنْ أَنتُمْ . . .﴾ هي شرط لواجب الشهادة لواجب الوصية؟ فلا شهادة لها في غير الضرب في الأرض، أم ولا وصية!.

الوصية عند الموت مكتوبة حضراً أو سفراً لآيتها الطليقة ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ثم وإثبات الوصية بحاجة إلى حجة شرعية وهي الشهادة الشرعية المتمثلة في ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، إذاً فـ ﴿إِنْ أَنتُمْ . . .﴾ بيان لأهم ظروف الشهادة وأحرجها.

وهنا ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ تعني من المؤمنين الموثوقين، وظاهر العدل هو طليقه دون خاصة الوثاقة في موقف الشهادة، فلو عُنيت هذه الخاصة لكانت العبارة «ذو عدل منكم فيها» ثم لا وثاقة خاصة فيمن هو فاسق بعهد الله، حيث المجرم بحق الله هو أجرم بحق الناس، إضافة إلى أن قضية هامة الشهادة على الوصية بهذه التأكيدات القيمة هي العدالة البالغة الطليقة، وما دامت هي ميسورة فلماذا - إذاً - النقلة إلى العدالة النسبية غير الكافية ولا الوافية؟.

ثم ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ تعني ذوي عدل من غير المؤمنين، أن يكونا موثوقين عند أصحابهما، عدلين في قضاياهم، وكما تعنيهم ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ . . .وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] فالمتقون من أهل الكتاب هم العدول منهم، فهم القاصرون، ومن ثم المقصرون في عدم الانتقال إلى الإسلام شرطَ عدلهم في شرعتهم.

و﴿فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ هي إصابة سببه المتعود ولمَّا يمت، وإلَّا فكيف يُخاطب بخطاب التكليف؟ وبديل الشهادة هنا كسائر البديل يختص

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٥.

بما لم يحصل على أصيل، ولأن الأصيل هو فقط ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فلا دور لغير ذوي عدل من المسلمين بعد فقدانهما إلّا لذوي عدل من غيرهم، حيث العدالة هي الحفيظة على الشهادة دون مجرد الإسلام، فليفضَّل العدل غير المسلم، على غير العدل المسلم في موقف الشهادة، حيث الضرورات تُبيح المحظورات(١) فمهما كانت شهادة غير المسلم على الوصية محظورة في الحالات العادية، فهي لا بدّ منها عند فقدان المسلم العدل حفاظاً على واجب الوصية حجة لواجب الحقوق، ولأن المحور هنا الوثوق فليفضل العدل غير المسلم على المسلم غير العدل.

ولأن العدالة النسبية لا توجد عند غير الموحدين، فليكن ﴿غَيْرِكُمْ﴾ من الموحدين، ولأن مجرد عقيدة التوحيد لا تعدِّل الموحد إلّا بالإيمان الكتابي حيث المحور الصالح للعدالة هو وحي الله تعالى، فغير الكتابي خارج عن محور العدالة مهما كان موحداً، ولمكان ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فليكونا من الكتابيين المصلين، حيث الصلاة وأشباهها من فروض الدين هي من قضايا العدالة، فقد تجوز - إذاً - شهادة اليهودي والنصراني، بل والمجوسي(٢) إذا كانوا عدولاً يصلون.

---

(١) نور الثقلين ١ : ٦٨٦ في عيون الأخبار في باب ما كتبه الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل: وعلة ترك شهادة النساء في الطلاق والهلال لضعفهن عن الرؤية ومحاماتهن للنساء في الطلاق لذلك لا تجوز شهادتهن إلّا في موضع ضرورة مثل شهادة القابلة وما لا يجوز للرجال أن ينظروا إليه كضرورة تجويز شهادة أهل الكتاب إذا لم يوجد غيرهم وفي كتاب الله ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ - مسلمين - أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ - كافرين -﴾ [المَائدة: ١٠٦].

أقول وروى ما في معناه حول ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾ [المَائدة: ١٠٦] أبو الصباح الكناني وهشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) المصدر في الكافي عن يحيى بن محمد قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ...﴾=

والقول إن «من بعد صلاة العصر» تعني صلاة المؤمنين، مردود بأنه لا صلة لصلاتهم بتحكيم إقسام غيرهم، فلتكن صلاتهم مهما كان مع صلاة المسلمين.

أجل، والحالة بعد الصلاة، هي حالة قدسية كحصيلة أوتوماتيكية للصلاة، فهي أقرب الحالات - ولا سيما للعدول - إلى صدق الشهادة، فرعايتها - إذاً - حياطة عادلة كأحوط ما يكون للعدول تخوفاً عن العدول عن حق الشهادة فيضيع حق المؤمن حياً أو ميتاً، و﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهما عندها أفحش وأنكر، فالإقسام بعد الصلاة أحوط وأثبت من كلّ أقسام الإقسام، فإنه يختلف حسب مختلف الحالات والمجالات وكما يُروى عن النبي ﷺ «من حلف عند هذا المنبر على يمين آثمة فليتبوأ مقعده من النار ولو على سواك أخضر»[1] فإذا كان إثم الحلف الآثم عند المنبر أكثر فليكن بعد الصلاة أكثر وأظهر.

وهنا ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ - قد - تختص بـ ﴿ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ لأقربية المرجع وغرابة حبس العدلين بعد الصلاة من شهود المسلمين وإقسامهما، فهذه وما بعدها حائطة تسد فراغ الإيمان.

ولا يعني الحبس هنا توهيناً إياهما، بل هو توطين لصدقهما ﴿فَيُقْسِمَانِ

= [المَائدة: ١٠٦] قال: اللذان منكم مسلمان واللذان من غيركم من أهل الكتاب فإن لم يجدوا من أهل الكتاب فمن المجوس لأن رسول الله ﷺ سنَّ في المجوس سنة أهل الكتاب في الجزية وذلك إذا مات الرجل في أرض غربة فلم يجد مسلمين اشهد رجلين من أهل الكتاب يجلسان بعد العصر فيقسمان بالله..

أقول: وقد ورد جواز شهادة غير المسلمين عند الضرورة من طرق أخرى عن أئمتنا عليهم السلام.

(١) آيات الأحكام للجصاص ٣: ٥٩٩.

بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فذلك إقسام مع تلقي الشهادة حتى ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ فيها عند إلقائها أن ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ نحن المقسمان بالله ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ بارتيابكم ﴿ثَمَنًا﴾ ولو كان المشترى له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ لنا أم للموصى، ثم ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ التي شهدناها تلقياً أن نلقيها ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ لو اشترينا به ثمناً ﴿لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾.

فضمير الغائب في ﴿بِهِۦ﴾ هو الأمر المرتاب في الوصية، ثم ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ في الوصية، فحين الارتياب في الوصية من الوصي أم سواه فنحن نشهد كما سمعنا لأنها شهادة الله، حيث حصلت بأمر الله تلقياً، فلتُؤدَّ لله كما حصلت، كما وأنها مشهودة لله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1] و﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾[2].

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إن اشترينا به ثمناً ﴿لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾: المبطئين عن الصواب الثواب خلاف ما أمر الله، وقد يرجع الضمير بما رجع إلى الإقسام، فـ «لا نشتري بالقسم ثمناً».

وهنا ﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾ خطاب إلى من يهمهم أمر الوصية وصياً وموصىً له وموصىً إليه وحاكماً شرعياً هم كلهم غير الشهداء، حضوراً في الوصية وغير حضور.

وهنا ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ مصدراً دون اسم فاعل كـ«الشاهد بينكم» تلمح لأكيد الشهادة أن تكون خليصة غير خليطة بأية شائبة، فلذلك اشترطت فيها - إن كان الشاهدان من غيركم - تلك الشروط المغلظة.

ثم ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ هو حضور مقدماته القريبة حسب المعلوم أو المظنون، و﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ لها الصلة القربى بـ ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى

(١) سورة النساء، الآية: ٧٩.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٢.

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإن السفر هو الذي قد لا يوجد فيه مسلم يشهد، وأما الحضر للمسلم فهو بطبيعة الحال في بلد إسلامي أم فيه مسلم إذ لا يُساكن المسلم جماعة غير مسلمين إلَّا أن يكون فيهم مسلمون، فلا اضطرار إلى شهادة ﴿ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ إلّا ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

فحُصالة المعني من الآية أن واجب الوصية حسب آية البقرة - وهو على من كان عنده مال - هو عند حضور الموت وكما هنا، وواجب عندها محتوم هو استشهاد عدلين مؤمنين بظاهر العدالة لحدٍّ لا يصدق عليهما أنهما فاسقان، وإلّا فآخران من غيركم عدلين فيما سوى الإيمان وهو التطبيق الكامل لشرعتها الكتابية مهما كانا قاصرين في ترك الإسلام أو مقصرين ما داما ملتزمين بشرعة إيمان كتابي، اللهمَّ إلَّا من يعاند المؤمنين مهما كان قاصراً في تركه الإسلام فضلاً عن المقصر، حيث العدالة هي الكافلة لاستقامة الشهادة ولن تستقيم في جوٍّ العناد.

فأقل شرط في شهادة غير المسلم العادل في شرعته عدم العناد لقبيل الإيمان قاصراً أو مقصراً، فمن المستحيل أن يستأمن الله لهامة الشهادة في الوصية من يُعادينا، ولا ريب أن المسلم الفاسق غير المعاند - إذاً - خير من العادل غير المسلم، المعاند.

وقد يقال إن النقلة إلى عدلين من غيرنا لا مجال لها إلَّا عند إعواز مسلمين عدلين وسواهما، فاشتراط العدالة في الشاهدين المؤمنين ليس إلَّا عند إمكانية الحصول على العدلين فلذلك لم يكن اشتراط العدالة إلَّا في غير الضرب في الأرض، ثم فيه ﴿ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾؟

ولكن ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ﴾ لم يشترط فيه إعواز المسلمين عن بكرتهم، بل هو إعواز العدول، فهو شرط للنقلة إلى غير المسلمين، اعتباراً بظرف الإعواز من المسلمين.

وليس فرض القسم إلَّا في موقف الارتياب لمكان ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ ولا مكان للارتياب إلَّا في ﴿ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ لعدم الإيمان، وأما الارتياب في ﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ فلا مكان له قضيةَ حرمة المؤمن العادل، وأما الكتابي العادل فعدم إيمانه مجال للارتياب بشأنه.

﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾:

﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ من ملامح الشهادة تأكداً ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ وهما «آخران من غيرهم» أم وذوا عدل منكم ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ إبطاءً عن الصواب أن اشتروا به ثمناً خلاف ما أقسما له: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ فقد استحقا الآن إثماً أقسما على تركه.

﴿فَإِنۡ عُثِرَ... فَـَٔاخَرَانِ﴾ علهما شاهدان آخران ممن شهدوا الوصية ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ في حق الشهادة وهم ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ - الإثم - ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾، أتراهم شاهدين كما هما؟ ولم تسبق شهادتهما إلَّا «آخران من غيرهم» ثم كيف ﴿ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾! أم هما شاهدان مسلمان؟ وهما الأصيلان والموقف هنا للبديلين! فلو كان هناك مسلمان لم يصل الدور إلى ﴿ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾!.

إذاً فهما ليسا من الشاهدين لا أصيلين ولا بديلين، إنما هما ممن حضر الوصية أو لم يحضر وليست لهم شهادة لأنهم من الموصَى لهم أو الأوصياء، وشاهد الوصية لا بدّ وأنه غير الوصي والموصى له، فهما إذاً من هؤلاء الذين استحق عليهم الإثم وهما الأوليان بالوصية.

فـ ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ هما الأوليان بالوصية فهي عطف بيان أو وصف ثان عن

«آخران» أي الآخران الأوليان بالموصي وصياً أو موصىً له، وهذا أصلح عناية من ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ فهما الأوليان بالميت، الأوليان بالإقسام حيث الحق راجع إليهما فليدافعا عن حقهما حين يضيع بالشهادة الآثمة من الشاهدين، فالآخران الأوليان من الذين استحق عليهم في الشهادة الآثمة الأوليان بتلك الوصية لهما حق الإقسام لإبطال هذه الشهادة وإحقاق الحق. . كما هو حق لكلِّ صاحب حق حين يضيع حقه بشهادة آثمة.

وهنا في اختلاف قراءة ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ دليل اختلاف واضطراب الأفهام، وقد حصل لأُبي بن كعب فيها إفحام للخليفة عمر حيث «قرأ» من الذين استحق عليهم الأوليان قال عمر: كذبت، قال: أنت أكذب، فقال رجل: تكذب أمير المؤمنين؟ قال: أنا أشد تعظيماً لحق أمير المؤمنين منك ولكن كذبته في تصديقه كتاب الله ولم أصدق أمير المؤمنين في تكذيب كتاب الله، فقال عمر: صدقت[1].

وهذان الآخران الأوليان من الذين استحق عليهم الإثم في هَذه الشهادة الآثمة، هما ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ وقد تقبل شهادتهما وإن كانا من أهل الحق بديلة عن هذه الشهادة الآثمة ومع فقد الشهادة العادلة المسلمة، حيث لا مجال لتصديق هذه الشهادة الآثمة فلتقبل شهادة الأولى بالوصية بحق نفسه ومن أشبه ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ - ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ طور الصدق و﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بحق الموصي والشاهدين وبحق من له الحق في هذا البين.

إذاً فنسج العبارة الناضجة في ترتيب شهادة الوصية:

---

(١) الدر المنثور ٢: ٣٤٤ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن عدي عن أبي مجلز أن أُبي بن كعب قرأ . . .

١ - ﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ ٣ - ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ منكم أو من غيركم ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ على الوصية، فهي - إذاً - ساقطة، فليتحول إلى ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ غير الأولين الفاقدين ولا الآخرين الساقطين، وإنما هما ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ الإثم في تلك الوصية المظلومة، وهم كلّ من ترتبط بهم الوصية، وصياً وموصى له، ثم هما ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ بينهم بالوصية.

صحيح أن شهادة الوصي والموصى له ليست صالحة كأصل لأنها إقرار لصالح الشاهد، ولكنها مقبولة عند إعواز الشهادة الصالحة، ولا سيما إذا كانت نقضاً لتلك الشهادة الآثمة، فتحويلاً للوصية إلى أعدل سمة مرضية في هذا البين.

فهنا ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ عطف بيان أو وصف لـ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فقد بين أولاً أن حق الشهادة بعد سقوطها من ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ الأوّلان، منتقل إلى ﴿ءَاخَرَانِ﴾ ثانيان، ثم وصفا أنهما ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ في تلك الشهادة الآثمة، ومن ثم إنهما ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ بالميت من بين هؤلاء، فهما - إذاً - من الموصى لهم، فإنهم أولى من الموصى إليهم، إذ لا دور لهم إلّا تحقيق الوصية بحق الموصى لهم.

والأصح كون ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ وصفاً ثانياً لـ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ الآخران، فلأنهما معرفان بوصفهما ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ فقد جاز وصفهما بـ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ معرفاً.

واستحقاق الإثم هو طلب تحققه بالشهادة الخائنة، والعاثر على ذلك هو من له مصلحة في تلك الوصية، سواءٌ أكان من أصحاب الحق أم من أوليائهم، والعثور ليس إلّا عند إلقاء تلك الشهادة، عثوراً من الحضور في تلقيها أو سائر العثور.

فالمفروض في مجلس إلقاء الشهادة حضور جمع من الأوصياء أو الموصى لهم أو الورثة مهما كان الأصل هم الموصى لهم الواصل إليهم حق الوصية، أم كلهم أم طائفتان منهم والكسور هنا سبعة، أم الاطلاع على الوصية بأية طريقة كانت، وإن لم يكونوا حضوراً كما هو الأكثر في السفر.

فليس حضور أي من هؤلاء شرطاً في أصل الوصية إلّا الشاهدان، ثم الأوليان هما الأولى بالميت في وصيته من بين الجميع، فإن كان هناك أكثر من اثنين فواجب الشهادة فقط لاثنين منهم، وإن كانت شهادة الكل أيضاً ممضاة، فليس ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ تحصر العدد فيها، وإنما هما أقل من يشهد في هذا البين.

ولأن شهادة هؤلاء ليست إلّا لصالحهم لذلك لا تقبل منهم كأصل وضابطة، وإنما المقبولة شهادة من لا ينتفع شخصياً وإن انتفع في قرباه كما أشير بـ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ للشاهدين أو الميت.

لذلك فالدور الأول في الشهادة هو لغير من له الحق، عدلين مسلمين أو غير مسلمين، ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ على ذوي الحق في الوصية، أن طلبا عليه إثماً ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ وهما ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ ذلك الإثم الذي حققه الشاهدان، ولكن من هما من بين هؤلاء؟ هما ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ بالميت بحق الوصية، فهما من الموصى لهم الأقرباء، ثم غير الأقرباء، ثم الأوصياء والورثة أيهم أولى بهذه الوصية تحقيقاً وانتفاعاً، سواء أكانوا حاضرين عند الوصية أو غائبين مطلعين عليها.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ﴾ حين شهدنا مجلس الوصية «أولى من شهادتهما» إذ نحن الأوليان، فلنا حق الحفاظ على حقوقنا عند سقوط الشهادة المرسومة ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ لا على الشاهدين ولا الميت ولا على سائر من له الحق في الوصية ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ لو اعتدينا ﴿لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وقد نتلمح من ملامح الآية أن

الوصية عند الضرب في الأرض راجحة لحدِّ الفرض حيث السفر من الأسباب القريبة للموت، ولكي تكون شهادة الوصية من عدلين مؤمنين، فإنها استبقاء للموصي في صالح مسؤولياته الحيوية الإيمانية، ولذلك نرى أكيد الأمر بها، والحفاظ على شؤونها في آيات عدة، وتكرارها مع الدّين في بيان الأنصبة والسهام: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾[1] مما يجعل الوصية بمثابة الدين أو أفضل استثناء حيث تُجعل قبل الدين!.

رجعة أخرى إلى الآيات الثلاث:

﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ هم الضاربون في الأرض، المصابون بمصيبة الموت، ولا يعني الحبس هنا توهيناً بحق ﴿ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ إنما هو إيقاف لهما ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ فيهما، لمكان عدم إيمانهما، فليُجبر ذلك الكسر بجابر عند الارتياب لا سواه، هو إقسامهما بالله بعد الصلاة، أن يصليا صلاتهما حسب شرعتهما، إن كانت هناك مهلة إلى وقت الصلاة، وإلّا فصلاة نافلة تحلق على كلِّ شرائع الله، فهي على أية حال ليست صلاة الموصين إذ لا رباط لها بخلق حالة الاطمئنان بصدقهما في إقسامهما بالله، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهي تنهاهما أن يشتريا به ثمناً، ثم ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ بعد الصلاة، فهذه سياجات ثلاثة لـ﴿ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾:

١ - عدلهما في شرعتهما.

٢ - إقسامهما بالله توكيداً لصدق شهادتهما ألا يشتريا به ثمناً قليلاً.

و٣ - أن ذلك الحلف هو بعد صلاتهما، وهذه الثلاثة تسد فراغ إيمانهما ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾.

ثم ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ والعاثر هو صاحب الحق في الوصية وصياً وموصى إليه،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ﴾ طلباً لتحقيق إثم هو إبطاء عن الثواب، إبطاءً عن حق الوصية، فـ «شاهدان» ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ في هذه الشهادة، وهما ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ الإثم، فالإثم المستحق بـ ﴿ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ هو الفاعل لـ ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ ثم ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ وصف ثان لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ﴾ فـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ هنا هم أصحاب الوصية وصياً وموصىً له وورثة، فـ ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ هما من هؤلاء، إن ورثة فهم أحق من الكل، وإن موصىً لهم فأحق من الوصي، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ التأكيد الأكيد في أبعاد الشهادة للوصية، والحياطة البالغة فيها ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟﴾ ﴿ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ ﴿بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ دون إثم أو ظلم، وحين لا يأتون ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ﴾ لهم ﴿بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ﴾ أولاء الآخران الأوليان فيفتضحوا في شهادتهم الآثمة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ حقول الشهادة ﴿وَٱسْمَعُوا۟ ۗ﴾ عظة الله، وشهادة الله وحق الله واعلموا أن ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[1].

(١) المصدر أخرج الترمذي وضعفه وابن جرير وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة من طريق أبي النضر وهو الكلبي عن باذان مولى أم هاني عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية قال: برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو عظم تجارته فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك اهله، قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره، قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت إليهم =

. . . .

. . . .



= خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فأنزل الله هذه الآية فقام عمرو ابن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء.

وفيه عن ابن عباس قال خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتماها ولا اطلعا ثم وجد الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم وأخذ الجام وفيه نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ...﴾ [المَائدة: ١٠٦]، وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة في الجاهلية ويطيلان الإقامة بها فلما هاجر النبي ﷺ حولا متجرهما إلى المدينة فخرج بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة فخرجوا جميعاً تجاراً إلى الشام حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصيته بيده ثم دسها في متاعه وأوصى إليهما فلما مات فتحا متاعه فأخذا منه شيئاً ثم حجزاه كما كان وقدما المدينة على أهله فدفعا متاعه ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه فقالوا هذا الذي قبضنا له ودفع إلينا فقالوا لهما هذا كتابه بيده قالوا ما كتمنا له شيئاً فترافعوا إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دبر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلّا هو ما قبضنا له غير هذا ولا كتمنا فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ثم ظهر معهما على إناء من فضة منقوش مموّه بذهب فقال أهله هذا من متاعه ولكنا اشتريناه منه ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا فترافعوا إلى النبي ﷺ فنزلت الآية: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ [المَائدة: ١٠٧] فأمر النبي ﷺ رجلين من أهل بيت الميت أن يحلفا على ما كتما وغيبا ويستحقانه، ثم إن تميم الداري أسلم وبايع النبي ﷺ وكان يقول: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء...

أقول: لأن شؤون النزول المنقول ليست قطعية، وإنها على قطعيتها لا تحدد الآية بنفسها فضلاً عن أن تنسخها، فلا نصدق مما نقلناه إلّا الموافق لما استفدناه من هذه الآيات حول الوصية.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ
وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ
تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ
وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ
ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن
نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ
عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا
يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى

نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾:

هنا يسأل المرسلون ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ﴾ وفي أخرى يسأل المرسل إليهم ماذا أجبتم المرسلين: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1] وفي ثالثة يجمع بينهما في السؤال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾[2].

فسؤال المرسل إليهم سؤال استفهام استفحام عمن خالف الرسل، واستعظام لمن اتبعهم، وسؤال المرسلين هو سؤال إعلام وتعظيم، فهنا ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ لهم جواب، ولأنهم لم يقصروا في رسالاتهم فليس لهم تباب وعتاب.

(١) سورة القصص، الآيات: ٦٥-٦٧.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٦، ٧.

وهنا في استجواب الرسل نجد الجواب ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ وهم عارفون الجواب حيث واجهوا مصدقين ومكذبين؟ ثم الله أشهدهم على ما هم غائبون ليشهدوا يوم يقوم الأشهاد، فقد يعنون تخضعاً أمام الله حيث لا يسألهم استعلاماً فـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أم ويعنون ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ كما يحق حيطة على كلِّ ما أجبنا، فقد أجبنا أمام من واجهناهم كما ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١] فالمنفي من العلم هو علم الغيوب ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

ولأن العلم بالإجابة كأصل، الغائبة عنهم أحياءً وأمواتاً، ذلك مسلوب عنهم مهما علموا أقوالهم وأعمالهم بما عرفهم الله كما تدل آيات شهادة الرسل على الأعمال، فـ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ صادقة أولاً وأخيراً، فأولاً وقبل أن يعرِّفهم الله لا علم لهم إلَّا ما واجهوه، وأخيراً بعدما عرفهم الله لا علم لهم محيطاً كما يعلم الله، ثم وقضية الأدب الرسالي، هي الاعتراف بالجهل أمام الرب تبارك وتعالى.

ومن جهة ثالثة بما أن العلم بغيب النيات والطويات خاص بالله فـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وليس العلم بالمظاهر - مهما حلق على كلِّها بإذن الله - ليس علماً أمام العلم بالغيوب، إذاً ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ كما يكفي ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

فشهداء الأعمال لا يشهدون إلَّا بمظاهرها الحاضرة لديهم أو المحضَرة بإذن الله عندهم، وأما النيات وسائر الطويات فهي المختصة بعلام الغيوب، وقد يكون ذلك التعليم يوم القيامة بعد ذلك التساؤل، حيث العلم الطليق يوم الدنيا لهؤلاء الشهداء هو مما يصدّ عنهم كلّ ضرٍّ وشرٍّ كما يجلب كلّ خير،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

وذلك العلم مسلوب عن الرسول ﷺ فضلاً عمن سواه كما قال الله عنه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[(١)] فمن الغيب المستكثر للخير والصاد عن مسّ السوء هو العلم بأعمال المكلفين ككل، وبنياتهم وطويّاتهم ما تشمله الشهادة يوم يقوم الأشهاد.

إذاً فالجامع بين واقع الشهادة من الأشهاد يوم يقوم الأشهاد، وعدم علمهم بمادة الشهادة، هو أن ذلك العلم يختص بما بعد الموت وبعد ذلك التساؤل، ومما يشهد له قول المسيح ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ...﴾[(٢)].

ثم وهنا في ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ لمحة إلى أن علمنا بغيب الأعمال الظاهرة حين نغيب عنها هنا أم بعد الموت، هو علم قليل بغيب مّا كما علمتنا، ولكن العلم الحق وحق العلم بكل الغيوب، إنه يختص بك.

إذاً فـ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ يعني علماً وافياً بما أجبنا، فالإجابات بالنيات والطويات وهي محاور الإجابات غائبة عنا لا علم لنا بها، ثم إجابات الأقوال والأعمال وهي مظاهر الإجابات، إنها ليست بالتي تحلّق على كلِّ المسؤول عنهم هنا ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾؟.

ذلك، ومن جهة رابعة قد يكون موقف المساءلة أذهلهم عما كانوا يشهدون حياتهم وما أشهدهم الله حياتهم ومماتهم، وفي الحق إنه موقف مذهل مزلزل كلّ الخليقة مهما كانوا من الرسل.

فحين ينسى الإنسان ذاته أمام ربه فقد ينسى متعلقاته بأحرى، وما علم الرسل بما أجيبوا وسواه علماً لهم ذاتياً، ولو كان لكان منسياً كما الذوات،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

وقد تجمع هذه الثلاثة: «لا علم لنا سواك»[(١)] فلولاك لما كان لنا علم، ثم ولا علم لنا أمامك، فنحن صغار صغار أمامك يا ربّ فيما أنت أعلم به منا، وأما حين تستشهدنا بما أشهدتنا من أعمال عبادك فنقيم شهادتك بإذنك ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ...﴾[(٢)]، أجل فعند ذلك «طاشت الأحلام وذهلت العقول» فإذا رجعت القلوب إلى أماكنها ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾[(٣)] [(٤)].

---

(١) نور الثقلين ١: ٦٨٨ في معاني الأخبار بسند متصل عن موسى بن جعفر قال: قال الصادق عليه السلام في هذه الآية: «يقولون لا علم لنا سواك».

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧٥.

(٤) في الدر المنثور ٢: ٢٤٢ - أخرج الخطيب في تاريخه عن عطاء بن أبي رباح قال جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: والذي نفسي بيده لتفسرن لي آياً من كتاب الله عزّ وجلّ أو لأكفرن به فقال ابن عباس: ويحك أنا لها اليوم أيّ أي؟ قال: أخبرني عن قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال في آية أخرى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ [القصص: ٧٥]، فكيف علموا وقد قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: ١٠٩] - إلى قوله -: فقال ابن عباس: ثكلتك أمك يا بن الأزرق إن للقيامة أحوالاً وأهوالاً وفظائع وزلازل فإذا تشققت السماوات وتناثرت النجوم وذهب ضوء الشمس والقمر وذهلت الأمهات عن الأولاد وقذفت الحوامل ما في البطون وسجرت البحار ودكدكت الجبال ولم يلتفت والد إلى ولد ولا ولد إلى والد جيء بالجنة تلوح فيها قباب الدر والياقوت حتى تنصب على يمين العرش، ثم جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام من حديد ممسك بكلّ زمام سبعون ألف ملك لها عينان زرقاوان تجر الشفة السفلى أربعين عاماً تخطر كما يخطر الفحل ولو تركت لأتت على كلّ مؤمن وكافر ثم يؤتى بها حتى تنصب عن يسار العرش فتستأذن ربها في السجود فيأذن لها فتحمده بمحامد لم يسمع الخلائق بمثلها تقول لك الحمد يا إلهي إذ جعلتني أنتقم من أعدائك - إلى قوله - ويعلو سواد العيون بياضها ينادي كلّ آدمي يومئذ يا رب نفسي نفسي لا أسألك غيرها حتى أن إبراهيم ليتعلق بساق العرش ينادي يا رب نفسي نفسي لا أسألك غيرها ونبيكم صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يا رب أمتي أمتي لا همة له غيركم فعند ذلك يدعى بالأنبياء والرسل فيقال لهم: ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا طاشت...

فيا للهول من ذلك الاستجواب الرهيب العجيب الذي يذهل الرسل ما كانوا يعلمون بما علِّموا، فإنه يوم الحشر العظيم والحشر العميم من الملإ الأعلى والأدنى والمتوسطين من الملائكة والجنة والناس أجمعين، الاستجواب الذي يُراد به المواجهة، مواجهة المرسل إليهم أجمعين برسلهم أجمعين، مواجهة المصدقين منهم والمكذبين ليعلن في موقف الإعلان أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاؤوا من عند الله العزيز الحكيم، وها هم أولاء مسؤولون بين يدي رب العالمين في ذلك اليوم العظيم.

فالرسل - إذاً - يعلنون أن العلم الحق وحق العلم هو لله وحده لا شريك له، وأن ما لديهم من علم لا ينبغي أن يُدلُّوا به بحضرة صاحب العلم المحيط، بل وهم عما عندهم ذاهلون، تحويلاً للشهادة بأسرها إلى رب العالمين، وحين يأتي موقفها فهو الآمر لإقامة الشهادة ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[1] حين ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2] وهكذا يكون أدب المتعلم أمام المعلم أن يكل العلم إليه مهما علم ما علَّمه.

فكما أنه هو الذي يفتح مغاليق الشهادة الأرضية بأجوائها، وشهادة الأبدان بأعضائها، كذلك هو الذي يفتح مغاليق ألسنة سائر الشاهدين من المرسلين والكرام الكاتبين فيغرق المكلفون في خضمّ الشهادات أمام رب العالمين.

ذلك، ولأن المسيح ابن مريم عليه السلام هو الذي فُتِن قومه فيه، وهو الذي غام الجوّ حوله بمختلف الشبهات ومختلَقها فخاض أناس في أوهام وأساطير حول كونه وكيانه، لذلك هنا يختصه الخطاب كنموذج من ذلك الاستجواب على ملأِ الحشر ممن ألّهوه وعبدوه من دون الله، ومن ألْهوه

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٢) سورة المطففين، الآية: ٦.

وألغوه من درجات الصالحين، ومَن هم عوان حيث آمنوا به رسولاً، وأمام سائر المرسلين والمكلفين.

وحصالة البحث حول الآية أن ضرورة تلقي شهود الأعمال أعمال المكلفين ليست إلَّا قبل إلقائها، دون ما قبله برزخاً فضلاً عما قبله في حياة التكليف.

إذاً فـ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بغيب الأعمال التي ما شهدناها ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قد تعني - فيما عنت - أننا لا نعلم غيب أعمال المرسل إليهم، التي ما شهدناها، إلّا أن تُعلمنا إياها ولمّا، ثم الله أعلمهم فاستشهدهم حيث ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾(١).

ولو أن شهداء الأعمال كانوا يعلمونها ككلّ يوم الدنيا لاستكثروا من الخير وما مسهم السوء كما يقول الله تعالى عن الرسول ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾(٢).

وكيف يعلم كلّ الأعمال وهو لا يعرف المنافقين إلّا فيما قد يعرّفهم الله إياه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾(٣).

فكما قد تبرَّر ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بهول الموقف المُذهل، وأدب الحضور، كذلك يُبرر أنهم لمَّا يعلموا غيب الأعمال ثم أعلمهم الله ليشهدوا.

ولماذا ذلك السؤال العضال؟ لكي نعلم أنهم على محتدتهم الرسالي ليسوا على شيء أمام الله، وأن هول الموقف يذهلهم كما يذهل الآخرين:

فـ ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

(١) سورة القصص، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾[1].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾:

هنا ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بصيغة المضي دليل أن ذلك السؤال كان في حياته أو بعد رفعه وإن كان قد تشمل بعد موته ويوم القيامة مضياً للمستقبل قضيةَ تحقق الوقوع كأنه مضى وقد مضى،

فقد يصدق المروي عن النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دُعي بالأنبياء وأممها ثم يُدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها...»[2]

ثم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى...﴾[3] في استجواب آخر تؤكد أن هذه الاستجوابات كلها بعد رفعه، ثم بعد موته، ومن ثم يوم القيامة، مواقف ثلاثة قد تعنيها كلها ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بمرّيتها ف «إن الله إذا علم أن شيئاً كائن أخبر عنه خبر ما

(١) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.
(٢) الدر المنثور ٢: ٣٤٦ - أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ... يقول يا عيسى ابن مريم: اذكر نعمتي..
ثم يقول: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ...﴾ [المائدة: ١١٦] فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك... فيجاثيهم بين يدي الله ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

قد كان»[1] وهنا وفي آيات بعدها يعدُّ الله تعالى على المسيح ابن مريم عليه السلام خمساً أصيلة من نعمه، عليها أم عليه، تذكيراً بعظيم مننه تعالى عليه في هذه الإذاعة القرآنية وليذكر أولو الألباب فلا يقولوا: إنه الله أو ابن الله.

١ - ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ فقد كانت نعمة تكلُّمه في المهد تبرئةً لهما فهي نعمة عليهما، ثم نعمة تكلمه كهلاً برسالة الوحي تحقيقاً حقيقاً بالله لهما إذ أكد براءته وأمه مما قيل عليهما، وأكد بركتهما في هذه الرسالة السامية، فتكلم المسيح عليه السلام في المهد عنى واقعاً هو براءتهما، ومستقبلاً هو رسالته، فلم يكن وقتئذ نبياً، ومما يبرهنه ﴿وَكَهْلًا﴾ بعد «مهداً» حيث الفاصل بينهما خلوٌ عن ذلك التكلم الرسولي، فتكلمه في المهد كان رسالياً في بعديه وهو ﴿وَكَهْلًا﴾ كان رسولياً بكلِّ الأبعاد، ثم لا بُعد رسالياً ولا رسولياً لتكلمه بين «مهداً وكهلاً»، ومما تشهد له النعمة التالية:

٢ - ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إذاً فما كان معلّماً رسولياً هذه الأربع وهو في المهد، فإنما علمها ﴿وَكَهْلًا﴾ رسولاً برسالة الوحي.

وهنا ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قبل ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ علّه من ذكر العام قبل الخاص، حيث التوراة والإنجيل هما كتابان حكيمان، فقد علم قبلهما أو معهما كلّ كتاب وحكمة بالوحي، تحليقاً لوحيه الرسالي على كلِّ كتابات الوحي من ذي قبل وكل الحِكَم المطوية فيها.

ولأن تعليم هذه الأربع - وهو رسالته جمعاء - لا يكفي دليلاً عليها عند الناس فإلى نعمة ثالثة هي آيته الرسولية بعد الرسالية المعطاة إياه:

---

(١) نور الثقلين ١ : ٦٩٢ في تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام . . .

٣ - ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ... وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ وهذه ذكرى شاملة لعديد آياته ومديدها، تبييناً أنها كلها بإذن الله، فلم يكن منه إلَّا صنعة ونفخة ولكن الخلق إنما هو ﴿بِإِذْنِي﴾ إذناً غير مخول إلى المسيح عليه السلام حتى يكون هو الخالق وكيلاً أو بديلاً، فلم يأذن الله له في الخلق والإحياء أمَّا أشبه من آية، فإنما فعله في حقل الآيات - فقط - تخلق، دون تخليق، وتُحيي دون إحياء، وتبرئ دون إبراء، فالجانب الواقعي من هذه الآيات هو ﴿بِإِذْنِي﴾ والجانب الصوري هو من فعلك، فلا إذن تكويناً في هذه الأمور الربانية، فإنما هو إذن رباني فيها بموازاة ما فعله المسيح عليه السلام.

ذلك، ف ﴿تَخْلُقُ﴾ كـ«تخرج وتبرئ» لا تعني أن حقيقة هذه الأعمال هي له، فإن ﴿بِإِذْنِي﴾ تحولها عن ظاهر فعله إلى واقع فعل الله.

ولا يعني الإذن تخويلاً أو تحويلاً أم توكيلاً له في هذه الآيات الرسولية، وإنما يعني قرناً لإذنه تكويناً مع هذه المحاولات المأذونة تكليفاً، ف ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[1]؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

ذلك، وتكرار ﴿بِإِذْنِي﴾ مرات أربع في هذه الآيات الرسولية الأربع، دون أن تذكر مرة واحدة بعدها أجمع، إنه تكرار قاصد إلى تزييف القول: أنه أعطي الإذن علماً وقدرة ثم حققه تدريجياً عند كلّ آية.

كلَّا! فكما أنه لم يكن خالقاً بنفسه، كذلك لم يكن خالقاً بالإذن المخول تكويناً إليه، فإنما كان الله هو الذي يأذن في تحقيق كلّ آية آية، لا أنه يأذن له في تحقيق أية آية، ولأن الآية الربانية ليست إلَّا بعلم طليق وقدرة

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٦.

طليقة هما من اختصاصات الربوبية، فلا تنتقل إلى أيٍّ من المربوبين كما لا تنتقل ذاته إلى ذواتهم ولا صفاته إلى صفاتهم فإنه «باين عن خلقه وخلقه باين عنه»!.

وفي نظرة عميقة هنا يقتسم كيان الخلق للطير اقتساماً بيّناً بين المسيح المأذون وبين الله الخالق، فللمسيح ﴿تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ فلم يكن مخلوقه بالإذن الأول هو خلق الطير حتى في جسمها، وإنما ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ وهي شاكلتها الطينية، فقد يشاركه كلّ خالق من الطين وسواه كهيئة الطير دون أية ميزة هنا اللهم إلّا ﴿بِإِذْنِى﴾ حيث أذن له الله في ذلك الخلق تقدمة لما يأذن الله في خلق الطير، فالإذن الأول تكليفي بسماح ذلك الخلق أمراً من عنده تعالى لما يرومه من خلق الطير.

وعملية ثانية هي كالأولى في عدم كونها من الخلق ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ كمرحلة ثانية منه تحضيراً للتكوين الرباني ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ والإذن هنا ذو بُعْدين، فالأول كالأول في تشريعية الإذن، فلو لم يأذن الله له أولاً وثانياً لم يكن له ما فعله لغاية التكوين الرباني، وأما الثاني فهو تكوين الطير جسمياً وروحياً ومما صنعه بإذن الله كهيئة الطير ونفخ فيه، فالنص هنا ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ لا ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ فذلك الإذن التكويني موجّه إلى مصنوع المسيح المنفوخ فيه وليس إلى المسيح الصانع النافخ.

وليس ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ إلّا كـ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] حيث المتعلّق للإذن هو متعلق التكوين دون وسيط، بفارق أن سائر تكوينه تعالى هو خالص التكوين، وهذا تكوين كحجة على رسالة المسيح حيث كوّن طيراً بإذنه قرناً لـ ﴿تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٠.

وصيغة الخلق هنا بالنسبة للمسيح - ولا خالق إلّا الله - إنما تعني أنه صنع بإذن الله ما هو مادة لخلق الله دون سائر الصانعين لتماثيل حيث لا يخلقها الله حيواناً أو إنساناً، إذاً فبين صنع الإنسان وخلق الله تعالى عموم من وجه ومادة الاجتماع هي الآيات الرسولية التي فيها محاولات للرسول قرن فعل الله، ثم الإفتراق هو في خلق الله دون آية، وصنع غير الله دون قرن لخلق الآية الربانية.

ذلك، والإذن التكويني لا يتعلق بطبيعة الحال إلّا بمادة الخلق ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ دون وسيطه المسيح وإلّا لكان ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾.

ولو عُني من الإذن نيابة المسيح ووكالته عن الله في ذلك الخلق لم يعبر عنها بالإذن مهما كان «فتكوِّن» بديلة عن «فتكون» بل هو عبارة أخرى كـ «فتخلق طيراً بقوتي التي أعطيتك» وما أشبه.

ولو كان المسيح هنا هو الخالق المخوَّل والموكل بذلك الخلق لما صح طائل التعبير هكذا، فإنما العبارة الصالحة الناصحة عنه «وإذ تخلق من الطين طيراً بقوتي».

وهكذا تعني «وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني» فإشارة الإبراء وإرادته الظاهرة منه، وإذن التكوين منه تعالى، وكذلك ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ إخراجاً عن أجداثهم بإذن السماح التكليف، وإخراجاً عن الموت إلى الحياة بالإذن التكوين، فالإذن الأول موجه إلى المسيح نفسه والثاني موجه إلى الموتَى المخرَجين.

ذلك، وعبارة أخرى عن فعلة المسيح وإذن الله: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

فإن بإذن الله في خلق الطير ذو قواعد ثلاثة: - أخلق - فأنفخ..

فيكون طيراً، وكله ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مهما اختلف الإذن في «فيكون» عنه في الأولين تكويناً وتشريعاً.

وفي تذكير الضمير هناك: «فِيهِ - فَيَكُونُ» وتأنيثه هنا «فِيها - فَتَكُونُ» لمحة باهرة أن المنفوخ فيه لم يكن إلَّا ﴿ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ فقد ذكِّر الضمير اعتباراً بالطين وأنِّث اعتباراً بهيئة الطير، فلا عاذرة للمتشبثين بمثل هذه الآية في تخيل الولاية التكوينية لغير الله أياً كانوا.

ولأن تكملة الرسالة وتحقيقها كما يريد الله ليست إلَّا بالكف عمن ينقصها أو ينقضها فإلى نعمة رابعة:

٤ - ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فقد كفهم عن تغلُّب حجاجهم عليه، وأخيراً لما أرادوا صلبه كفهم عن صلبه ف ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1].

ثم «الأكمه» هو من ولد أعمى، كما الأعمى من ولد بصيراً ثم عمي، و«الأبرص» من به برص خِلقياً، ولا يقدر على تغيير الأصل إلّا من خلق الأصل.

ومن ثم ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِىۖ﴾ فالإخراج له نسبة إليك دعاءً وإشارة، ثم النسبة الأصيلة إلى الله حيث تخرج الموتى بإذني دون إذنك وحولك وقوتك، والإخراج بديل الإحياء، حيث يدل على إخراجهم من قبورهم، للتدليل على ثابت الموت دون ظاهره، فإن غير المقبور، الساكن الحس، قد لا يكون ميّتاً في الواقع.

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

وهنا الإذن التكويني متعلق بـ ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ حيث تتكون طيراً بإذن الله، فلم يقل ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ حتى يكون الإذن موجهاً إليه في ذلك التكوين، إذاً فالإذن هنا كـ«كن» في سائر التكوين ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

فإنما المحور في هذه الأربع وغيرها من آيات الله البينات رسولية ورسالية، هو إذن الله تكويناً لها قرينا بظاهر المحاولة في إبرازها، فلا فارق بين محاولات الرسل في إظهار الآيات وبين سائر المحاولات إلّا أن الله يأذن تكويناً عند محاولات الرسل تدليلاً على اختصاصهم بالله وصدقهم في رسالة الوحي، ولا يأذن عند ما سواها من محاولات فإنه تضليل، فقد يأذن في محاولات لإبراز آيات، ثم يأذن عندها بتحقيقها، والرسل إنما هم في ذلك الحقل بين إذنين اثنين: تكليفاً في الأوّل وتحقيقاً منه في الثاني، فـ ﴿تَخْلُقُ﴾ تسوية للطين على شاكلة الطير، ثم تحولاً له إلى الطير، كلاهما ﴿بِإِذْنِي﴾ ثم ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ كلاهما ﴿بِإِذْنِي﴾ و«تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ» محاولة الإبراء وتحققه كلاهما ﴿بِإِذْنِي﴾ ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ محاولة وتحققاً كلاهما ﴿بِإِذْنِي﴾.

فكما لم يكن واقع هذه الخوارق إلّا بإذن تكويني من الله، كذلك لم تكن المحاولات المناسبة لها إلّا بإذن تكليفي من الله، فليس الله ليأذن في حقل الآيات تحقيقاً إلّا بعدما يأذن لمحاولة الرسل كما يحق.

فلو صنع المسيح ألف صنعة، أم نفخ ألف نفخة في آلافات من السنين، لم يكن الله ليأذن في تحقق هذه المحاولات ما لم يأذن بها من ذي

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٠.

قبل فـ ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(١)] و﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[(٢)] فالقدرة والعلم الناتجة عنها الآيات يختصان بالله دون سواه.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾:

الحواريون هم المؤمنون الأولون بالسيد المسيح عليه السلام وترى ﴿أَوْحَيْتُ﴾ تعني وحي الرسالة؟ ولا يساعده ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى﴾ حيث الإيمان بالله يسبق وحي الرسالة بأَشَدِّه وأَشُدِّه، لأن الرسل مصطفون بين الأصفياء! بل ويضاده ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وما أشبه في الآية التالية حيث تدل على بسيط الإيمان لأضعفه دون وسيطه فضلاً عن أَشَدِّه بأشُدِّه.

إذاً فقد «ألهموا»[(٣)] دون رسالة مهما كانت جزئية هامشية، وذلك هو الإيمان الأوّل، ومن ثم الأخير، وهو بطبيعة الحال أكمل وأفضل: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[(٤)].

ذلك، وإلهام الإيمان في أصله أدنى من الإلهام إلى المؤمن كما ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾[(٥)] إذ كان أفضل وأعلى من وحي الإلهام إلى الحواريين. ولقد كان ذلك الإيحاء إليهم:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة هود، الآية: ١٤.

(٣) نور الثقلين ١: ٦٨٠ في تفسير العياشي عن محمد بن يوسف الصنعاني عن أبيه قال سألت أبا جعفر عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]؟ قال: ألهموا.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

(٥) سورة القصص، الآية: ٧.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾:

فلقد أوحى الله إليهم أن آمنوا عند هذه القالة الغائلة فقالوا ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ وعلّه بعد سابق الآيات الرسولية للمسيح عليه السلام.

وترى الموحى إليه بالرسالة يقول لمحور الرسالة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ شكًّا في استطاعة الله، وهتكاً في التعبير عن الله بـ ﴿رَبُّكَ﴾ دون «الرب - أو - ربنا - أو - رب العالمين» فكان جوابهم ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حيث هددوا توبيخاً بعدم الإيمان الصالح لحدّ اللّاإيمان.

وتوجيه الآية بما يُعارض نصها قبيح، مثل «هل تستطيع ربَّك»[1] زعماً أنها تعني هل تستطيع أن تطلب من ربك أو «هل يطيعك ربك؟»[2] سناداً لهما إلى معصوم، ذلك تزييف للثقل الأكبر فرية عليه بالثقل الأصغر، ولا سيما في الآخر فإنه يجعل الله في طوع عبده!.

وكلّ ذلك للحفاظ على زعم رسالتهم، فقد أوّلوا الاستطاعة بمعنى الإطاعة، والإطاعة بمعنى الطوع، والطوع بمعنى الرضا، سلسلة من التأويلات العليلة في ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ حتى يستطيعوا الحفاظ على عصمة متخيلة للحواريين.

وهذه من التأويلات الهارفة الخارفة من هؤلاء الله الذين لا يرجون لكلام الله وقاراً، وكأن الدلالات القرآنية لا تمشّى إلّا كما يهوون ويمشّون!.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤٦ - أخرج الحاكم وصححه الطبراني وابن مردويه عن عبد الرحمن بن غنم قال سألت معاذ بن جبل عن قول الحواريين: هل يستطيع ربك أو تستطيع ربّك؟ فقال: اقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل تستطيع ربّك.

(٢) المصدر أخرج ابن أبي حاتم عن عامر الشعبي أن علياً عليه السلام كان يقرؤها: هل يستطيع ربك؟، قال: هل يطيعك ربك؟، ومثله عن السدي.

وترى ما هو الفارق بين هذه القيلة الغيلة وبين قالة اليهود: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ. . .﴾[١] بل إن قالتهم أولاء أقل إساءة من قالة هؤلاء!.

ذلك، وفي اقتراح آية سماوية وبهذه الصيغة المهينة بعدما رأوا آيات المسيح عليه السلام الرسولية حيث ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ. . .﴾[٢] تدل على أن بزوغ دعوته كان بآيات إضافة إلى آية ولاده من ذي قبل.

إن في ذلك الاقتراح إساءَة أدب من هؤلاء، فأوحى إليهم أن آمنوا بي وبرسولي حيث كانت قالتهم قالة اللاإيمان.

فقد استحقوا من الله تنديدات شديدة تحملها الآيات التالية ومنها هنا ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: تقوى عن طغواهم على الله، وعن قيلة الشطحات وتطلُّبه مثل تلكم الآيات من الله، مسحوبة بالتشكك في استطاعة الله!.

فالمسيح عليه السلام الذي هو بنفسه آية وقد أتى بآيات فهم غرقى آيِه البينات، كيف يسوغ لهم أن يتطلبوا إليه ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ. . .﴾؟ فلذلك يوحي إليهم هنا ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾.

فعجباً من أناس يحاولون تأويل الآية خلاف نصها حفاظاً على عصمة متخيلة للحواريين في بداية أمرهم، تقديماً لها على عصمة القرآن العظيم وكما أوَّلوا عصيان آدم إلى ترك الأولى وما أشبه من تأويلات عليلات هي مس من كرامة العصمة القرآنية.

ولا يذكر الإنجيل قصة تطلُّب المائدة إلَّا بصورة أخرى هي أنكى وأضل

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

سبيلاً، أنهم تطلبوا منه أن يحول لهم الماء خمراً فآمنوا به لما تحول[1]! وبصورة أخرى هي أخف وطأة وأقل مساً من كرامة الإيمان[2] والصورة الواقعية هي المذكورة هنا بما يليها، محافظة على كرامة الله ومسيحه، وبياناً لقلة إيمان الحواريين رغم توفر الآيات الرسولية للسيد المسيح عليه السلام.

ذلك! وإلى عاذرتهم الغادرة المائرة المايدة في تطلب المائدة حيث تضيف إلى قالتهم غالة أخرى.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾:

فهنا لا ﴿أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ ولا ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ ولا ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ

---

(١) في إنجيل يوحنا ٣: ١ - ١١ - ١ - «وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك ٢ - ودعي أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس ٣ - ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له ليس لهم خمر ٤ - قال لها يسوع ما لي ولك يا امرأة لم تأت ساعتي بعد ٥ - قالت أمه للخدام مهما قال لكم فافعلوه ٦ - وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كلّ واحد مطرين أو ثلاثة ٧ - قال لهم يسوع املأوا والأجران ماء فملأوها إلى فوق ٨ - ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكإ فقدموا ٩ - فلما ذاق رئيس المتكإ الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هي ولكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء وعلموا دعاء رئيس المتكإ العريس ١٠ - وقال له كلّ إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن» هذه بداءة الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه!

(٢) ففي إنجيل متى في منتهى الإصحاح الخامس عشر: وأما يسوع فدعا تلاميذة وقال: إني أشفق على الجميع لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معي وليس لهم ما يأكلون.

ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق. فقال تلاميذه من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعاً هذا عدده؟ فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز؟ فقالوا: سبعة وقليل من صغار السمك. فأمر الجموع أن يتكئوا على الأرض وأخذ السبع خبزات والسمك وشكر وكسر وأعطى تلاميذه والتلاميذ أعطوا الجمع فأكل الجمع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبع سلال مملوءة والآكلون كانوا أربعة آلاف ما عدا النساء والأولاد.

أقول: وورد مثلها في سائر الأناجيل.

صَدَقْتَنَا﴾ ولا ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّـٰهِدِينَ﴾ لايبرر شيء منها ذلك السؤال الهاتك الفاتك، حيث الأكلُ غير مخصوص بمائدة السماء، والحاجة المدقعة إلى أكل، أم التبرك بمائدة السماء، تُقضى بعبارة أدبية كـ «هل تطلب من الله أن ينزل علينا مائدة. . .».

وهلّا تأخر ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ على الثلاثة الأخرى، تقدماً للحاجة الباطنية على البطنية الروحية؟.

فهذا مما يبرهن أن تطلبهم الخواء البواء لم يك يقصد منه - كأصل - مزيد الإيمان والإيقان، حيث الدور الأوّل فيه ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ ومن ثم ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

ثم كيف ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ فحين لم تطمئن قلوبهم بسائر الآيات البينات الرسولية العيسوية فلا دور للإيمان أو مزيدة بآية في سؤال الأكل، وكذلك ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ ومن ثم ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّـٰهِدِينَ﴾ أفلم يكونوا شاهدين في سابقة الآيات السابغة؟ أم هم أعلم من الله بنوعية الآيات القاطعة؟

فهذه الطلبة هي بعبارة أخرى نكران لآيات المسيح الرسولية، الظاهرة البارزة لهم من ذي قبل.

إذاً فما زادتهم هذه الأعذار القاحلة غير تخسير، ظلمات بعضها فوق بعض! فالأثر الوارد بحق خلوصهم وتخليصهم أولاء الحواريين مطروح أو مأوّل بغير البداية من أمرهم الإمر[1] كما في آية الصف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) نور الثقلين ١ : ٦٩٠ في عيون الأخبار بإسناده إلى علي بن الحسن الفضال عن أبيه قال قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام لِمَ سمي الحواريون حواريين؟ قال: أما عند الناس فإنهم سموا حواريين لأنهم كانوا قصارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل وهو اسم مشتق من الخبز الحوار، وأما عندنا فسُمي الحواريون حواريين لأنهم كانوا مخلصين في أنفسهم ومخلصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكر.

كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ...﴾[1] وذلك ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

ذلك، وقد تكون تطلبه آية المائدة من بعضهم دون جمعهم، ثم المخلصون منهم في آخر أمره هم - فقط - منهم، أم وممن سواهم، دون المستحق لعذاب الله فيهم في ذلك التهديد الحديد ﴿أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا...﴾[3].

فعلى أية حال فقد تعدى الحواريون في سؤالهم هذا طور العبودية بأدبها رغم تقدم الآيات الباهرة لرسالة المسيح. فأوحى إليهم الله ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ فقد تشابه أمرهم هذا تطلبات المشركين الطائلات الغائلات آيات يشتهونها بعد أهم الآيات وأعمها وهي القرآن العظيم، ولكنهم لحرمة إيمانهم الصالح في مستقبل أمرهم أوحى إليهم أن آمنوا.. وأجابهم فيها بدعاء المسيح عليه السلام عيداً وآية تنضم إلى سابقة الآيات السابغة مزيداً للحجة وتزويداً للمحجة، مهدداً إياهم بأليم العذاب إن كانوا بها كافرين:

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

وقد بدل «ربك» هنا بـ«ربنا» كما بدل الاستطاعة بواقع المستطاع ﴿أَنزِلْ﴾، وضمن دعاءه هذا الأديب الأريب سُؤلات ثلاثة لا تحمل من أسؤلتهم تلك إلّا ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ بغيار التعبير: ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾.

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٥٢، ٥٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٥.

فـ ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ كمفخرة في إجابة الدعاء أمام الغلاظ الشداد الألَدّاء من كفرة بني إسرائيل ﴿لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ مهما كنا مؤمنين من قبل مطمئنين بسابقة الآيات، فقد دمج نفسه في متطلبي هذه المائدة ولم يكن ليشك في رسالة نفسه ولا في استطاعة ربه استجابة سُؤله، فهذا أدب أوَّل في دعائه عليه السلام، خليصاً عما دعوه ليدعوا، من سوء الأدب وخلط الإرب.

وعيد المائدة فيه تجديد حياة الملة وتنشيط نفوس العائدين وذكرى لهم على مرِّ الزمن ﴿لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾.

ثم ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ هي الأخرى بعد معظم الآيات التي بعثت بها إلى بني إسرائيل، فكلما كثُرت الآيات كثُرت الاطمئنانات، لا لقصور في سابقة الآيات فإنها سابغات، وإنما لقصور متطلبيها وتقصيرهم، وليس منهم المسيح نفسه فإن «آيةً» منكرة ليست إلَّا للقاصرين والمقصرين، دون المسيح الذي هو نفسه آية ومعه كبريات الآيات، التي هي معرَّفة وهذه بجنبها منكّرة.

ومهما كانت تطلُّبه آية بعد سائر الآيات تطلبة خواء، ولكنها حين تتضمن «عيداً» فليس الله منها براء، ولا سيما إذا كانت هذه الآية رزقاً لأبدانهم مع كونها رزقاً لأرواحهم في بعدي العيد والآية.

ومن ثم ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ مما يلمح أنهم كلهم كانوا في حاجة ملمة مدققة إلى أكل لم يجدوه في أرض الله، فليطلبوه من خير الرازقين أن ينزله عليهم من سمائه فإنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[1] والقائل: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2].

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.

ولقد أخر حاجة الأكل كفرع - رغم ما قدموها كأصل - أدباً بارعاً في الدعاء في تقديم سُؤل الروح على سُؤل الجسم، فقد بان البون بين دعائهم الهارع القارع ودعائه البارع وأين دعاء من دعاء.

وكما البون بين هؤلاء الحواريين بداية ونهاية وبين حواري نبيِّنا محمد ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام [(١)].

ذلك ولكن أدب المسيح عليه السلام أثر فيهم كأفضل ما أمكن وأجمله بين هؤلاء اليهود الصلدين الصلتين حيث لازموه وساندوه في مختلف المجالات وكانوا مذياعاً لصوته الرسالي بين الناس[(٢)].

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾:

إذاً فلم تكن الإجابة بدعائهم المسيح أن يدعوا الله، فإنما هي بدعاء المسيح عليه السلام حيث خلص دعاءَه عما تقولوا وأخلص في دعائه مستنداً إلى تلكم الثلاث التي هي كلها مرضية عند الله.

---

(١) بحار الأنوار ١٤: ٢٧٤ - ٧ عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن حواري عيسى عليه السلام كانوا شيعته وإن شيعتنا حواريونا وما كان حواري عيسى عليه السلام بأطوع له من حوارينا لنا وإنما قال عيسى عليه السلام للحواريين: «من أنصاري إلى الله: قال الحواريون نحن أنصار الله» فلا والله ما نصروه من اليهود ولا قاتلوهم دونه وشيعتنا والله لم يزالوا منذ قبض الله عز ذكره رسوله ﷺ ينصرون ويقاتلون دوننا ويحرقون ويعذبون ويشردون في البلدان جزاهم الله عنا خيراً».

(٢) ففي البحار (٨) أحمد بن عبد الله عن أحمد بن محمد البرقي عن بعض أصحابه رفعه قال قال عيسى ابن مريم عليه السلام: يا معشر الحواريين لي إليكم حاجة اقضوها لي، قالوا: قُضيت حاجتك يا روح الله فقام فغسل أقدامهم فقالوا: كنا نحن أحق بهذا يا روح الله! فقال: إن أحق الناس بالخدمة العالم، إنما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم ثم قال عيسى عليه السلام: بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل.

هنا ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ﴾ برهان لا مرد له أنه أنزلها عليهم فإن الله لا يخلف الميعاد مهما كان الموعودون غير صالحين، وفيهم مثل السيد المسيح عليه السلام وهو من أصلح الصالحين حيث دعى ما دعى فأجيب هكذا فيما دعى، فالحوار حول: هل إن الله أنزل المائدة أم لم ينزلها؟ إنّه بوار من حوار.

وليست قصة استعفائهم المروية بالتي تنقض ما وعده الله مسيحه عليه السلام فلو أنه تعالى كان قابلاً لاستعفائهم لما كان واعداً إنجاز طلبتهم، ولو أن استعفاءهم يعقب العفو، لما كان - إذاً - إعفاء عما طلبه المسيح عليه السلام فأين دعاءه من دعائهم!.

وهنا التهديد الحديد بعد نزول آية المائدة بـ ﴿أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا. . .﴾[1] دليل باهر أنها ما كانت الآية الأولى النازلة لإثبات رسالته، بل هي آية مقترحة بعد آيات كافية، وهكذا يكون دور الآيات المقترحة أن يشمل المكذب بها عذاب الاستئصال، فكما أن تطلُّب آية المائدة بعد سائر الآيات الفضلى كان من حصائل عدم الإيمان فاستحقوا التنديد الشديد ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ كذلك هم يستحقون نكال العذاب إن كفروا بهذه الآية المقترحة.

وهكذا تصرح آيات عدة أن وعيد العذاب يختص بمقترحات الآيات إذا لم يؤمنوا بها، وبعد إذ أتتهم آيات بينات، ولو أن الحواريين لم يروا - قبل اقتراحهم آية المائدة - آيات المسيح عليه السلام لم يكن في اقتراحهم هذا كيفما كان تأنيب وقد أنبوا بـ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2] ولا وعد التعذيب بعدُ وقد أوعِدوا: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٢.

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكما عذب من كفر منهم أن جعلهم خنازير، ومن سواهم ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١].

ذلك، ومن ثم قد توحي ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ... إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ...﴾.

- حيث كان ذلك الإيحاء بعد اقتراحهم آية المائدة - أنهم كان عليهم ذلك الإيمان بما رأوا من آيات الله البينات، فلما تطلبوا مائدة من السماء أوحى إليهم ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ بما أريتكم تلكم الآيات.

وأما هذه المائدة السماوية كيف كانت وكم؟ فلنسكت عما سكت الله عنه مهما ورد في الآثار لكمّها وكيفها مختلف الأخبار.

وهنا بعد صُراح الوعد بإنزال المائدة تهديد شديد بمن يكفر بعده ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وذلك الوعيد هو قضية صارم الحجة لصارح المحجة، فكلما ازدادت الحجة عِدّة وعُدّة ازداد عذاب المتخلفين عِدّة وعُدّة، وكما نرى بمدار الزمن الرسالي عذابات الاستئصال وسواها على قدر النكرانات لآيات الرسالات بقدر الحجج البالغة فـ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٢] وعلى قدره حيث ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

ثم ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مستقبلاً قد يعني تفوُّق عذابهم على مستقبل العذابات دون ماضيها، فما ورد من جعل الكافرين منهم قردة وخنازير، تسوية بينهم وبين قردة من اليهود لا يطارد ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم والخنازير أنحس من القردة وقد لا يسبق سابق تحوُّل الإنسان

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة الطور، الآية: ١٦.

خنزيراً في أمة من الأمم ولا يلحقه لاحق، وفي الأثر عن الرسول الأطهر ﷺ «فمسخوا قردة وخنازير»[(١)]. ولأن جعل اليهود قردة كأصحاب السبت وارد في القرآن ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[(٢)].

ولم يرد جعلهم خنازير، وقد أوعد هنا ﴿عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأنبأ بالعذابين: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ...﴾[(٣)] لذلك قد يصدق هذا المروي عن الرسول ﷺ أنه قوله فما أجمله، أن البعض من هؤلاء الحواريين حولوا إلى خنازير[(٤)] حيث الوعيد كان راجعاً إليهم دون من سواهم من الذين كفروا بعد نزول المائدة.

ذلك وليس بذلك البعيد أن يمسخ جماعة من الحواريين خنازير وفيهم أنحس منهم وهو يهوذا الأسخريوطي الذي باع المسيح بدراهم ليصلبوه فشبه لهم وصلب بديلاً عنه، ثم الباقون هم الصالحون الممدوحون في آيتي آل عمران والصف.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤٨ - أخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٤) كما في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي الحسن عليه السلام قال: إن الخنازير من قوم عيسى سألوا نزول المائدة فلم يؤمنوا بها فمسخهم الله خنازير، وفيه عن عبد الصمد بن بندار قال سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: كانت الخنازير قوماً من القصارين كذبوا بالمائدة فمسخوا خنازير، أقول: والجمع بين الروايتين: والمروي عن رسول الله ﷺ أن جماعة منهم مُسخوا قردة وآخرين مُسخوا خنازير كلّ على قدر كفرهم بالمائدة.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾:

عرض لمذاهب اللاهوت:

إن للإنسان وما أشبه أياً كان من الخليقة المتكاملة بالعبودية لله قوسين صعودي ونزولي، فالنزولي هو دركات التخلف عن معرفة الله وعبوديته، والصعودي درجات فيهما.

ثم الصعودي، منه محبور هو به مأمور، وهو التقدُّم في جناحي المعرفة والعبودية، سيراً من نقطة العبودية إلى حضرة الربوبية دون أية وقفة في النشآت كلها، وحصيلتها كمال المعرفة والعبودية إلى غير ما حدٍّ ولا نهاية وكما عن أوَّل العارفين والعابدين: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك» وليس في هذا المجال أي منال إلَّا تتالي الدرجات فيهما، فرسالة ونبوة وما أشبه من مراتب العصمة، دون بنوَّة ولا نيابة ولا وكالة ولا خلافة عن الله، وهذا هو المسلك الصالح لصالحي عباد الله.

ثم إن هناك - خارجاً عن الحق المُرام - ضروباً ستة للسالك إلى الله بجناحي المعرفة والعبودية، مع كلٍّ ضربه من القوس النزولي لله سبحانه:

١ - من سالك إلى الله يستحق كرامة البنوَّة الربانية مجازياً وهو مستمر في مسالك المعرفة والعبودية، وقد تندد به ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ...﴾[1].

٢ - وآخر واصل إلى الله فلا عبادة إذاً لمكان الوصول إلى الغرض

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

الأسمى مستدلاً بمثل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1]؟

واليقين ذو درجات غير متناهية كما الله غير متناه ولا محدود.

٣ - وثالث حاصل بوصوله على جزء من ذات الربوبية فهو ولد له وكما يدعيه بعض النصارى للسيد المسيح عليه السلام وتندد به ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[2] فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً.

٤ - ورابع فإن بوصوله في ذات الربوبية.

٥ - وخامس اتحد بذات الله كما الأقانيم الثلاثة، حيث هي واحدة والواحدة هي الثلاثة!.

٦ - وسادس أصبح هو الله، وتنَدَّد به مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ - إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ - ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾.

فقد نزَّلوا الله تعالى في ذلك المسدس عن منزلة الربوبية إلى اتخاذ الولد تشريفاً أو حقيقة، أو خارجاً عن المعبودية، أو اتحاداً ثالوثياً أم وحدانياً بالعبد.

والقرآن ينسف كلَّ هذه الأقاويل المائلة عن جادة الصواب بصائب البراهين، تركيزاً على المسلك الأوّل من مسالك المعرفة والعبودية.

وهنا عرض بصورة التأنيب وسيرة التبرئة لعيسى ابن مريم من الثالوث المريمي كما هي من المختلقات الشركية للمسيحيين، كما تصرح الكنيسة الكاثوليكية: «كما أن المسيح لم يبق بشراً كذلك مريم أمه لم تبق من النساء بل انقلبت وينوسة: «إلهة» ولذلك تراهم كثيراً ما يحذفون أسماء الله مثل «يهوه» من كتب المزامير ويثبتون مكانها اسم مريم كقوله: احمدوا الله يا

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.

أولاد، فالكاثوليك لأجل إظهار عبوديتهم لمريم طووا هذا من الزبور وبدّلوه إلى «احمدوا مريم يا أولاد» وهذه الكنيسة كلّما صُلّي فيها مرة واحدة بالصلاة الربانية: «أبانا الذي في السماوات» يصلّى فيها بالصلاة المريمية عشرون مرة[١].

(١) عن الأب عبد الأحد داود الآشوري العراقي في كتابه الإنجيل والصليب، ويقول جرجس صال الإنجليزي في كتابه مقاله في الإسلام - عند ما يذكر بِدَع النصارى: من ذلك بدعة كان أصحابها يقلون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هي الله ويقربون لها أقراصاً مضفورة من الرقاق يقال لها: كلّيرس، وبها سُمي أصحاب هذه البدعة كلّيريّين، وهذه المقالة بألوهية مريم كان يقول بها بعض أساقفة المجمع النيقاوي حيث كانوا يزعمون أن مع الله إلهين هما عيسى ومريم ومن هذا كانوا يدعون مريميين وكان بعضهم يذهب إلى أنها تجردت عن الطبيعة البشرية وتألهت وليس هذا ببعيد عن مذهب قوم من نصارى عصرنا قد فسدت عقيدتهم حتى صاروا يدعونها تكملة الثالوث كأنما الثالوث ناقص لولاها وقد أنكر القرآن هذا الشطط لما فيه من الشرك ثم اتخذه محمد ذريعة للطعن في عقيدة التثليث» (ص ٦٧ - ٢٨ وهذا الكتاب ألفه جرجس صال رداً على الإسلام ونقله هاشم العربي إلى العربية).

والمجمع المسكوني الثالث ٤٣١ يلقب مريم «أم الله» وفي اللاهوت العقائدي أن مريم هي حقاً أم الله، تقول الكنيسة في قانون الرسل بان ابن الله ولد من مريم العذراء فهي أم الله من حيث هي أم ابن الله (ج ٣ ص ١٠٨ لمؤلفه لودويغ اوث) وفي مقالة للأب «انستاس الكرملي» المنشورة في العدد الرابع العشر من السنة الخامسة من مجلة الشرق الكاثوليكية البيروتية تحت عنوان: قدم التعبد للعذراء - بعد ذكر عبارة سفر التكوين في عداوة الحية للمرأة ونسلها وتفسير المرأة بالعذراء: ألا ترى أنك لا ترى من هذا النص شيئاً ينوه بالعذراء تنويهاً جلياً إلى أن جاء ذلك النبي العظيم «إيليا» الحي فأبرز عبادة العذراء من حيز الرمز والإبهام إلى عالم الصراحة والتبيان، ثم فسر هذه الصراحة والتبيان بما في سفر الملوك الثالث (بحسب تقسيم الكاتوليك) من أن إيليا حين كان مع غلامه في رأس الكرمل أمره سبع مرات أن يتطلع نحو البحر فأخبره الغلام بعد تطلعه المرة السابعة أنه رأى سحابة قدر راحة الرجل طالعة من البحر، فمن ذلك النشن قلت: إن هو إلّا صورة مريم على ما حققه المفسرون، بل وصورة الحبل بلا دنس أصلي، ثم قال: هذا أصل عبادة العذراء في الشرق العزيز وهو يرتقي إلى المائة العاشرة قبل المسيح والفضل في ذلك عائد إلى هذا النبي إيليا، العظيم، ثم قال: ولذلك كان أجداد الكرمليين أوّل من آمن أيضاً بالإله يسوع بعد الرسل والتلامذة وأول من أقام للعذراء معبداً بعد انتقالها إلى السماء بالنفس والجسد.

وهنا يبرِّئُ المسيح نفسه من هذه التقولة الحمقاء: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ من هذه الأقاويل ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ من هذا وسواه من باطل ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ إذ أنت ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ حيث ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ لا سواك ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ والنفس المضاف إلى صاحبها تعني نفس الذات، فلا تدل إذاً على أن لله نفساً كما لمن سواه.

هذا ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ﴾ حكاية عن الماضي دون مستقبل القيامة أم والبرزخ فـ ﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ لا تعني فترة حياته، بل هي حياته فيهم، ثم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ تعني رفعه إليه كما قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[1] فقد كان ذلك القول بعد ذلك التوفي.

وأما ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾[2] فالمشار إليه هو يوم العذاب والرحمة فهو منذ البرزخ إلى القيامة[3].

وهنا ﴿إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ تعني أنهم اتخذوا بعد الله ودونه هذين:

الابن والأم - الإلهين، وقد اعتقدوه في وجهين اثنين: أن الله تحول إلى رحم مريم فأصبح بصورة المسيح، وإذاً فلا إله أصلاً إلّا المسيح، ثم أمه لأنه والدته، أو أن الله أولد المسيح من مريم وهو باقٍ في ألوهيته بلا انتقال إلّا جزءاً منه صار هو المسيح، فـ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ ما تتحملهما معاً حيث تعني الإشراك بالله من هو أدنى منه.

وهنا لا نُصرُّ بتسمِّي مريم إلهة، حيث الاتخاذ أعم من التسمية كما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٤٩ - أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله سمع النبي ﷺ يقول: إذا كان يوم القيامة جمعت الأمم ودعى كلّ أناس بإمامهم، قال ويدعى عيسى فيقول لعيسى: يا عيسى أأنت قلت..

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[(١)].

وذلك الاتخاذ مشهود في الكنائس وسواها حيث يعتقدون لها السلطة الغيبية المخوَّلة، فلها أن تستجيب لمن شاءت أو تخيب!.

واتخاذ إله أو آلهة من دون الله صيغة متكررة في القرآن عن الإشراك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، سواء أنكر وجود الله أم أقرَّ به، إنكاراً عن بكرته كالماديين، أم بتأويل تحوُّله إلى إنسان كالمسيحيين القائلين بذلك التحول.

ذلك، وفي إجابة المسيح عليه السلام في ذلك الاستجواب الرباني بيان لأدب عبودي بارع، فتقديم ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه له سبحانه عن أن يكون له شريك، ثم ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ سلب لكينونة ذلك التقوُّل عن نفسه، لأنه ليس بحق له لمكان عبوديته، ولا على الله لمكان وحدته في ربوبيته، ثم ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ﴾ تعليق على المحال من كينونة هذه القولة أن ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ إذ لا يخفى عليك أيُّ كائن، ثم يبرهن أخيراً كلا السلب والإيجاب بـ ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ تأكيداً لحيطته العلمية الطليقة الربانية الوحيدة بـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وكلّ هذه واقعة وبوحي الله في صيغة التعبير حيث «لقاه الله»[(٢)] وقد أرعد منه استجوابه تعالى كلّ مفصل منه حتى وقع[(٣)]، ومن ثم يأتي بما قال لهم:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) الدر المنثور ١: ٣٤٩ - أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «فلقاه الله: سبحانك..
وفيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن عيسى حاجه ربه فحاج عيسى ربه والله لقاه حجته بقوله: أألنت...

(٣) المصدر عن ميسرة قال: لما قال الله: يا عيسى ابن مريم...

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ في حقل الألوهية ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾ دون ما تأمرني به نفسي أو عقلي مهما صلحتا، ولا ما أمرني غيري، فإنما أنا رسولك لا أقول لعبادك ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾ وهو هنا ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ دون تخصص لي في مقام العبودية فضلاً عن دعوى الربوبية، وماذا فعلوا وافتعلوا في هذه الدعوة التوحيدية؟ ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أشهد ماذا يقولون ويعملون أو يعتقدون بإشهادك لي إياها ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ على أرض الرسالة ثم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ بكلّ شهادة كما كنت أنت الرقيب عليهم ما دمت فيهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا تفلت منك فالتة ولا تفوت عنك فائتة.

وهنا ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ حصرٌ لتلك الرقابة فيه تعالى ككُلّ، وأما شهادته كسائر الشهود يوم القيامة فهي بما أشهده الله عليه من أعمالهم عند الشهادة أو قبلها يوم يقوم الأشهاد.

وقد يصدق الإنجيل دعوته التوحيدية كما في (متى ١٩: ١٦ - ١٩ ومرقس ١٠: ١٨ ولوقا ١٨: ١٩): «وإذا واحد تقدَّم وقال له أيها المعلم الصالح.. فقال له: لماذا تدعوني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلّا واحد وهو الله».

وكما يندد ببطرس ويعتبره شيطاناً إذ قال له: «حاشاك يا رب، فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان. أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (متى ١٢: ٨ ٢٢: ٢٣).

ولقد صدق الله دعواه هذه في هذه الإذاعة القرآنية حيث يحكي عنه مصدقاً إياه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(١).

فذلك هو السيد المسيح عليه السلام معرفة وعبودية ورسالة صالحة، ومن

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٤.

زهده عليه السلام ما يقول عنه الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «وإن شئتَ قلتُ في عيسى ابن مريم عليه السلام: فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخِشَن ويأكل الجَشِب، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظِلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه» (الخطبة ١٥٨ / ٢٨٣).

ذلك، ولا تتقيد شهادته يوم القيامة بما شهده منهم ما دام فيهم بل ويشهد على عامة أهل الكتاب ولم يكن فيهم إلّا فترة لا تحمل إلّا قطرة من بحرهم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1] وذلك بإشهاد الله له كلّ أعمالهم أولاً وأخيراً، مهما كانت له شهادة حاضرة ما كان فيهم، إذ لم يكن ليشهد إلّا أقوالاً وأعمالاً ممن كان يعاشرهم، دون أن يحشرهم كلهم ولا سيما في أحوالهم الغائبة.

إذاً فالشهادة الرسولية تحلّق في إلقائها على كافة الأقوال والأعمال والأحوال من الأمم، حيث تحلق عليها تلقياً بما يلقيه الله إياهم حاضرين لموقف الرسالة وغائبين، والقدر المعلوم من ذلك الإلقاء هو يوم يقوم الأشهاد[2] اللّهم إلّا ما استثني، وليست شهادة المسيح عليه السلام وغيره من

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٢) الدر المنثور ٢: ٣٤٩ أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال خطب رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ثم قال: ألا وإن أوّل الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم =

الشهداء إلَّا وسيطة بين الله والمكلفين من عبادة دونما استقلال لهم أو استغلال، فالله هو الذي أشهدهم تلقياً كما أشهد أعضاءهم كلهم والأرض بأجوائها وأشهد الكرام الكاتبين.

وليست هذه الشهادات الأربع يوم يقوم الأشهاد إلَّا لشهادة الله، لو أنهم تشككوا فيها، فليس لهم نكران شهادات أعضائهم والأرض بما عليها، مهما اجترؤوا على التشكك في سائر الشهادات.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾:

يا لله لمسيح الله في موقفه ذلك الرهيب العجيب! وأين أولئك الذين أطلقوا عليه هذه الفرية الرهيبة العجيبة، سواء أكانوا متخذيه وأمه إلهين من دون الله، أو المكتفين بهذه الفرية القاحلة الجاهلة نقلاً وتناقلاً، حيث يتبرّأ منها ذلك العبد الصالح الطاهر ذلك التبرؤ الواجف بموقفه منهم الراجف، ابتهالاً من أجلها إلى ربه ذلك الابتهال المنيف المنيب؟! هنا تسمع المسيح بعدما أجاب ما أجاب بكلِّ تأدب في ذلك الاستجواب، تسمعه يحاول أديباً أريباً لبيباً أن يغفر الله من يصلح للغفر منهم تقديماً لحق العذاب: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أولاء الناقلين عني ما نقلوه من فاتكة الفرية وهاتكتها، ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ولك أن تعذبهم استحقاقاً حقيقاً، عادلاً لعصيانهم وبهتانهم العظيم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أيَّ غفرٍ صالح في موقف الفضل والرحمة ما لم تناف العدالة ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمرك غير مغلوب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ حيث تضع عزتك في مواقف الحكمة دون ظلم، ولا رحمة غير صالحة، فإنك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

= فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم فيقال: أما هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم.

وترى كيف سمح المسيح عليه السلام في ذلك الموقف الرهيب أن يلفظ بغفرٍ لهم وهم أولاء الذين نكبوه ومسوا من كرامة لله فيما ارتكبوه، وهو القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1] وهــــؤلاء ممن أشركوا بالله افتراءً على الله وعلى رسول اللَّه؟.

علّ الوجه في تلك السماحة في ذلك السماح أنهم ما كانوا كلهم مشركين مهما كانوا مشتركين في نقل هذه القولة عنه عليه السلام فعلّهم انقسموا إلى أقسام كما هي الواقعة بين المنحرفين من المسيحيين، من ناقل عنه عليه السلام هذه، غير قائل به، أم قائل بالبنوة التشريفية للمسيح عليه السلام فالأمومة التشريفية لابن الله بهذا المعنى، أم غير قائل بهما بل هو عامل معهما معاملة عبدٍ مع الرب، التماساً منهما ما يُلتمس من الله وهو شرك خفيف، أم قائل بحقيقة البنوة له والأمومة لأمه، أم قائل بتحول الإله من لاهوت الألوهية إلى ناسوت البشرية تمثلاً بالمسيح، أماهيه من هرطقات كنسية جارفة هي دركات، ولكنها لا تحسب كلها بحساب الإشراك بالله المصطلح في القرآن وهو عبادة الصنم أو الطاغوت.

فمن الجائز أنه ذكر ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بصوغ التشكك اعتباراً بجائز الغفر عند الله عن بعض هذه الأخطاء.

ذلك، ومن الغَفر هنا أن يغفر لهم عن واقع فريتهم توفيقاً لهم للاستغفار والإنابة إلى الله، قبل موتهم، إذ ليس في كلامه عليه السلام ما يدل على، أو يشير إلى: أنَّ طلب الغفر لهم ينحو إلى ما بعد موتهم، حيث دعى ما دعى بعد توفِّيه وقبل وفاته، لكلِّ هؤلاء الذين كانوا معه وإلى يوم الدين، أن يغفر لهم إن استغفروا، أو يوفقهم لكي يستغفروا، فقد وقع دعاءه عليه السلام موقعه وهو أعلم بما وعى ودعى، والجواب الصواب عما دعى هو ما:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾:

هنا ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا...﴾ ضابطة ثابتة تحلّق على كلِّ الأقوال والأحوال والأعمال وهي: ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون هم الذين تصدّق أقوالهم أحوالهم وأعمالَهم كما تصدق أحوالهم، أعمالَهم وأقوالَهم، صدقاً في مثلثه، وهو النافع اليافع دون أي ضرر.

ذلك والصدق في المقال لزامه صدق الحال والفعال وكما يروى أن رجلاً من أهل البدو استوصى النبي ﷺ فوصاه أن لا يكذب ثم ذكر الرجل أن رعاية ما وصى به كفّه عن عامة المعاصي إذ ما من معصية عرضت إلّا ذكر أنه لو اقترفها ثم سئل عنها وجب عليه أن يعترف بها على نفسه ويخبر بها الناس فلم يقترفها مخافة ذلك.

ومن نفع الصدق أن كبائر الواجبات فعلاً وكبائر السيئات تركاً تكفر السئات كما في آيات، وأن مراحل خاصة من الصدق تؤهل للشفاعات.

فهؤلاء الناقلون عن المسيح ما نقلوا إن صدقوا في توبتهم عما أقروا وأوبتهم إلى الله، فقد ينفعهم صدقهم يوم القيامة، كما وأن الشرك الخفي من بعضهم قد يكفِّر بصالح الإيمان والأعمال.

إذاً فذلك من الأدب البارع للمسيح عليه السلام حيث جاء بهذه الشرطية تقديماً لـ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ حيث يستحقونه بما افتروا أم واقترفوا من إشراك بالله، تعليلاً بـ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وللمولى أن يعذب عباده بما قصروا، وتأخيرا لـ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فإنهم عبادك مهما قصروا ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فقضية العزة الحكيمة والحكمة العزيزة أن هؤلاء بين معذبين ومغفور لهم.

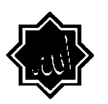
ثم وبالنسبة للصادقين الخالصين، العائشين الصدق يوم الدنيا ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ

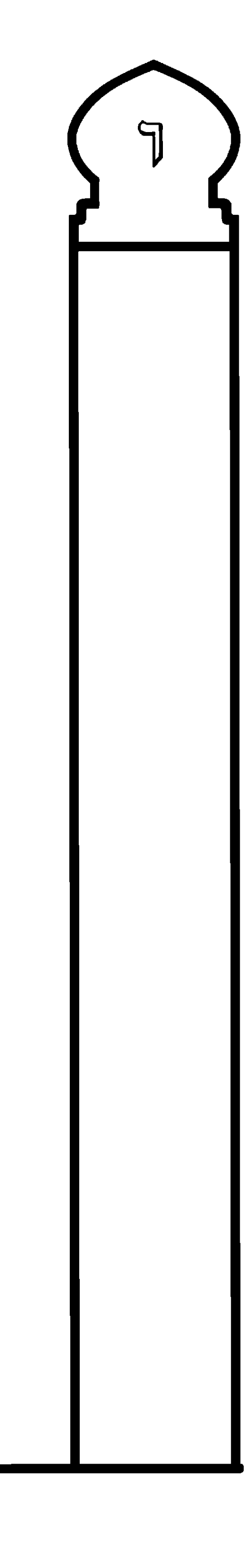
﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يوم الدين، وفوق هذه الجنات جنة الرضوان حيث ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ ومجمع الجنتين ولا سيما الأخرى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ذلك، ومن هؤلاء المرضيين الراضين السيد المسيح عليه السلام فإنه من أصدق الصادقين وأصلح الصالحين.

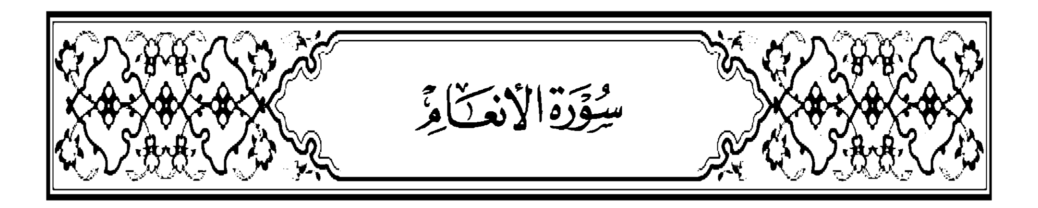
وهنا ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ تُحكِّم عرى الصلاحية الأكيدة لهؤلاء الصادقين أن ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ حيث وقّفوا حياتهم لمرضاة الله، كما ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ تسليماً لمرضاته، وذلك الرضوان المزدوج في هذا البين يتبلور أكثر في ذلك اليوم.

والمشيئة الطليقة الربانية بحق العباد تتبنّى مُلكه للكون أجمع وقدرته عليه أجمع، فـ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ والمُلك الحقيقي يحوي الملك الحقيقي، وهما ليسا إلّا لله دون سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾.





سُورَةُ الأَنعَامِ



مكية - وآياتها مائة وخمس وستون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ
أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى
ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ
مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ
فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن
قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم
مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ
بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِى قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ
لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ
وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا
لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ
مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾
قُلۡ سِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢)﴾

«سورة الأنعام» هي المكية الثانية في ترتيب التأليف القرآني، وأولاها الفاتحة، وهي فاتحة الكتاب تأليفاً وتنزيلاً.

وملامح آيات الأنعام في سياقها المتصل الأليف تدلنا على وحدتها تأليفاً وتنزيلاً، وكما تظافرت الرواية عن النبي ﷺ وأئمة هل بيته عليهم السلام أنها نزلت جملة واحدة في مكة[1] وشذرٌ من آياتها بين واحدة

(١) الدر المنثور ٣: ٢ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد» وفيه عن أنس عنه ﷺ مثله بزيادة - يسد الخافقين - وفيه عن جابر قال لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق» ومثله عن أبي بن كعب عنه في «جُمْلَةً واحِدَةً».
وفيه أخرج البيهقي في الشعب والخطيب في تاريخه عن علي بن أبي طالب قال: «أنزل القرآن خمساً خمساً ومن حفظ خمساً خمساً لم ينسه إلّا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة في ألف يشيعها من كلّ سماء سبعون ملكاً حتى أدوها إلى النبي ﷺ ما قرئت على عليل إلّا شفاه الله».
وفي نور الثقلين ١: ٦٩٦ عن أصول الكافي بإسناده إلى الحسن بن علي بن أبي حمزة رفعه قال: قال أبو عبد الله ﷺ: إن سورة الأنعام نزلت جملة - وذكر كما في ثواب الأعمال سواء إلّا في آخره: «ولو يعلم الناس ما في قراءتها ما تركوها».
وفي تفسير الفخر الرازي ١٢: ١٤١ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نزل علي سورة من القرآن جملة غير سورة الأنعام وما اجتمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها وقد بعث بها إلي مع جبريل مع خمسين ملكاً أو خمسين ألف ملك يزفونها ويحفونها حتى أقروها في صدري كما أقر الماء في الحوض ولقد أعزني الله وإياكم بها عزاً لا يذلنا أبداً، فيها دحض حجج المشركين ووعد من الله لا يخلفه» أقول في انحصار النزول جملة واحدة في الأنعام تأملات فإن السور الصغار والبعض من الكبار نزلت جملة واحدة. =

وتسع[1] التي قيل إنها مدنية، إنها كسائرها قد تكون مكِّية حيث السياق لا يصدِّق مدنيتها ولم يرد في ذلك نص يعتمد عليه.

وهي نموذجة كاملة عن القرآن المكي - ككلّ - عرضاً فصيحاً فسيحاً لهامة الربوبية الوحيدة، وسائر المواضيع العقيدية التي تعالجها من مبدئها إلى منتهاها، بكلِّ مقوماتها، مبرهنة عليها بالآيات الآفاقية مع الأنفسية،

= وفيه عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «نزلت الأنعام جملة شيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتكبير فمن قرأها سبحوا له إلى يوم القيامة».

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٢ : ١٤١ عن ابن عباس أنها مكية نزلت جملة واحدة فامتلأ منها الوادي وشيعها سبعون ألف ملك ونزلت الملائكة ما بين الأخشبين فدعا الرسول ﷺ الكتاب وكتبوها من ليلتهم إلّا ست آيات فإنها مدنيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى آخر الآيات الثلاث وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١].

وقيل المدنية فيها فقط ﴿قُلْ تَعَالَوْا . . .﴾ [الأنعام: ١٥١] والتي بعدها، وقيل هما آيتان غيرهما نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود وهو الذي قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقيل إنها مكية إلّا آية واحدة وهي ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقيل مدنيتها الآيات ٢٠ و٢٣ و٩١ و٩٣ و١١٤ و١٤١ و١٥١ و١٥٢ و١٥٣ كما في تفسير البرهان ١ : ٥١٤.

وقد تلمح الآية (٩١) أنها مدنية حيث تذكر أهل الكتاب: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] ولكنه قد يكفي وجود البعض من اليهود في العهد المكي مهما كانوا من السّفر المترددين للتجارة، حيث القرآن المكي سيحلق في دعوته كسائر القرآن على كافة المكلفين قلوا أو كثروا قاطنين في مكة أو مسافرين.

وهكذا يكون دور الآية (١١٤): ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] وهذه طبيعة حالة الخلط حينذاك بين المشركين والكتابيين في التسافر التجاري وغيره بين مكة والمدينة وغيرها.

ذلك ثم لا نجد في غيرهما من التسع أما هي أقل ما تلمح بمدنيتها!.

محلِّقة على الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس والحس، ويلمس كلَّ الأبعاد العقلية والحسية.

ذلك! مع بارع التناسق لمنهج العرض في شتى المشاهد والمعارض، آخذة على الأنفس أقطارها بالروعة الباهرة، باطنة وظاهرة، وبالحيوية الدافقة والإيقاع تصويرياً وتعبيرياً، مواجهةً النفوس من كلِّ دروبها ونوافذها وحتى في موسيقاها.

ومن ميِّزاتها بين سائر القرآن مكياً ومدنياً تكاثر الحجاج فيها على ناكري الحق المبين.

وكما نزلت - على حدِّ المروي عن الرسول ﷺ - معها موكب من الملائكة سدّاً ما بين الخافقين، نرى ذلك الموكب الملائكي لائحة الأعلام في قطاعات السورة، موكب ترتجُّ له النفس ويرتج معها الكون، وهي كالنهر الجاري المتدافق بالأمواج المتلاحقة، ما تكاد تصل موجة منها إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية.

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة متصل متواصل لا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع كلٌّ يعالج جانباً، إنّما هي موجات متفقات مع بعضها البعض، مما يبرهن نزولها جملة واحدة، فهي موحدة التأليف والتنزيل.

ولماذا سُميت سورة الأنعام؟.

١ - ألأنها تحمل «الأنعام» ستاً لم تحملها سواها لأكثر تقدير إلّا ثلاثاً[١]؟

٢ - أم ولأن هؤلاء المشركين الأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٢] ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ

---

(١) كسورة النحل في آياتها الثلاث ٥ - ٦٦ - ٨٠، والأنعام لـ(٣٢) مرة في القرآن كله نجدها (٦) مرات فقط في الأنعام و(٢٦) مرة في (٢٣) سورة أخرى.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾[1] وكأنه بحاجة إلى أكُل منها كما يقتسمون! تنزيلاً لساحة الربوبية إلى نازل الخلق المحتاجين بل وأحوج حيث حوّجوه إلى أنفسهم، ثم جعلوا ما لله لشركائهم؟.

٣ - أم ولأنهم شاقوا الله في التشريع تحريماً من الأنعام وتحليلاً: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾[2] - ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[3]؟ وهذه شيمة الأنعام التي لا تعقل وهم أضل منها سبيلاً، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[4]. ذلك! ثم لا نجد في سائر سور القرآن - المذكورة فيها الأنعام - أمثال هذه التنديدات والحجاجات على هؤلاء الأناسي الأنعام إلّا قليلاً، مما يفضل - ككلّ - تسمية سورة الأنعام باسمها.

٤ - ثم الملاحَظ فيها أنها تحمل آية يتيمة منقطعة النظير بحق الدواب ككلّ - الشاملة للأنعام بصورة أخرى هي أحرى، حيث تجعلها من المحشورين يوم الدين كسائر المكلفين وهي: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[5].

وذلك المربع بكلِّ زواياه وحواياه يرجح اسم الأنعام لهذه السورة كأحرى ما تسمّى به سورة في القرآن وكلّه أحرى مهما اختلفت الدرجات.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٩.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٢.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾:

نرى خمساً من السور تفتتح بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الفاتحة وهذه الأنعام والكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ وسبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ والفاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فالحمد في أم الكتاب هو أم الحمد في الكتاب لمكان ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المحلِّقة على ربوبية الله في الخلق والتدبير لكلٍّ كائن، وربوبية التشريع الأخير الشامل لكلٍّ شرعة ربانية.

والحمد في الكهف ناح منحى التشريع، وفي سبأ يختص مُلكه ومِلكه السماوات والأرض و«في الآخرة» جزاءً وفاقاً عدلاً وفضلاً في حقلي الثواب والعقاب، وفي الفاطر فَطْراً للسماوات والأرض وجعلاً للرسل الملائكية حملة للتشريع وعُمَّالاً للتكوين.

ذلك، وهنا في الأنعام حمداً لخالقيته ككلّ إبداعاً وربوبيةً وجعلاً للظلمات والنور، وهي مثلثة الجهات فإن فيها «ردٌّ على ثلاثة أصناف منهم، فلما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كان رداً على الدهرية الذين قالوا: إن الأشياء لا بدءَ لها وهي دائمة، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فكان رداً على الثنوية الذين قالوا: إن النور والظلمة هما المدبران، ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فكان رداً على مشركي العرب - وسواهم - الذين قالوا: «إن أوثاننا آلهة...»[1].

(١) نور الثقلين ١: ٦٩٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي قال أبو محمد الحسن العسكري ذكر =

وهنا ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ تنديد شديد في ﴿يَعْدِلُونَ﴾ حيث المعترف بالربوبية الكبرى الإلهية كيف يسمح لنفسه أن يعدل به من المربوبين الذين لا يربون أنفسهم فضلاً عمن سواهم.

و﴿يَعْدِلُونَ﴾ من «العِدل» لا «العَدل» إذ العَدل لا يتعدى بالباء فإنما عدل فيهم - بينهم - عليهم - و«بربهم» دليل آخر بعد دليل التنديد أنه جعلُ عِدلٍ ونِدٍّ، فهم يعدلون بربهم من المربوبين.

فالعِدل قد يكون عَدلاً وهو بين المتساويين في الكمال، وهو من أعدل العدل، وقد يكون ظلماً وهو بين المختلفين في الكمال ولا سيما بين الرب والمربوب وهو من أظلم الظلم.

ثم العِدلُ الظُّلم هو في كلِّ دركاته ظلم، عِدلاً بذات الله أم بصفاته أم بأفعاله، عِدلاً في ألوهيته أو في ربوبيته، عِدلاً في معبوديته وحرمته أم أيِّ عِدل به من خلقه.

فذلك محظور في كافة حقوله حتى في عبارة اللفظ فضلاً عن اعتقاد الجنان وعمل الأركان.

= عند الصادق عليه السلام الجدال في الدين وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين عليهم السلام قد نهوا عنه فقال الصادق عليه السلام: لم ينه عنه مطلقاً ولكنه نهي عن الجدال بغير التي هي أحسن أما تسمعون قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العَنكبوت: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: ١٢٥] - إلى أن قال -: «قال الصادق عليه السلام ولقد حدثني أبي الباقر عن جدّي علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي سيد الشهداء عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أنه اجتمع يوماً عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل خمسة أديان اليهود والنصارى والدهرية والثنوية ومشركو العرب - إلى أن قال بعد سرد الحجج كلها وقد تأتي في المتن قطاعات منها - قالوا: ما رأينا مثل حجتك يا محمد نشهد أنك رسول الله وقال الصادق عليه السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام فأنزل الله تعالى ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي. . .﴾ [الأنعَام: ١] وكان في هذه الآية رد على ثلاثة أصناف. . .».

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم كلُّ الكافرين حيث العادلون بالله هنا هم كلُّ العادلين، من كافر بالله نكراناً لوجوده حيث يعدل به المادة كأنها هي الأزلية الخالقة، أو مشرك بالله عِدلاً في الربوبية أو المعبودية، سواءً عبد مع غير اللهِ اللهَ، أم لم يعبد معه اللهَ، أو مُراءٍ أم معتقد تأثيراً لغير الله مع الله.

فالعِدل بالله يعم الإلحاد والإشراك وسواهما، مهما لم يكن الملحد معترفاً بوجود الله، حيث يؤلِّه المادة كأنها الله، أو لم يكن المشرك يعبد مع وثنه اللهَ، حيث يعبده كما يُعبد اللهُ.

إذاً فعِدل الرب بما سواه أم عِدل ما سواه به في أي من شؤون الألوهية والربوبية، خارج عن العَدل في القياس، بل لا قياس بالله لما سواه فإنه «باين عن خلقه وخلقه باين عنه» ليس يشاركهم في شيء حتى يُعدل به أو يُفضَّل عليه.

هذه ثلاث في أولى الآيات، وكما في هذه الآيات الثلاث نجد موجات ثلاث، أَولاها في أُولاها حيث تذرع الوجود الكوني كلّه في نفسها، الثانية الوجود الإنساني كله، والثالثة فيها إحاطة الألوهية بالوجودين كليهما.

آيتنا هذه تبدأ ببرهان لطيف حفيف على حدوث الكون كلِّه، المعبر عنه بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: «الحمد لله خالق السماوات والأرض». . . .

فإن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تدلان بحدوثهما - ذاتياً وصفاتياً وأفعالياً - على أن هناك محدِثاً لا يجانسهما، فهو الذي أحدثهما، ولا مشاحة في تسميته، فنحن نقول عنه: «الله» وليس المادة لأنها أصلهما الوالد لهما، وليست الخالقة إياهما.

ذلك وإلى قول فصل عما لمحت له الآية، من حجاج الرسول ﷺ على المشركين: «وأنتم فما الذي دعاكم إلى القول بأن الأشياء لا بدءَ لها

وهي دائمة لم تزل ولا تزال؟ لأنا لا نحكم إلّا بما نشاهد ولم نجد للأشياء حدثاً فحكمنا بأنها لم تزل ولم نجد لها انقضاءً وفناءً فحكمنا بأنها لا تزال.

فوجدتم لها قدماً أم وجدتم لها بقاءً أبد الأبد؟ فإن قلتم إنكم وجدتم ذلك أنهضتم لأنفسكم أنكم لم تزالوا على هيئتكم وعقولكم بلا نهاية ولا تزالون كذلك، ولئن قلتم هذا دفعتم العيان وكذبكم العالمون الذين يشاهدونكم؟.

بل لم نشاهد لها قدماً ولا بقاءً أبد الأبد.

فلم صرتم بأن تحكموا بالقدم والبقاء دائماً لأنكم لم تشاهدوا حدوثها وانقضاءها أولى من تارك التميز لها مثلكم فيحكم لها بالحدوث والانقضاء والانقطاع لأنه لم يشاهد لها قدماً ولا بقاءً أبد الأبد»؟.

- إلى هنا نجده شكّكهم في قولة الأزلية للعالم، ثم نراه يثبت حدوثه كالتالي: «أولستم تشاهدون الليل والنهار وأن أحدهما بعد الآخر؟» - نعم - أترونهما لم يزالا ولا يزالان؟ - نعم - أفيجوز عندكم اجتماع الليل والنهار؟ - لا - فإذاً ينقطع أحدهما عن الآخر فيسبق أحدهما ويكون الثاني جارياً بعده؟ - كذلك هو - فقد حكمتم بحدوث ما تقدم من ليل ونهار ولم تشاهدوهما فلا تنكروا لله قدرة - أتقولون ما قبلكم من الليل والنهار متناه أو غير متناه؟ فإن قلتم متناه فقد وصل إليكم آخر بلا نهاية لأوّله، وإن قلتم إنه متناه فقد كان ولا شيء منهما؟ - نعم -

أقلتم إن العالم قديم غير محدث وأنتم عارفون بمعنى ما أقررتم به ومعنى ما جحدتموه؟ - نعم - فهذا الذي تشاهدونه من الأشياء بعضها إلى بعض مفتقر لأنه لا قوام لبعض إلّا بما يتصل به، ألا ترى البناء محتاجاً بعض أجزائه إلى بعض وإلّا لم يبق ولم يستحكم، وكذلك ساير ما ترى،

فإذا كان هذا المحتاج بعضه إلى بعض لقوته وتمامه هو القديم فأخبروني أن لو كان محدثاً كيف كان يكون وماذا تكون صفته؟.

فبهتوا وعلموا أنهم لا يجدون للحدث صفة يصفونه بها إلّا وهي موجودة في هذا الذي زعموا أنه قديم فوجموا وقالوا: «سننظر في أمرنا»[١].

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

وذلك التعبير عن ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ هو منقطع النظير في القرآن كلِّه، ولماذا بالنسبة لها ﴿وَجَعَلَ﴾ دون «خالق - أو - خلق» حيث اختص بالسماوات والأرض؟.

علَّه لأن ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ مادياً وروحياً، هما لواحق الخلق ولزاماته في عالم الاختبار والاختيار.

وجمعية الظلمات هنا وفي سائر آياتها الثلاث والعشرين، وجاه وحدة النور، هي للتدليل على أن صراط الله واحد غير مختلف، كما هو غير متخلف، ولكن السبل الأخرى متشتتة متشعبة.

ثم ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ كما ﴿وَٱلنُّورَ﴾ - محسوسةً ومعقولةً - إنها ليست إلَّا من جعْل الله دون سواه، حتى تتبنى الظلمات إلهاً آخر أم مخلوقة لإله الشرِّ كما يقوله الثنوية، فإنما الله هو الذي جعل الظلمات كما جعل النور، كلًّا لمصلحة ابتلائية تربوية في عالم الاختيار والاختبار، دون تسيير لا إلى النور ولا إلى الظلمات، فإنما ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٢].

ذلك! ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ الخالق للسماوات والأرض الذي جعل الظلمات والنور، ﴿يَعْدِلُونَ﴾ به غيره، عِدلاً

(١) الاحتجاج للطبري عنه عليه السلام.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

للظلمات بالنور وهم يعرفونها! كما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ - بِرَبِّهِمْ﴾ ذلك الخالق الجاعل ﴿يَعْدِلُونَ﴾ عدلاً به من خلقه وهم ظلمات بالنسبة لخالق النور والظلمات.

فذلك العِدل الانحراف الانجراف تطارده وحدة الخالقية والخالقية الوحيدة غير الوهيدة، تسوية بالله سواه وهي ضلال مبين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[2] - ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[3] كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً[4].

ذلكم الله ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ بالله سواه عِدلاً بين الظلمات والنور وبين الجور والعدل»[5].

«فمن ساوى ربنا بشيء فقد عدل به والعادل به كافر بما تنزلت به محكمات آياته، ونطقت به شواهد حجج بيناته، لأنه الله الذي لم يتناه في العقول فيكون في نَهْب كيفها مكيفاً، وفي حواصل روايات همم النفوس محدوداً معرَّفاً، المنشئ أصناف الأشياء بلا رويَّة احتاج إليها، ولا قريحة

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٠.

(٤) نور الثقلين ١ : ٧٠١ في تهذيب الأحكام في الموثق عن أبي عبد الله قال: «وإذا قرأتم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] أن يقول: كذب العادلون بالله، قلت لهم فإن لم يقل الرجل شيئاً من هذا إذا قرأ؟ قال: ليس عليه شيء...».

(٥) المصدر عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: «الكلُّ صلاة وقتان ووقت يوم الجمعة زوال الشمس ثم تلا هذه الآية قال: «يعدلون بين الظلمات والنور وبين الجور والعدل» وفيه «كذب العادلون بالله إذ شبهوه بمثل أصنامهم وحلوه حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزوه بتقدير منتج خواطرهم، وقدروه على الخلق المختلفة القوى بقرايح عقولهم».

غريزة أضمرها، ولا تجربة أفادها من موجودات الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور»[(١)].

وترى ما هو دور «ثم» وهي للتراخي؟ علَّه أنهم بعد التصديق والاعتراف بخالق السماوات والأرض وجاعل الظلمات والنور، بعد هذه الطائلة التي تصدقها الفطرة والعقلية الإنسانية وتصدقها الكائنات بأسرها، هم أولاء بعد كلٍّ ذلك ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ المربوبين... وهذه هي اللمسة الأولى من الحجاج لتوحيد المبدأ ثم:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾:

هنا دور لخصوص الإنسان بعد عموم الخلق للخلق كلِّه، لمسة ثانية تندد بالممترين بحق الحق واليوم الحق.

ذلك الإنسان الذي هو نموذج عن الكون كلِّه، وكما يُروى عن علي عليه السلام : «أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر».

فالذي ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ بعدما خلق السماوات والأرض ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ نقلة عجيبة من عتمة الطين المظلم عن الحياة إلى نور الحياة البهيجة الوليجة في ذلك الطين الميت.

ولقد كان بالجدير أن تنقل تلك النقلة الهائلة العاقلة يقيناً صالحاً إلى قلوب المنقولين، بعد طائل خلقهم من طين كما خلق السماوات والأرضين، ولكن ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

---

(١) المصدر عن كتاب التوحيد خطبة لعلي عليه السلام يقول فيها: ....

إنه ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ حياة عاجلة لدار الاختيار والاختبار، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لعودة الحياة بعد الممات ﴿عِندَهُۥۖ﴾ لا سواه ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ المأجلون ﴿تَمْتَرُونَ﴾ في الحياة الأخرى وهي أحرى وأنتم تعلمون أنه ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾.

ترى ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ تعني - فقط - الأجل المحتوم شخصياً وجمعياً وجاه الأجل المعلق كذلك؟.

إنه بطليق العبارة قد يعنيهما، حيث الأجل المسمَّى هو المقطوع، وكلُّ الآجال عند الله مقطوعة.

ومما يشهد للأول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) حيث تعني الأجلين قبل القيامة، معلقاً ومحتوماً.

و﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ...﴾(٢) وكثيرة أمثالها.

ومما يدل على الثاني: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(٣) و﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآىِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾(٤) وكثيرة أمثالها.

ذلك، طالما الأجل المسمى بالنسبة للكون كلِّه يخص الثاني، وهو بالنسبة للإنسان يعم الآجال الثلاثة، الأجل الفردي المحتوم لكلِّ أحد، ثم

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الروم، الآية: ٨.

الجماعي ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[(١)] ومن ثم الأجل الأخير وهو القيامة.

ذلك، وقد تعني ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ مثلث الأجل، دنياً وبرزخاً وعقبىً، ثم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ تختص بالآجال المحتومة، حيث تعني ثابت العندية التي لا حِوَل عنها، ولكن الأجل المعلق - وإن كان عنده - لكنه قد يحوّل عنه، أم تعني ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ بتنوين العظيم أجل القيامة الكبرى لأنه عظيم بين الآجال، أم ومجاراة مع الذين يخيل إليهم أن الآجال الدنيوية هي عندهم[(٢)].

وترى ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ الشامل على الأبدال كلّ الآجال هلّا تشمل الأجل الأوّل وهو بقية بقاء الجنين في الرحم؟ ﴿ثُمَّ﴾ المراخية هنا قد تعني الآجال منذ الولادة، لا سيما وأن الأجل قبلها ليس مصبَّ أمرٍ تربوي.

فترى ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ هيكلاً إنسانياً حياً لأوّل مرة هو أهون، أم الإعادة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(٣)] مهما لم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

(٢) نور الثقلين ١ : ٧٠٣ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢] قال: الأجل الذي غير مسمى موقوف يقدم منه ما شاء ويؤخر ما شاء وأما الأجل المسمى فهو الذي ينزل مما يريد أن يكون من ليلة القدر إلى مثلها من قابل فذلك قول الله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].
وفيه عن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢] قال: المسمّى ما سُمي لملك الموت في تلك الليلة وهو الذي قال الله: ﴿إِذَا جَآءَ . . .﴾ [الأنعام: ٦١] وهو الذي سمي لملك الموت في ليلة القدر والآخر له فيه المشية «إن شاء قدّمه وإن شاء أخره».
وفيه عن حصين عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: «الأجل الأول هو ما نبذه إلى الملائكة والرسل والأنبياء والأجل المسمى عنده هو الذي ستره الله عن الخلائق».

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٧.

يكن عند الله في خلقه هيّن وأهون، فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وهنا ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ هي من عساكر البراهين القرآنية على أن خلق الإنسان الأول ليس إلَّا بقفزة طينية، دون انتسال من حيوان آخر إنساناً أو غير إنسان، ومن غريب الوفق العددي بين النطفة والطين أن كلًّا منهما يُذكر (١٢) مرة!.

ولو أن الإنسان كان خليق التكامل لكان صحيح التعبير عن خلقه عبارة آخر الحلقات، ولا إشارة لخلقة غير طينية للإنسان في القرآن كلِّه.

ولأن «كم» تعم الأرواح إلى الأجساد، بل الأرواح أحرى في الكيان الإنساني من الأجساد، فقد تعني ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ خلق الأرواح من الطين كما الأجساد، وكما تدل عليه أمثال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[2] وسائر الآيات المصرحة بخلق الإنسان - بجزئيه - من تراب - طين - ماءٍ - نطفة أماهيه من مادة.

و«قلوبهم» وجاه «أبدانهم» في الأثر، قد تعني أرواحهم، وذلك من تجاوب الكتاب والسنة في جسمانية الأرواح كما الأجساد مهما اختلف جسم عن جسم[3].

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٣) نور الثقلين ١ : ٧٠٢ في أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن ربعي ابن عبد الله عن رجل عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «إن الله عزّ وجلّ خلق النبيين من طينة عليين قلوبهم وأبدانهم وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة وجعل خلق أبدان المؤمنين من دون ذلك وخلق الكفار من طينة سجين قلوبهم وأبدانهم فخلط بين الطينتين فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن ومن ها هنا يصيب المؤمن السيئة ومن ها هنا يصيب الكافر الحسنة فقلوب المؤمنين تحن إلى ما خلقوا منه وقلوب الكفار تحن إلى ما خلقوا منه».

ذلك، وإلى لمسة ثالثة هي الحيطة الربانية على الكون كلِّه:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾:

ولا تعني ﴿فِى﴾ هنا ظرفية هذا الكون لذات الله سبحانه، إنَّما هو ظرف لألوهيته وربوبيته للكون كله. ف ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾(١) رداً على مزعمة أن ألوهيته خاصة بالسماوات وللأرض رب مخوّل من عنده أمن هو؟.

وأما ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾(٢) فهم عمال الله من ملائكة السماء وليس هو الله كما فصلنا القول فيه عندها.

كلّا! بل إن ربوبيته تعالى تشمل السماوات والأرض على سواءٍ، و﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ على سواء، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ في مثلث الزمان على سواء، وهو في مستقبله أخفى من ﴿سِرَّكُمْ﴾ إذ لا تعلمون أنتم مستقبل مكاسبكم ونياتكم وطوياتكم: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾(٣).

و﴿مَا تَكْسِبُونَ﴾ هنا قد تعم مكاسب السر والجهر في النشآت الثلاث، إلى ﴿مَا تَكْسِبُونَ﴾ من نيات وطويات وأعمال في المستقبل بمكاسبها.

وقد تعني ﴿سِرَّكُمْ﴾ هنا ما أسررتم وأنتم تعلمون، أمّا أسِرَّ عنكم وأنتم تجهلون، وهو الأخفى من السرِّ.

ذلك، وخير تفسير لآيتنا هذه في آية الزخرف (٨٤) وعلى ضوئهما ما يُروى من حوار بذلك الشأن عن الامام الصادق عليه السلام حيث يُجيب بعدما يسأل عنها: «كذلك هو في كلِّ مكان» قال: بذاته؟ قال: ويحك إن الأماكن أقدار، فإذا قلت: في مكان بذاته، لزمك أن تقول: في أقدار وغير ذلك،

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.
(٢) سورة الملك، الآية: ١٦.
(٣) سورة طه، الآية: ٧.

ولكن هو بائن من خلقه، محيط بما خلق علماً وقدرة وإحاطة وسلطاناً وليس علمه بما في الأرض بأقل مما في السماء، ولا يبعد منه شيء، والأشياء له سواء علماً وقدرة وسلطاناً وملكاً وإحاطة(١).

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾:

﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ هي الآيات الدالات على ربوبيته تكويناً وتشريعاً، أم قد تعم الآيات الأنفسية إلى الآفاقية، وإيتائها - إذاً - بروزها مهما أخفوها أو اختفوا عنها، فقد تبرز الآيات الفطرية إذا انقطعت الأسباب وحارت دونه الألباب، فينقطعون اضطرارياً إلى الله ثم هم معرضون: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(٢).

ولا يعني إعراضُهم عن آيات ربهم إلَّا إعراضهم عن ربهم تعمية عليهم كونه وكيانه، وهم يعيشون آيات ربهم ليل نهار!.

ذلك، والمفروض على من يعرف ربه أو يحتمل كونه أن يفتش استنباطاً عن آياته حتى تكتمل معرفته به على ضوئها، وحتى الذي ينكره، عليه أن يبرهن على نكرانه فليفتش عما يدعي كونه من آياته، فإما سلباً كما خيّل إليه - ولن يكون - وإمَّا إيجاباً كما تهديه إليه فطرته وعقليته والكون بأسره، حيث الكائنات ككلّ هي براهين ساطعة قاطعة على وجود الله وتوحيده.

والمشتاق إلى ربه، المفتاق إلى هدايته ورحمته، ليس ليصبر حتى تأتيه آياتٌ من ربه، بل ويفحص عنها فحصاً باحثاً ماحصاً غير قالص ولا فالس، ولكي يزداد به إيماناً وفيه اطمئناناً.

---

(١) تفسير البرهان ١: ٥١٧ - ابن بابويه بسند متصل عن محمد بن النعمان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] قال: «هو كذلك في كلّ مكان»....

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

فالناس وِجاه آيات ربهم على ضروب شتى، فمنهم من يفتش عنها، ومنهم المعرض عنها، ومنهم عوان بينهما، فالأولون هم المتقون والآخرون هم الطاغون، والعوان بينهما عوان بينهما.

وهذه موجة عريضة في مطلع السورة، تخاطب ضمير الإنسان بدليل آيات الرب الكامنة في الأنفس، والمكتملة في الآفاق.

وليس ذلك خطاباً لاهوتياً فلسفياً يختص بالمتفلسفين واللّاهوتيين، إنما هو خطاب موجه إلى كلِّ الفطر والعقول والحواس والعلوم في كلِّ الحقول على درجاتها.

والتذكير بآيات ربهم هو الموجه الغامرة الكون كلّه، بكلِّ الآيات الربانية آفاقية وأنفسية، وترى ما هو سبب إعراضهم عن آيات ربهم حين تأتيهم؟:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾:

«الحق» - ككلّ - الآتي من قبل الحق، المزود بآيات ربوبيته، إنهم كذبوه إعراضاً عنها كيلا يصدقوه، ومثلهم كمثل من قال عنهم نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[1].

ذلك ﴿فَسَوْفَ﴾ في مثلث النشآت ﴿يَأْتِيهِمْ أَنْبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ومن أنبائه هنا عذاب الاستئصال، ومن ثم عذاب البرزخ والقيامة.

ولأن النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، وهو يعم واقع النبإ إلى الإخبار به، لذلك فقد تشمل الإنباء مثلث النشآت إخباراً وواقعاً، مهما لم تفدهم أنفسهم

---

(١) سورة نوح، الآية: ٧.

إلّا هنا لو كانوا ينتبهون كما في قوم يونس، أم ولا أقل من إفادتها سائر الناس، وأما في البرزخ والقيامة فلا فائدة لهم منها إلّا بائدة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾:

القرن - وهو الردْف والاقتران - وهم هنا القوم المقترنون في زمن واحد متصل، ولأن العمر المتعود للإنسان لا يعدو مائة سنة، لذلك سُميت قرناً قضيةَ اقترانهم في كلٍّ مائة مائة، انقراضاً للسابق وافتتاحاً للّاحق، فقد لا يختص القرن بذلك الزمن المحدد، حيث الأصل هو كلُّ ردح زمني لأمة تعيشه، مائة إما زاد أو نقص.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ رؤية تأريخية جغرافية بما وصلتهم من أنباء مَن ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ وقـــد ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ - ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾ بسلطات زمنية وقدرات مالية ورحمات منها غزيرة، ولكنهم - بما كانوا يجحدون بآيات الله وما كانوا يستهزئون - ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ دون أن تغنيهم عن بأسهم مُكنتهم ولا عن بؤسهم مكانتهم ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ مثل قرنهم، قرناً بهم بعدهم ليبلوهم فيما آتاهم، فـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾[2] و﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[3] فـــ ﴿هَلْ تُحِسُّ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٤.
(٣) سورة ق، الآية: ٣٦.

مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾[١]؟ كلّا بل ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[٢] وقد مضى يوم خلاص!.

فالذنوب هي التي تخلِّف الهلاك، هنا نزيراً، وهناك بعد الموت غزيراً، ومن رحمات الله على المؤمنين أن قد يأخذهم بذنوبهم هنا كيلا يؤخذوا بها هناك وأين أخذ من أخذ؟.

وهنا ﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ تعني جماعة بعدهم إذ أهلكوا بالطاغية.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾:

هؤلاء المعرضون عن آيات ربهم لا يفرِّقون بينها في تكذيبهم مهما تطلبوا كتاباً في قرطاس ينزل من السماء ملموساً لهم بأيديهم حيث يتقولون قولتهم الفاتكة الهاتكة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فما تفيدهم إذاً آياتٌ مقترحات كما سواها من آيات.

لقد اقترح مشركون ومعهم كتابيون تنزيل كتاب من السماء، فكما لهؤلاء: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[٣] كذلك لأولاء ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً...﴾[٤].

إذاً فتجاوبهم في تحقيق آيات مقترحات - ولا سيما التي ليست هي في

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٨.
(٢) سورة ص، الآية: ٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

الحق بآيات - إنه تجاوب معهم في التكذيب والاستهزاء بها وتهديرها وتهذيرها دون إهدائها أو تحذيرها.

وهنا ﴿كِتَٰبًا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ﴾ تبيِّن أن هؤلاء الحسيين الناكرين لما وراء الحس بلغوا في عناد النكران لحدٍّ ينكرون المحسوس الملموس كما ينكرون غير المحسوس، لأن تصديق ذلك المحسوس ذريعة إلى تصديق لغير المحسوس.

وترى تنزيل كتاب في قرطاس مستحيل كما تدل عليه ﴿وَلَوۡ﴾؟ والله على كلّ شيء قدير! إنه مستحيل مصلحياً في أبعاد: «أن نازل كتاب الوحي من السماء لمحة إلى أن المُنزل هو ساكن السماء وليس به، وإن مَنزل الوحي هو قلب الرسول وليس حسَّه حتى ينزل عليه كتاب في قرطاس، ثم في تحقيق اقتراحهم هذا مسايرة معهم في باطل حيث هم بعدُ منكرون.

ذلك! وكما ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ۝١٥﴾[1].

ذلك إنما هو من خلفيات نكرانهم البغيض الحضيض، فليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات ربهم أن البرهان على صدقها قاحل أو ضعيف، أو غامض لا يعرفه إلّا عباقرة، أو أنها تختلف فيها أرباب العقول، إنما هو المكابرة الغليظة البغيضة والعناد الصفيق السحيق.

ثم ومن عاذرتهم كما يهوون أن لم يبعث الله إليهم ملكاً يحمل وحيه وهم شاهدوه:

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾:

(١) سورة الحجر، الآيتان: ١٤، ١٥.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ﴾ يصدقه ونراه يوحي إليه لنا، أفلم يكن - إذاً - برهانه أمتن وتصديق أمكن؟

والجواب الحاسم أولاً ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وثانياً ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا...﴾ فما هو الأمر المقضي؟

هل هو قضاء أمر الحياة فلا تكليف - إذاً - فلا نتاج لنزول الملائكة؟

كما ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ﴾(١) واستحقاق قضاء الأجل بالشرِّ ليس ليحيل نزول الملائكة، وقد يؤمنون لو أنزلت!.

«أم هو قضاء أمر الحياة استئصالاً لهم إذ لا يؤمنون؟» ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾(٢) فـ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا وَيَوْمَ... تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾(٣) ولماذا يستأصلون حيث يجوز إيمانهم إن شاء الله!. أم هو قضاء أمر التكليف لأن انقلاب الغيب إلى الشهادة يرفع الابتلاء والتمحيص، فـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾(٤) وكيف - إذاً - يزول دور التكليف؟.

علَّ الأمر المقضي هو مجموع الأمور، إذ لو آمنوا عند نزول الملائكة فلا ابتلاء بتكليف، ولو أنهم كانوا من أهل الإيمان ببرهان لكفاهم برهان

(١) سورة يونس، الآية: ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٣) سورة الفرقان، الآيات: ٢٢-٢٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

الرسالة الذي تقبله العقول، فإن آمنوا قضي الأمر تكليفاً وإن لم يؤمنوا قضي أمر حياتهم باستئصالهم كما هو سنة الله فيما بلغت الحجة مبلغ النار على المنار والشمس في رابعة النهار.

إذاً فلا طائل لهم تحت نزول الملائكة إلّا زوال التكليف أم زوالهم، فهو مستحيل في الحكمة الربانية التي تربي العباد بما يُصلحهم.

والمحاولة الرئيسية القرآنية هي إخراج الإنسان من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيباً في ذاته، ظاهراً بآياته، والرسالة الملائكية تغلق ذلك المجال دون الإدراك الانساني، فهي - إذاً - نكسة إلى الوراء وارتجاع إلى الجاهلية المادية التي ليست لتصدق وراء المادة، وهو بالمآل ينهي إلى نكران التجردية الإلهية.

وجواب ثان عن ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾:

فإضافة إلى أن نزول الملك عليهم أو على الرسل بحيث يرونهم ليس إلّا عند قضاء الأمر، وأنه لا يناسب المرسل إليهم البشر فـ ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[1].

فلو تخطينا أمثال هذه الموانع في نزول ملك رسول أو ملك مع الرسول يرونه، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ حتى يروه ويسمعوه، فعادت المشكلة المزعومة لهم حيث يرونه رجلاً وهو ملك فلا ينتفعون بكونه ملكاً ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ بملك في صورة رجل ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ على أنفسهم.

وهذه قاعدة مطردة عادلة أن الله يلبس على الإنسان ما هو يلبسه. فلما

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.

لبس هؤلاء المكذبون لآيات ربهم طور الرسالة الربانية على أنفسهم، فقد يلبس الله عليهم - لو حقق ما اقترحوه - أن يجعله رجلاً، عوداً لمشكلتهم كما كانت، كما وهي طبيعة الحال في رؤية الملائكة لمن ليست لهم عيون تقدر على رؤيتهم بصورهم الأصلية، ثم ﴿رَجُلًا﴾ هنا - بأحرى من ﴿رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾[1] في سواها - دليل انحصار الرسالة في الرجال دون النساء، وفيه لمحة اختصاص القيادات روحية وزمنية، شاملة أماهيه في قبيل الرجال.

ذلك ولقد نزلت هذه الآية لما احتج المشركون على الرسول ﷺ فقال: «اللهم أنت السامع لكلّ صوت والعاصم بكلّ شيء تعلم ما قاله عبادك». . .[2].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٠٤ عن الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام أنه قال: قلت لأبي علي بن محمد عليه السلام هل كان رسول الله ﷺ يناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم إذا حاجوه؟ قال: بلى مراراً كثيرة إن رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة - إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش - إذ ابتدأ عبد الله بن أبي أمية المخزومي فقال: يا محمد! لقد ادعيت دعوى عظيمة وقلت مقالاً هائلاً، زعمت أنك رسول رب العالمين وما ينبغي لرب العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا ولو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبياً لكان إنما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا، ما أنت يا محمد إلّا رجلاً مسحوراً ولست بنبي فقال رسول الله ﷺ: «اللهم. . . فأنزل الله عليه يا محمد «وقالوا». . . ثم قال رسول الله ﷺ: وأما قولك لي: ولو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده، بل لو أراد أن يبعث إلينا نبينا لكان إنما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا، فالملك لا تشاهده حواسكم لأنه من جنس هذا الهواء لا عيان منه ولو شاهدتموه بأن يزاد في قوى أبصاركم لقلتم ليس هذا ملكاً بل هذا بشر لأنه إنما كان يظهر لكم بصورة البشر الذي ألفتموه لتعرفوا عنه مقالته وتعرفوا خطابه ومراده فكيف كنتم تعلمون صدق الملك وأن ما يقوله حق، بل إنما يبعث الله بشراً وأظهر على يده المعجزات التي ليست في طبايع البشر الذين قد علمتم ضمائر قلوبهم فتعلمون بعجزكم عما جاء به أنه معجزة وأن ذلك شهادة من الله بالصدق له، ولو ظهر لكم ملك وظهر على يده ما =

وهنا مسألة تطرح نفسها حول هذه الحجة الفريدة في القرآن كله، هي: ليس إنزال الملائكة بصورتهم الملائكية مستحيلاً إذ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾[١] تثبت آجل رؤيتهم لهم - وكما رأى النبي ﷺ جبرئيل بصورته الأصلية - ولا بالصورة الإنسانية فإن رسلاً كإبراهيم ولوطاً رأوا الملائكة بصورة الإنسان.

والجواب إن ﴿وَلَوْ﴾ هنا لا تحيل إنزال الملائكة استحالة ذاتية خارجة عن القدرة، إنما هي استحالة مصلحية وهي قضاء الأمر لو أنزلت بالصورة الأصلية، واشتباه الأمر كما كان لو أُنزلت بصورة رجل: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

ثم إن ضرورة المجانسة بين الرسول والمرسل إليهم إتماماً للحجة وإنارة للمحجة وإخراجاً عن أية لجة، إنها تفرض إرسال رسول بشر إلى بشر ورسول غير بشر إلى غير بشر: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[٢] ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا...﴾[٣].

ثم الآيات الرسالية الظاهرة على أيدي الملائكة ليست لتثبت رسالاتهم كما تثبت الآيات على أيدي البشر، فإن احتمال طاقة خاصة تبرز هذه الآيات وارد في الملائكة للبشر ولا سيما للناكرين لآليات الرسولية والرسالية.

= يعجز عنه البشر لم تكن في ذلك ما يدلكم أن ذلك ليس في طبائع سائر أجناسه من الملائكة حتى يصير ذلك معجزاً له، ألا ترون أن الطيور التي تطير ليس ذلك منها بمعجز لأن لها أجناساً يقع منها مثل طيرانها، ولو أنّ آدمياً طار كطيرانها كان ذلك معجزاً فالله عزّوجلّ سهل عليكم الأمر وجعله بحيث يقوم عليكم حجته وأنتم تقترحون على الصعب الذي لا حجة فيه»....

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

فمهما كانت الرسالة الملائكية إلى البشر أقوى من حيث اللقاء، ولكنها أغوى من حيث عدم المجانسة وسقوط الحجة الكاملة، وحجتهم الأقوى تُجبر بآيات الرسل البشر فلا يبقى إلّا الأغوى إضافة إلى سقوط دور التكليف أم ضعفه، ففي رسالة البشر تضاعف البرهان بتناسق إنسان مع إنسان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]!.

فالمتطلبون الرسالة الملائكية هم في الحق لا يطلبون حجة أقوى، بل هي أهوى وأغوى، فمن المستحيل - إذاً - إرسال الرسل الملائكية لقبيل الإنسان وأضرابه لأمور تالية:

١ - الملائكة لا ترى بالصورة الملائكية إلّا عند الموت وفي البرزخ والقيامة حيث تفتح العيون البرزخية وما فوقها، وعند الموت يسقط دور التكليف.

٢ - لو رأوا الملائكة ولم يؤمنوا قضي عليهم حيث تستأصلهم الحجة البارعة، لمكان إعلان الغيب، ولو آمنوا لم يكن في إيمانهم ابتلاء والإيمان عقيدياً وعملياً ابتلاء في دار الاختيار الاختبار البلاء.

٣ - لو رأوا الملائكة وأرادوا أن يؤمنوا بابتلاء لم تكمل بهذه الرسالة حجة ولم تتبين محجة فإن لهم شبهةً في آيات الرسالة، وعدم معرفة بهذا الرسول الذي ما عاشوه، ثم لا يحتّمون على أنفسهم اتّباع الرسول الذي هو ذو بعدين من الدعوة: وحياً وعملاً به، فإن مسؤوليات الملائكة - حسب نوعية كيانهم - غير ما هي على الإنسان، وأنهم لو كلفوا بما يكلف به الإنسان فلهم حجة أننا مبتلون بالنفس الأمّارة دون الملائكة، وليس هكذا رسول من الإنس لمكان الأنس به في أصل الكون والكيان، فحين يرى

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

الإنسان رسولاً من ذوي نوعه يرغب في اتّباعه ليصبح نظيره أو قريباً منه، وليست العصمة الربانية إلّا في ظروف العصمة البشرية والرسل لا يطلبون من الناس إلّا عصمة بشرية على ضوء الوحي.

فللمسانخة بين الرسول والمرسل إليهم دور هام في إتمام الحجة لاتّباعه لأنه منهم وهي من المنن الربانية التي يمتن الله بها على عباده:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾[1] في حقل الرسالة ﴿وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2] في حقل الخلافة، ولا نجد في الرسل رسولاً يرسل إلى قوم ليس هو منهم سواء أكانت رسالة محدودة أو مطلقة يحلق على كافة المكلفين.

وصيغة «من قومه» متكررة في حقل الرسالات، وأما الرسالة العالمية فهي أيضاً منبثقة من قوم الرسول الأولين، الذين هم مبدأ الدعوة الرسالية ومنطلقها، ومن ثم هم الذين يحملون هذه الرسالة إلى آخرين.

فكلّما كان الرسول أقرب إلى المرسل إليهم مكاناً ومكانة وقرابة ولغة أماهيه؟ كانت رسالته أنجح وحجته أرجح، حيث يرونه منهم وفي مستواهم، وهو مع الوصف أرسل إليهم بلباقة مكتسبة كأصل حتى انتجبه الله للرسالة إليهم.

وهكذا تكون دور الدعوات الرسالية في كلٍّ حقولها الفرعية من قيادة الأمة روحية وزمنية، أو مرجعية الفتيا أو الحاكمية الشرعية في قضاء وما أشبه، أو إمامة الجمعة أو الجماعة أمّاهيه من مناصب روحية أو زمنية، حيث الأصلح الأليق أن ينتجب من أنفس هؤلاء الذين يحكم فيهم أو يؤمهم، اللهم إلّا أن لا يكون فيهم من يليق لذلك المنصب.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

وابتعاث الرسول البشر إلى الجن وسواهم من غير الإنس لا ينقض قاعدة المجانسة إلَّا إذا كان هو المتكفل لهم بتبليغ الرسالة، ولكن رسل الجن هم وكلاء عن رسل الإنس قبل ختم الرسالة، أم هم نوابهم دون عصمة أم معها دون وحي كالأئمة المعصومين عليهم السلام، أما إذا كانت الرسالة إلى غير الإنس كذلك فهناك أيضاً المجانسة ملحوظة محفوظة، فإن الذي يدعوهم مواجهة هو منهم مهما كان هو نفسه تحت قيادة أعلى رسالية أو رسولية، ففرق بين رسول لحمل الرسالة إلى رسول، ورسول يصاحب المرسل إليهم في رسالته، ورسالة رسل البشر إلى رسل الجن من قبيل الأولى كرسالة الرسل الملائكية إلى الرسل البشر.

ثم رسالة البشر إلى قبيل الجن ليست بتلك المفاصلة التي هي بين الملائكة والإنس حيث هما مشتركان في كلٍّ التكليف وفي نزعات النفس والعقل.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

لا تأسف يا حامل الرسالة الأخيرة السامية على ما يستهزئ بك فيها، فإن التأريخ الرسالي مشحون بهزئهم وسخريتهم من قبل المجاهيل المكذبين بـآيات ربهم: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ بمختلف ألوانه وأشجانه، وهذه تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتسرية عنه مما كان يلقاه من عناد المعرضين وعنت المكذبين المستهزئين، طمأنةً لقلبه الجريح القريح إلى سنة الله في أخذ المستهزئين بالرسل والمكذبين، وتأسية له كذلك بأن ليس بدعاً في واجهة الهزء من هؤلاء الأوغاد المناكيد ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

فقد تنزل هذه الآية حينما غاظ الرسول ﷺ بهزئهم[1]، طمأنة لخاطره القديس الخطير، وتشجيعاً لذلك البشير النذير أن يستمر في دعوته صامداً، لا هامداً ولا فشلاً.

ذلك ولم يكن الله ليسكت عن هزء الرسل والسخرية من الرسالات، ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم﴾ إصابة حالة محيطة ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو حيق الاستهزاء نفسُه إذ برز بصورة عذابات الاستئصال الهازئة بهم وكما في قوم نوح: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[2] فقد سخرت منهم أمواج الطوفان جزاءً وفاقاً.

هنا ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قد تعم إلى نفس الاستهزاء المستهزأ به، حيث الرسالات ببلوغها وبلاغها وصمودها وتقدمها وآياتها استهزأت بهؤلاء الأوغاد المناكيد، كما استهزأ بهم هزؤُهم نفسه.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾:

﴿سِيرُواْ﴾ سيراً تاريخياً جغرافياً وجغرافياً تاريخياً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إنسانياً، ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ نظرة العبرة ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ - ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3] - ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[4]

---

(١) الدر المنثور ٣: ٥ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: مر رسول الله ﷺ فيما بلغني بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل بن هشام فهمزوه واستهزؤوا به فغاظه ذلك فأنزل الله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ...﴾ [الأنعام: ١٠].

(٢) سورة هود، الآية: ٣٨.

(٣) سورة النمل، الآية: ٥٢.

(٤) سورة الحج، الآية: ٤٥.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾[1].

فالسير في الأرض هو للاستطاع والتدبر والاعتبار معرفةً لسنن الله مرتسمة في الأحداث، مسجلة في الآثار.

فذلك السير يجعل الإنسان ابن غابره إلى حاضره ليعيش مجرباً وعلى خبرة بنتائج الأعمال خيِّرة وشريرة.

فقد لمس بهذه التذكرة قلوب المستهزئين المقلوبة، المغلوبة بطوع الهوى، بمصارع أضرابهم من أسلافهم ومنهم مَن هم أشد قوة منهم وآثاراً في الأرض.

وخير عرض لسير الأرض هو عرض القرآن لأخبار الأرض حيث يسيرنا سيراً حثيثاً حسيساً دون أي خليط من أباطيل وأساطير.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾:

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الأغفال ﴿لِّمَن﴾ مِلكاً ومُلكاً ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهما الكون المخلوق كلّه، ولأن الجواب باهر حيث المسؤولون مصدقون بوجود الله مهما كانوا به مشركين فـ ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ وكما ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2] - ﴿. . . لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3] - ﴿. . . فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الحاقة، الآيتان: ٧، ٨.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٩.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.

هؤلاء المجاهيل الأقدمون كانوا يعترفون بالربوبية العليا وإن لم يكونوا يرتبون عليها نتائجها المنطقية بإفراد الله في هذه الربوبية دون إشراك، فتلك الجاهلية - إذاً - لها الشرف على الجاهلية المادية المتحضرة - المسماة بالعلمية - حيث تنكر حقيقة الربوبية عن بكرتها، حيث تغلق على فطرتها وعقليتها دروبهما دون رؤية الحقيقة الكبرى!.

ذلك ومن مخلفات ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] أنه ذو رحمة واسعة، وقد ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ كتابة الفرض والتحقيق إضافة إلى واقعية الكون كلّه التي هي من واسع رحمته.

ولقد كررت كتابة الرحمة بكلِّ حلقاتها في القرآن مراراً، هنا مرتان أخراهما ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] وثالثة مصرّحة بتحقيق كتابة الرحمة: ﴿. . . قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

وتلك الرحمة الربانية الواسعة كلَّ شيء، المحلِّقة عليها، هي مكتوبة وعداً وتحقيقاً للمتقين، ومن رحمته الشاملة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٤] وهو رحمة في حلقات: رحمة لنا في هذه الأدنى أن نروضها بالتقوى ونرفض فيها الطغوى خوفة من الأخرى وطمعاً فيها، ورحمة لنا أخرى أن احتمالة الحياة الحساب تكسر من ثورة الطغيان عن أهله، وثالثة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٧.

رحمته في الأخرى، المكتوبة للذين يتقون، ورابعة أن زحمة الظالمين يوم الدين هي رحمة للمظلومين.

ذلك، وكما شملت رحمته كلَّ شيء، فقد سبقت رحمته غضبه، سبْقاً زمنياً وشمولياً وفي المكانة، ومثلث السبق باهر من الذكر الحكيم في حين لا نجد ولا لمحة لشمولية الغضب، فإنما هو لـ«من أشاء» كما في آية الأعراف وما أشبه.

ولقد رويت هذه السابقة السابغة للرحمة الربوبية عن رسول الرحمة ﷺ بألفاظ عدة(١) وإن رحمته يوم القيامة سابقة كأسبغها على رحمته يوم الدنيا(٢).

---

(١) الدر المنثور ٣: ٦ بسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب كتاباً بيده على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي» وفي أخرى «إن رحمتي سبقت غضبي» وفي ثالثة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلق كثير لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم: عتقاء الله.

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ قال: قال الله للملائكة: ألا أحدثكم عن عبدين من بني إسرائيل أما أحدهما فيرى بنو إسرائيل أنه أفضلهما في الدين والعلم والخلق والآخر أنه مسرف على نفسه فذكر عنه صاحبه فقال: لن يغفر الله له فقال: ألم يعلم أني أرحم الراحمين ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي وأني أوجبت لهذا العذاب فقال رسول الله ﷺ: فلا تألوا على الله.

وفي نور الثقلين ١: ٧٠٥ في روضة الكافي في رسالة أبي جعفر عليه السلام إلى سعد الخير: «فكتب على نفسه الرحمة فسبقت قبل الغضب فتمت صدقاً وعدلاً فليس يبتدئ العباد بالغضب قبل أن يغضبوه وذلك من علم اليقين وعلم التقوى».

(٢) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وابن ماجه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة فجعل في الأرض منها رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها والبهائم بعضها على بعض وآخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة رحمة».

وأخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من =

وترى ما هو موقف ﴿إِلَىٰ﴾ في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ مهما وردت أيضاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[1] ولكنه جمع خاص لمجموعين خصوص.

إن الجمع ﴿إِلَىٰ﴾ يجمع إلى ﴿فِى﴾ - اللامح لحضور المجموعة - جمعَ الأوّلين والآخرين: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾[2] عناية إلى منتهى المآل لمفترقين زماناً ومكاناً، وفي أمد الموت والحياة، أنهم كلهم إلى غاية واحدة هي ﴿مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

ذلك، وقد تشبهه ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾[3] عناية إلى نفس الغاية أنها الجمع للحساب دونما أية تفرقة ثم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قد يعني من ﴿فِيهِ﴾ كلا اليوم والجمع، فكما لا ريب في يوم القيامة كذلك لا ريب في الجمع إليه حساباً فثواباً أو عقاباً.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إذ فقدوها ولم يفتقدوها، فقد ضلوا عن فِطَرهم وعقولهم الإنسانية، فحسبوا أنفسهم حيواناً بل وأضل سبيلاً ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والحيوان هو في حقل الإيمان.

= السبي تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبياً في السبي فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه، قال: فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها.

وعن جرير قال رسول الله ﷺ: لا يرحم الله من لا يرحم الناس (أخرجه الشيخان والترمذي).

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٠.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٣) سورة التغابن، الآية: ٩.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ
أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ
أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ
إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ
رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ
لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ
فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ
بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ
أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا
تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ
كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ
لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ
أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۖ وَضَلَّ
عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً
أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمۡ
يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ

إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾:

﴿وَلَهُۥ﴾ مِلكاً ومُلكاً وبأصل الكون والكيان وفرعه، بوصله وفصله ﴿مَا سَكَنَ...﴾ وتقدم الظرف هنا وفي «لمن» هناك دليل الحصر، أنه كما أنه لا إله إلّا هو، كذلك لا مالك ولا ملك للكائنات إلّا هو.

وترى ما هو السكون هنا؟ ولا سكون طليقاً لأي كائن! حيث الكون بأسره في حراك دائب دونما وقفة، اللهم إلّا وقفات نسبية! فإن الحركة هي لزام الكائنات الحادثة.

وإذا كان ﴿سَكَنَ﴾ تقابل الحركة المحسوسة، فله المتحركات في الليل والنهار كما السواكن فلماذا الاختصاص هنا بـ﴿مَا سَكَنَ﴾ ومصبُّ الحجاج هو الكون بأسره ولا سيما المتحركات قضية حاجتها إلى محرك؟!.

﴿مَا سَكَنَ﴾ لا تقابل «ما تحرك» إنّما هو من السَّكَن، لا السكون مقابل الحركة أي: له ما تمكن في الليل والنهار، كما ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾(١) حيث لا تعني مقابل تحرّكهم، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾(٢) مهما عنيت من السكن هنا إضافة إلى السكونة السكينة والراحة.

أو يقال ﴿سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تعني السكينة والراحة مع السكونة، إنه

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٠.

هو الذي أسكنهم وطمأنهم، فكما لا سَكَن في الليل والنهار إلّا من الله، كذلك لا سكينة وراحة فيهما لهم إلّا من الله.

فـ ﴿سَكَنَ﴾ على أية حال تعني سكن المكان والزمان الشامل لأيٍّ كان، كما الليل والنهار لهما مكان الآفاق، العارضان هما عليها، ولكن القصد هنا إلى ساكني الكون في كلِّ زمان ومكان، وهو تعالى ليس له زمان ولا مكان.

ثم ولا يخرج أي كائن من ساكن في الليل والنهار، أم في ليل أو نهار، حيث المكان بين سَكَن الليل وسكن النهار، اللهم إلَّا العدم المطلق الذي ليس ليلاً ولا نهاراً، فلا هو في ليل ولا في نهار سلباً لسلب الموضوع.

ثم الله الذي ليس ماكناً ولا مكاناً وهو خارج وبائن عن ظلم الليل وضوء النهار خروجاً عن موضوع الزمان والمكان والليل والنهار، فإنهما من لزامات الكائنة الحادثة المادية، والمجرد الطليق عن كلِّ شؤونات المادة لا هو ماكن فيها ولا هو مكان لها.

فـ ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ عبارة أخرى عن الكون المخلوق بأسره كما السماوات والأرض وما بينهما.

فكما الظرف مكانياً يشمل كلَّ الكائنات مستقصياً أي كائن كان، كذلك هو زمانياً حذو النعل بالنعل، ثم الخالق للكون لا مكان له ولا زمان لأنه الخالق لهما وما فيهما، فكما له ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مكاناً، كذلك ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ زماناً، ولا كائن مخلوقاً دون مكان أو زمان أياً كان وأيان.

وترى إذا كان ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾(١) و﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ فلمن - إذاً - ظرف المكان وظرف الزمان؟.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٦.

كما أن ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعني الكائن والمكان، كذلك ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تعني الساكن والزمان، وكما تصرح بذلك آيات خلق المكان وخلق الزمان فـ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مثلث الساكن الماكن والزمان والمكان.

ذلك! وكما أن هناك ملازمة بين خلق الزمان والمكان والساكن والماكن، فالخالق للماكن ليس ليخلق إلّا في مكان خَلَقه من ذي قبل أو معه، كما الخالق لساكن الليل والنهار ليس ليخلقه إلَّا بعد خلق الليل والنهار أو معهما، مهما كان خلق الزمان والمكان والساكن والمكان هو كلّه في أوّل ما خلق الله جملة، ثم الله خلقها تفصيلاً.

ثم وكما أن لكتاب التشريع محكماً ومفصلاً تلوَ بعض، كذلك كتاب التكوين، والكاتب واحد لا شريك له سبحانه وتعالى عمَّا يشركون.

ثم ونفس السكون في الليل والنهار دليل حدوث الساكن كما المسكن، كما ونفس التمكن في المكان دليل حدوث الماكن كما المكان، وذاتية الحدوث للزمان لمكان التصرم الدائم، دليل - وبأحرى - على ذاتية الحدوث لساكن الزمان والمكان.

ذلك ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للأصوات كلها ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالكائنات والكيانات والحالات والصفات والحاجات كلِّها، لا تخفى عليه خافية، وقد كتب على نفسه الرحمة، وله العلم المحيط والقدرة الواسعة، إذاً فـ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٧.

فحين ثبت بالبرهان أن هناك فاطراً للسماوات والأرض هو الله فـ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١) ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾(٢).

ثم وهو الغني ذو الرحمة: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ روحياً ومادياً ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾(٣) في أيٍّ من حقول الطعام، وكلّ ما في الكون مُطعمَ مهما يُطعِم، وأين إطعام من إطعام، حيث المطعِم من الخلق هو مطعَم في أصله وفرعه، في وصله وفصله، وهو مطعِم بما يُطعم ومن حيث يُطعم.

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين يتخذون من دون الله ولياً، و﴿قُلْ﴾ لكلٍّ من يشعر ويعقل ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أولية في درجة الإسلام لا في الزمان والمكان، حيث سبقه مسلمون كثير على مدار الزمن.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما أنت أوّل المسلمين لله، فلتكن أوّل المعارضين للإشراك بالله، فأنت الأوّل الطليق في كلا السلبية والإيجابية لكلمة الإخلاص: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٤).

ذلك، وكما كان محمد ﷺ أوّل المسلمين، كذلك - ولزاماً له -

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٣) الدر المنثور ٣: ٧ بسند عن أبي هريرة قال دعا رجل من الأنصار النبي ﷺ فانطلقنا معه فلما طعم النبي ﷺ وغسل يده قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم ومنّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا وكلّ بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام وشفانا من الشراب وكسانا من العرى وهدانا من الضلال وبصرنا من العمى وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلاً الحمد لله رب العالمين».

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٣.

كان أوّل العابدين: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[(١)] وأول العارفين منذ بداية الخلق إلى يوم الدين، أوّلية في هذه الزوايا الثلاث لا تُساوى ولا تُسامى!.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾:

لست أنا - لأنني رسول - في أمن من العذاب ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فإن ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو لزام العصيان من أيٍّ كان، بل والعذاب للأقرب إلى الله - لو عصى - أقرب وأعظم، كما هو للأغرب أغرب، بل وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

ولقد كان الرسول ﷺ يُكرِّر مقالته هذه في مختلف المجالات، قبل الفتح وبعده، وقد يكون بعده أحرى لاحتمالة النزوة الطارئة نتيجة الفتح المبين، فلا دور خاصاً لهذه المقالة ولا نسخ له أبداً خلاف الرواية المختلقة[(٢)].

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

أترى صرف عذاب يوم عظيم عن الصالحين - ولا سيما السابقين والمقربين - هو رحمة من العظيم أم هو عدلٌ جزاءً وفاقاً؟.

إن صرف العذاب عن الصالحين الذين لا ذنب لهم ولا سيما

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٠٥ في تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما ترك رسول الله ﷺ ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ [الأنعام: ١٥] حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام أقول: علّة عناية إلى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ولكن الذنب هنا غير العصيان هنا، إنما هو رسالته ببلاغها وبلوغها حيث الذنب هو كلّ ما يستوخم عقباه، وكانت عقبى هذه الرسالة السامية مستوخمة من قبل المشركين المحتلين عاصمة التوحيد، فصدّ الله عنه ﷺ مستوخمة العقبى ما دام حياً بفتح تلك العاصمة - راجع تفصيل الكلام في تفسير سورة الفتح -.

المعصومين هو قضية العدل مهما كانت الجنة قضية الرحمة التي كتب الله على نفسه، وهذه ضرورة عقلية وقرآنية أن استحقاق العذاب خاص بأهله الطالحين، إذاً فـ ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾ تتخصص بهؤلاء الأكارم الذين لا ذنب لهم، وتخص بمن له ذنب أياً كان، تاب عنه أم لم يتب، شفع له فيه أم لم يشفع، حيث التوبة من الله ومغفرته والشفاعة المقبولة لديه وتكفير السئات بترك الكبائر وما أشبه، كلّ ذلك قضيةُ رحمته، فمن يُصرف عنه العذاب فقد رحمه بواجب رحمته التي فرضها على نفسه أم راجحها، أم والتي ليست خلاف العدل.

وإذا كان صَرف العذاب عن هؤلاء رحمة فالجنة لهم رحمة فوق رحمة، إذ لا يستحق أحد على الله الجنة جزاءً أصلياً، اللّهم إلّا بما وعد برحمته، حتى «ولا أنت يا رسول الله ﷺ»[1] ولكن الله يتغمده ومن معه برحمته التي كتبها على نفسه.

ذلك، وأما صرف العذاب عنه ﷺ فيما صرف عن نفسه العصيان وكما خص خوفه عنه به: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٧﴾:

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2] - ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ

(١) مجمع البيان عن الحسن في تفسيره أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله ﷺ؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ووضع يده على فوق رأسه وطول بها صوته.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٧.

لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

هذه الآيات ترسم صورة وضاءة عن توحيده تعالى في أفعاله، فلا شريك له في كشف الضر ومسِّه، ولا في مس الخير ومَسْكه، فأنى تؤفكون - إذاً - أإفكاً آلهة دون الله تريدون؟ فهنا قضية واحدة لا تنقسم ولا تقبل تميُّعاً ولا أنصاف حلول، إما إفراد الله في كافة اختصاصات الربوبية، قضيّة الفطرة والعقلية والفكرة والعملية في شعيرته وشريعته، فهو ذاك الإسلام، وإما الإشراك بالله في أيٍّ من شؤون الربوبية تخلفاً عن الآيات الأنفسية والآفاقية، فالجمع بينه ومن سواه إشراك به كيفما كان مهما كان دركات كما التوحيد درجات.

ولقد أُمر الرسول ﷺ - على محتدة القمة الرسالية - أن يصارح بذلك الاستنكار هؤلاء المشركين الداعين له إلى الملاينة والمداهنة، وجعْل البلد شطرين وأخذ العصا من وسطها، ليجعل لآلهتهم مكاناً في شرعته لكي يدخلوا في دينه، والجواب كلمة واحدة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(٢) فلا يقبل دين التوحيد أي تليين ومصالحه وأنصاف حلول، فإنه صُراح التوحيد الحق وحق التوحيد، ورفض كلِّ شرك عن ساحته وسماحته.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

تلك الفوقية القاهرية الربانية هي فوقية المحتد والمكانة في العلم والقدرة والتقدير والتدبير وفي كلِّ ما تتطلبه الربوبية الوحيدة غير الوهيدة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في قاهريته الفائقة ﴿الْخَبِيرُ﴾ بكلِّ سُؤل وسؤال لعباده، قاهر

(١) سورة فاطر، الآية: ٢.
(٢) سورة الكافرون، الآية: ٦.

فوقهم عدلاً وفضلاً، إذاً فـ«ليس القاهر على معنى علاج ونَصَب واحتيال ومداراة ومكر كما يقهر العباد بعضهم بعضاً، فالمقهور منهم قد يعود قاهراً والقاهر قد يعود مقهوراً، ولكن ذلك من الله تبارك وتعالى على أن جميع ما خلق ملتبس به الذل لفاعلة وقلة الامتناع لما أراد به، لم يخرج منه طرفة عين، غير أنه يقول له: كن فيكون، والقاهر منّا على ما ذكرت ووصفت فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى»(١).

وليس القهر هنا هو الجبر، فـ«لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» إنما هو غلبة الإرادة الربانية على كلِّ إرادة ومريد ومراد، حتى في الأمور الاختيارية ما لا ينافي الاختيار، فلا يستطيع المختار من تحقيق ما يختار إلّا - بالمآل - بإرادته تعالى وتقدس دونما تسيير على خيرٍ أو شرٍّ إلّا فيما يصح ويصلح فيه التسيير.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ على صادق الوحي إليك؟ طبعاً هو الله لأنه الأكبر على الإطلاق، وإن شهادة الوحي راجعة إليه، فلا شاهد أكبر وأحقُّ شهادة له منه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾(٢) ولأن الجواب هنا بيِّن للمشركين حيث يعتقدون في ألوهيته وربوبيته الكبرى، لذلك طوي عن ذكره بقولهم وقوله، أم إن ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جواب وهو مع الوصف مبتدأ خبره «شهيد...»(٣).

(١) نور الثقلين ١ : ٧٠٦ في كتاب التوحيد عن الرضا عليه السلام حديث طويل وفيه يقول عليه السلام: «وأما القاهر فإنه ليس على معنى»....

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

(٣) نور الثقلين ١ : ٧٠٦ عن التوحيد بإسناده إلى محمد بن عيسى بن عبيد قال قال لي أبو =

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ وبماذا يشهد؟ ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[(١) (٢)].

فالقرآن بنفسه شهيد وبينة من ربه وكما هو بنفسه بينة ويتلوه شاهد منه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[(٣)].

وهنا ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ تجعل القرآن المحور الأصيل للشهادة الإلهية على وحيه ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ عن عذاب الله في يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾: من بلغ مبلغي منذراً كالأئمة المعصومين[(٤)]، ومن بلغ مبلغ

= الحسن عليه السلام أما تقول إذا قيل لك أخبرني عن الله أشيء هو أم لا شيء؟ قال: فقلت له: قد أثبت الله نفسه شيئاً يقول: قل أي شيء أكبر شهادة قل الله..

فأقول: إنه شيء لا كالأشياء إذ في نفي الشيئية عنه إبطاله ونفيه، قال لي عليه السلام: صدقت وأصبت.

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

(٢) الدر المنثور ٣: ٧ عن ابن عباس قال جاء النحام بن زيد وقردم بن كعب وبحري بن عمرو فقالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا إِلهَ إِلّا اللَّهُ» بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو فأنزل الله في قولهم ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ...﴾ [الأنعام: ١٩].

وفي نور الثقلين ١: ٧٠٦ في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية وذلك أن مشركي أهل مكة قالوا: يا محمد ما وجد الله رسولاً يرسله غيرك؟ ما نرى أحداً يصدقك بالذي تقول، وذلك في أوّل ما دعاهم وهو يومئذ بمكة، قالوا: ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك ذكر عندهم فأتنا من يشهد أنك رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ...﴾ [الأنعام: ١٩].

(٣) سورة هود، الآية: ١٧.

(٤) نور الثقلين ١: ٧٠٧ في أصول الكافي بسند متصل عن مالك الجهني قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام قوله عز وجل: الآية، قال: من بلغ أن يكون إماماً من آل محمد عليهم السلام فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورواه مثله العياشي عن الصادقين عليهما السلام، وفي تفسير=

الإنذار بعدي ويعدهم من العلماء الربانيين[(١)]، فلا بدَّ - إذاً - للمنذر بالقرآن من بلوغ هو بلوغ العقلية القرآنية تلقياً وتطبيقاً وإلقاءً، وذلك مثلث لهندسة الإبلاغ والإنذار بالقرآن، عطفاً لـ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ بفاعل ﴿لِأُنذِرَكُم﴾.

ثم ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ من المنذَرين، بلغ عقلياً إذ لا تكليف للصغار والمجانين، ومن بلغه منهم طول الزمان وعرض المكان منذ بزوغه إلى يوم الدين، ومن بلغ به[(٢)] عطفاً له بمفعوله «كم».

إذاً - ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ دون تقيد أدبي بالمنذِر والمنذَر، أو كونه لازماً أو متعدياً، إنّه تعبير قاصد إلى مسدَّس المعاني: لأنذركم به وينذركم من بلغ في مثلثه، ومن بلغ في نفسه منذراً، ويبلغه هذا الوحي، وذلك من ميزات

= البرهان ١: ٥٢٠ عن تفسير العياشي عن أبي خالد الكابلي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ...﴾ [الأنعام: ١٩] حقيقة أي شيء عنى بقوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩] قال: فقال من بلغ أن يكون إماماً من ذرية الأوصياء فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعنه عليه السلام قال: علي عليه السلام ممن بلغ.

(١) تفسير البرهان ١: ٥١٩ - العياشي عن زرارة وحمران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في الآية «يعني من بعده وهم ينذرون به الناس».

(٢) الدر المنثور ٣: ٧ عن ابن عباس وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ يعني من بلغه هذا القرآن فهو له نذير، وفيه أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كسرى وقيصر والنجاشي وكلّ جبار يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ وليس بالنجاشي الذي صلى عليه، وفيه أخرج أبو الشيخ عن أُبي بن كعب قال أتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسارى فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام؟ قالوا: لا فخلى سبيلهم ثم قرأ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩] ثم قال: «خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنهم لم يدعوا» وفيه أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به ثم قرأ هذه الآية» وفيه عن قتادة في الآية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله.

وفي نور الثقلين ١: ٧٠٧ في كتاب علل الشرايع بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام سُئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأُوحِىَ... وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩] قال: «لكل إنسان».

أقول: وفي نسخة أخرى «بكلِّ لسان» رواه هكذا في تفسير البرهان ١: ٥٢٠.

القرآن أن يجمع معاني عدة بلفظ واحد يتحملها[1].

إذاً فالبالغ بالقرآن ينذر به وذلك بعد بلوغه وبلوغ القرآن إليه، والبالغ عقل التكليف ينذَر به، والبالغ إليه القرآن وهو بالغ منذَر به فمنذِر به، فلا بدَّ من حمل القرآن لحدِّ البلوغ به، ثم إبلاغه إلى كلٍّ من يعقل عنه.

صحيح أن الرسول ﷺ هو الصادع الأول لهذا البلاغ المبين، ولكن الإنذار بالقرآن لا ينحصر فيه وفي المعصومين من أهل بيته الكرام عليهم السلام، لأنه يحمل دعوة عالمية تشمل الطول التاريخي والعرض الجغرافي.

ذلك و«كم» في ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ تعني مع الحاضرين زمن الخطاب كلَّ

---

(١) و«بلغ» فاعلاً ومفعولاً لازماً ومتعدياً تعني المعاني التالية: من بلغ مثلي، أم تلى تلوي، من بلغ مبلغ العقل ويلغه القرآن ثم بلغ بالقرآن، فشرط الإنذار بالقرآن هو البلوغ به مبلغ الرسول ﷺ قدر المستطاع، وشرط المنذر بلوغ حد التكليف، فهنا احتمالات في جملتي هذه الجملة، الصالحة منها معنية وغيرها غيرها.

ف«كم» قد تعني خطاب الحاضرين من أم القرى، أم كافة المكلفين ممن حولها، و«بلغ» عطفاً على المفعول قد تعني بلوغ المعرفة وجاه قوم لد في الوجه الأول من الخطاب، فهم البالغون مختلف مدارج العقل والعلم والمعرفة، ما بلغوا، لمحة إلى أن القرآن لا يغتنم المجاهيل لأنهم يقبلونه بجهلهم، بل من بلغ ما بلغ.

و«بلغ» اللازمة في هذا الاحتمال قد تعني معه بلوغ عقل التكليف، وبلوغ حالة التقبل للحق، ثم هي المتعدية «بلغه» بين بلوغ نبإ القرآن إليه، أو بلوغه نفسه إليه، أو بلوغه - إذاً - بذلك البلوغ، وهذه احتمالات ست في الأولين تصبح اثني عشر.

ثم «بلغ» عطفاً على الفاعل قد تعني نفس الاحتمالات الستة فهي مضروبة على الأولين اثني عشر آخر فالمجموع أربعة وعشرون.

وفي تقسيم آخر «من بلغ» فاعل أو مفعول والمفعول إما مفعول له أو بواسطة الجار بلغ إليه - فيه - به - وأما بلوغ الفطرة أو العقل أو العلم أو المعرفة أو بالقرآن وهي مضروبة على وجهي «كم» خمسون، وقد تعني «كم» في «لأنذركم» هؤلاء القوم اللدّ المجاهيل، ولكيلا يظن اختصاص الدعوة القرآنية بهؤلاء المنحطين ثناهم بـ «من بلغ» عقلياً وعلمياً مهما كان علياً غالياً ولا على قمم العصمة البشرية فطرية وعقلية وعلمية.

ف«من بلغ» في احتمالات كثيرة على وجهي الفاعلية والمفعولية وعلى وجهي اللزوم والتعدية، بلوغاً في نفسه في أية مرحلة من درجاته وبلوغا إليه وبلوغاً به.

المكلفين في وجهي الخطاب، فإن ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ في وجه الفاعلية تجعل «كم» هم المنذَرين ككلّ، وهي في وجه المفعولية تخص الحاضرين، فإنها من بلغه القرآن وهو بالغ لحمل التكليف بالقرآن.

كما وإن ﴿بَلَغَ﴾ تعني وجهي اللزوم والتعدي، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ في نفسه و«من بلغه» وحي القرآن، ووجه اللزوم ألزم فإنه أعم فهو أتم.

والدعوة الإسلامية تتمحور القرآن لمكان آيات التذكير والإنذار بالقرآن و﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(١) ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ﴿٩٢﴾﴾(٢) ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(٣) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾(٥) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٦) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ...﴾(٧) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(٨)، ذلك ولا نجد حتى لمحة في القرآن لسماح الدعوة بغير القرآن إلّا طاعة للرسول وأولي الأمر لتفهُّم القرآن فيما عضل من تأويل تطبيق القرآن.

وهكذا نسمع آيات الإنذار أنها تخصه بالقرآن أو بالوحي الشامل للسنة كهامش ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾(٩).

ومن لطيف الوَفق بين القرآن والإسلام والوحي والملائكة ويوم القيامة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.
(٢) سورة النمل، الآيتان: ٩١، ٩٢.
(٣) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٠٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٧٠.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٧) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٨) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(٩) سورة الأنبياء، الآية: ٤٥.

أن ذُكِر كلٌّ (٧٠) مرة مما يلمح كأن القرآن هو الوحي كلّه والإسلام كلّه، الذي يحمله الملائكة، ثم يظهر يوم القيامة كما لمحت آية الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ. . .﴾[1] حيث اختص الوحي من بين الخمس بوحي القرآن.

فعدم البلوغ بالقرآن ذنب، وعدم إبلاغه ذنب على ذنب، فإن كتاب الدعوة لا ينتشر إلَّا بحملته البالغين به وكما أمر الرسول ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[2] ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾[3].

وترى كيف يبلغ القرآن العربي إلى من لا يعرف لغته؟ والجواب أن التبليغ بكلِّ لغة واجبُ حملته البالغين به ترجمة له صالحةً وترجماناً صالحاً.

وليس من المفروض في كتاب الوحي الداعي أن ينزل بكلِّ لسان، وإنما الدعوة والبلاغ بكلِّ لسان هو واجب المنذِرين به، كما وأن تفهمه بكلِّ لغة هو واجب المنذرين به.

وهنا نتأكد واجب السيادة القرآنية في لغته كما في أصله، فعلى المسلمين به ككلّ أن يحملوا لغته جادّاً صالحاً، ثم يحملوه بكلِّ لغة بلاغاً لأهلها ككلّ.

فـ ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ في كلِّ حقوله لا يخلو عن منذِرٍ بِهِ ومنذَر به، فمن لم يبلغه القرآن بلغته غير العربي فإنما إثمه على حملة القرآن الذين لم يبلغوه بلغته، كما أن من بلغه بلغة عربيةً وسواه ولم تبلغه معانيه الحقة ومغازيه فإثمه على من لم يبينه، ثم الذين لم يبلغهم وهم عارفون بحجته أم علّه من الله هم شركاء مع سائر المقصرين في الإثم.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

إذاً مسؤولية بلوغ القرآن ليس فقط على عواتق حملته، بل والذين يعرفون وحيه أو يحتملون ثم لا يفحصون عن بالغة حجته وحالقة محجته.

فالمتحري عن الحق أياً كان عليه التحري عن بالغ حجة القرآن بكلِّ الإمكانيات المستطاعة له، كما على حملة القرآن أن يبلغوه إلى كلِّ من بلغ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ شهادة أنفسية: بالوجدان فطرة أو عقلية أو علمية، أو آفاقية، أم بوحي من الله؟ وكل هذه منفية تدل الآيات الآفاقية والأنفسية على خلاف هذه الشهادة الكاذبة، إضافة إلى شهادة الله بذاته وبكتابه على وحدته.

﴿قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ بأية شهادة ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ على ضوء كافة الشهادات الصالحة الصادقة ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

هنا ﴿لَّا أَشْهَدُ﴾ دليل عدم الشريك لله وحياً، إضافة إلى سائر الأدلة، لأن الموحى إليه شاهد قبل كلِّ شيء كيان الربوبية للموحي وإلّا فكيف يُرسل من عنده، فكما «لا يعلم» هي من الله دليل عدم المعلوم عن بكرته لأنه يحيط علمه بكلِّ شيء: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢] كذلك ﴿لَّا أَشْهَدُ﴾ هي من رسول الله ﷺ دليل على عدم وجود المشهود عن بكرته، «واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ورأيت آثار مُلكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه إلهٌ واحد كما وصف نفسه لا يضاده في ملكه أحدٌ ولا يزول أبداً»[٣].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٣) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم من يقول: «إني أقول إن صانع العالم اثنان فما الدليل على أنه واحد - يقال له: - قولك إنه اثنان دليل على أنه واحد لأنك لم تَدْعُ الثاني إلّا بعد إثباتك الواحد فالواحد مجتمع عليه والثاني مختلف فيه»[١].

ذلك طرف طريف عَريف من شهادة الله لهذه الرسالة السامية، ومن ثم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مدى معرفتهم بوحي الكتاب، حيث الوحي نمط واحد مهما تفاضلت الدرجات، كما الرسل والرسالات درجات، كما وأن هذه الكتب تحمل له شهادات:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

هذه والتي في البقرة: ﴿...وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[٢] شهادة كتابية ذات بُعْدَيْن على هذه الرسالة السامية، فصلناها هناك فلا نعيد.

فكما أن الله شهيد للرسول بنفس الرسول وقرآنه المبين و﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾[٣] كذلك هو شاهد بسائر كتاباته بطبيعة وحيها والبشائر التي تضمها.

إذاً فهو مشحون بمثلث الشهادة الصادقة القاطعة القاصعة في هندسة الرسالة الختمية ولا ينبئك مثل خبير[٤].

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٠٧ في كتاب التوحيد بإسناده إلى الفضل بن شاذان قال: سأل رجل من الثنوية أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام وأنا حاضر فقال: «إني أقول:... فقال: قولك:»....

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٣) سورة هود، الآية: ١٧.

(٤) نور الثقلين ١: ٧٠٨ عن تفسير القمي عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٤٦] يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البَقَرَة: ١٤٦] لأن الله عز وجل قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفة أصحابه ومبعثه ومهاجره وهو قوله تعالى: =

فـ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ فقدانا لنفسياتها العاقلة وفطرياتها الكاملة، ومعرفتها الشاملة، فلم يفتقدها لمّا فقدوها ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الرسول ﷺ قضية المتاركة لأثافيِّ الإيمان ودلالاته.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢١)﴾:

أجل إنه لا أظلم ممن افترى على الله كذباً كما افترى من أهل الكتاب على الله أنه ختم بكتبهم الوحي وما أشبه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ رسالية ورسولية كما كذبوا بآيات الرسالة المحمدية في كتبهم وفيه نفسه وفي كتابه الذي كلّه آيات رسالته فإنه آيته الخالدة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مهما أبرقوا وعربدوا وحاولوا كلّ المحاولات لكلِّ الحيل الحائلة بين آيات الله وبيناته ورسالته المدلول عليها بها.

وهنا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعرِّف بالبعض ممن لا أظلم مِنهم، ومِنهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾(١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ﴾(٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾(٣).

= ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ...﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ...﴾ [الفتح: ٢٩] فهذه صفة رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل وصفة أصحابه فلما بعثه الله عزّ وجلّ عرفه أهل الكتاب كما قال جلّ جلاله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وفي تفسير البرهان ١: ٥٢٠ قال علي بن إبراهيم: إن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: هل تعرفون محمداً ﷺ في كتابكم؟ قال: نعم والله نعرفه بالنعت الذي نعته الله لنا إذا رأيناه فيكم كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه مع الغلمان والذي يحلف به ابن سلام لأنا بمحمد هذا أشد معرفة مني بابني قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٤.

ذلك، وهذه الثلاث أيضاً راجعة إلى افتراء الكذب على الله والتكذيب بآيات الله، وهذه من محادة الله ومشاقته تعالى مهما كانت دركات كما الإيمان به درجات.

والظلم - في ثالوثه مادةً وحالةً للظالم ومحتداً للمظلوم - دركات أسفلها ظلم المفتري على الله كذباً أو تكذيباً بآياته، وليس هنا الله هو المظلوم المنتقَص، إنّما الحق وآيات الحق هي المظلومة، حيث الظلم هو الانتقاص ولا ينتقص عن الله شيء، فقد ظلموا أنفسهم بما ظلموا آيات الحق المبين!.

ذلك ومن افترائهم الكذب على الله أنه اتخذ لنفسه شريكاً أو شركاء، وأمرهم أن يعبدوها من دون الله، ويتخذوها شفعاء عند الله، وأنه لم يوحَ بشيء إلى أحد، وأن الملائكة بنات الله، وأنه أحلّ ما أحلوه وحرَّم ما حرموه افتراء الكذب على الله، وأنه أمر بالفاحشة، ثم ولا يعذب اليهود والنصارى لأنهم أبناء الله وأحباءه!.

ومن تكذيبهم بآيات الله تكذيب الآيات الرسولية والرسالية، وتكذيب الآيات التي تحمل بشارات بحق محمد ﷺ وما أشير من سائر الآيات.

فقد ظلموا آيات الله وظلموا ناصع الحق حين افتروا الكذب على الله، فحين يعذبهم الله بما ظلموا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[1] لأن ظلمهم - أياً كان - راجع إلى أنفسهم وهم لا يفلحون وصولاً إلى بغيتهم اللئيمة، وهي واقع الظلم الانتقاص في افترائهم على الله وتكذيبهم بآيات الله، فقد ظُلموا بما ظَلموا أنفسهم ولم ينتقصوا من الله ولا من آياته.

فلا أن الله يُنتقص بظلمهم في فريتهم عليه، لا في ذاته ولا في صفاته

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

أو أفعاله، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1] ولا أن آيات الله تنتقص في واقعها الدلالي على الله، اللهم إلَّا تغطيةً إياها على أنفسهم وأنفس الضعفاء والمستضعفين، فهم - على أية حال - لا يُفلحون ويُفلجون، بل ويَفلجون ولا ينجون.

فكما الظلم في نفسه هو أقبح الأمور، ولا عصيان ولا تخلف إلَّا وهو ظلم، كذلك الافتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته هو من أظلم الظلم ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فلا عبرة بما تراه العيون القاصرة المائرة في قريب الأمد فلاحاً للظالمين ونجاحاً، فإنه الاستدراج المؤدي إلى خسار أخسر وبوار أبور ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[2].

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ من موحدين ومشركين ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ أياً كان إشراكهم في ثالوثه، عبادةَ أوثان وطواغيت، أم انحرافاً ثنوياً أو ثالوثياً وما أشبه عن التوحيد، أم انحرافاً عن إسلام التوحيد كملامح الشرك في المسلمين في فلسفاتهم وعرفاناتهم المتحللة عن الوحي.

ذلك، ولكن مَصبُّ السؤال التنديد هنا - كأصل - هو رأس زاوية الإشراك، فـ ﴿نَقُولُ﴾ لهم ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ دون شركائي، فإنهم مختلقَون من عند أنفسهم دون رباط لهم بالله، أين هم حيث ﴿كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ ولا بدَّ لهم أن يكونوا أبرز أهل الحشر، سواءً أكانوا من الآلهة الأصول كما الله! أم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٧.

الشفعاء، - على زعمهم - عند الله، فكيف تضل الآلهة الشفعاء أو المحاسَبون كأصول الألوهة عن محشر الحساب؟.

وترى ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ استحالة لبروز شركائهم هناك؟ ولا بدّ من بروزهم لمشافهة ذلك الحوار البوار! استفهام الإنكار هنا مُنصبٌّ على كيان الشركاء دون كونهم كخلق من خلق الله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾[1] ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[2] لذلك وقد زُيِّل بينهم وزالت عنهم ألوهتهم المزعومة: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾[3].

وهل تحشر - مع سائر أهل المحشر - الشركاء غير العاقلة كالجمادات؟

ولماذا! إنها تحشر للمقابلة، بل وتحرق حرقاً قلوبَ عابديها ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾[4].

وترى هل لهم من فتنة أمام ذلك الاستجواب الحاسم القاصم؟:

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

هنا هم ﴿كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وكذلك شركاءهم ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[5]! تكاذُب وتسالب في استجواب ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وقد فات يوم خلاص.

(١) سورة النحل، الآية: ٨٦.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٨.
(٣) سورة القصص، الآية: ٦٤.
(٤) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٩، ٩٩.
(٥) سورة يونس، الآية: ٢٨.

إن يوم القيامة مواقف لكلٍّ حكمُه دون تضاد ومنها «ثم يجتمعون في مواطن أخرى فيُستنطقون فيه فيقولون ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيختم الله تبارك وتعالى على أفواههم ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتشهد بكلِّ معصية كانت منهم ثم يرفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلّ شيء»[1].

وترى كيف يكذبون على أنفسهم وهو في العمق كذبٌ على الله في استجوابهم قضيةَ شركهم؟ وذلك يوم ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[2] ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[3]! إنهم في ذلك الموقف يتكلمون بكذبهم حيث هم مأذونون فضْحاً لهم بما يكذبون فـ «إن الله يعفو يوم القيامة عفواً لا يخطر على بال حتى يقول أهل الشرك: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[4].

---

(١) نور الثقلين ١ : ٧٠٨ في كتاب التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يذكر فيه أحوال أهل المحشر وفيه.

(٢) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

(٣) سورة النازعات، الآية: ٣٦.

(٤) المصدر عن تفسير العياشي عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله يعفو»... وفي تفسير البرهان ١ : ٥٢٠ عن تفسير العياشي عن أبي معمر السعدي قال : أتى علياً عليه السلام رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني شككت في كتاب الله المنزل فقال علي عليه السلام : ثكلتك أمك وكيف شككت في كتاب الله المنزل؟ فقال له الرجل: إني وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضاً وينقض بعضه بعضاً؟ فقال: هات الذي شككت فيه فقال: لأن الله يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] ويقول حيث استنطقوا قال الله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ويقول: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] ويقول لا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤] ويقول: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٨] ويقول: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

فمرة يتكلمون ومرة لا يتكلمون ومرة ينطق الجلود والأيدي والأرجل ومرة لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن وقال صواباً ، قال: فأنى ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال له علي عليه السلام : إن ذلك =

ذلك، وأما الكذب الذي به يحتجون على الله فلا، ولا حتى سؤلهم الكذب بسؤالهم الخاوي حين يسألون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[1].

ذلك بالنسبة للمشركين الأُصلاء الرسميين، وأما الموحدون الذين تخلفوا عن شرعة التوحيد تخلفاً مَّا عقيدياً أو عملياً، فقد تكون لمقالتهم صحة مّا إذ لم يكونوا وثنيين، ولكنهم - أيضاً - يُعتبرون من المشركين مهما بان بينهم بون.

والشرك المتفرع يعم الشرك الكتابي، والتجسيم والمشاقة في الرسالة الربانية أو الخلافة المعصومة إلى المرسومة بالأهواء والآراء[2].

= ليس في موطن واحد وهي في مواطن في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة فجمع الله الخلائق في ذلك اليوم في موطن يتعارفون فيه فيكلم بعضهم بعضاً ويستغفر بعضهم بعضاً من الذين بدت منهم المعاصي في دار الدنيا وتعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا والمستكبرون منهم والمستضعفون يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض ثم يجتمعون في موطن يفر بعضهم من بعض وذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٦] إذا تعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] ثم يجتمعون في موطن يبكون فيه فلو أن تلك الأصوات مدّت لأهل الدنيا لأذهلت جميع الخلائق عن معايشهم وانصدعت قلوبهم إلّا ما شاء الله فلا يزالون يبكون حتى يبكون الدم ثم يجتمعون في موطن فيستنطقون فيه فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين ولا يقرون بما عملوا فيختم على أفواههم ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتنطق فتشهد بكلِّ معصية كانت منهم ثم يرفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم وأيديهم وأرجلهم لِمَ شهدتم علينا؟ فتقول: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فُصّلَت: ٢١] ثم يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلائق فلا يتكلم أحد إلّا من أذن له الرحمن وقال صواباً ويجتمعون في موطن يختصمون فيه ويُدان الخلائق من بعض وهو القول وذلك كله قبل الحساب فإذا أخذ بالحساب شغل كلٌّ امرئ بما لديه نسأل الله بركة ذلك اليوم.

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٠٨ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل=

وترى كيف أصبح كذبهم على أنفسهم هناك فتنتهم؟ لأن الفتنة هو إخلاص الحق عن شوب الباطل كما تفتتن الذهب الخليط لتصبح من الخليص، فهم لم يكن لهم إخلاص لأنفسهم في ذلك الموقف الحاسم إلّا كذبهم على أنفسهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فالحقيقة التي تجلت عنها وتبلورت فيها ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ هي تخليهم عن ماضي شركهم كلّه وإقرارهم بربوبية الله الوحيدة غير الوهيدة، ولكن قد فات الأوان!.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

هذه مع ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[1] هما صفحتان متقابلتان من صحيفتي الأولى والأخرى، يرتسم في أولاهما العناد والإعراض وفي أُخراها الندم والحسرة، يرسمها القرآن الآن، خطاباً للفطر الجاسية هزّاً لها تساقطاً للركام الذي ران عليها، علَّ مغاليقها الصّلدة تنفتح وتفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ دون تدبر وتذكر، فإن «إلى» هنا لامحة إلى ظاهر الاستماع دون واقعة، حيث الاستماع الحق متعدٍّ بنفسه كـ ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾

= يذكر فيه أحوال يوم القيامة وفيه: ثم يجتمعون في مواطن أُخر فيستنطقون فيه فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، وهؤلاء خاصة هم المقرون في دار الدنيا بالتوحيد فلم ينفعهم إيمانهم بالله تعالى لمخالفتهم رسله وشكهم فيما أتوا به عن ربهم ونقضهم عهدهم في أوصيائهم واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير فكذبهم الله فيما انتحلوه من الإيمان بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٤].
وفيه عن تفسير القمي وروضة الكافي عن الصادقين عليهما السلام في الآية قال: يعنون بولاية علي عليه السلام.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۝١٨﴾[(١)] و﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[(٢)].

فالمستمع القول له أذن واعية صاغية، والمستمع «إلى» هو من الصُّمّ عن استماع الحق المبين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾[(٣)] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾[(٤)].

وهنا أكنة القلوب ألّا تعي القرآن، ووقر الآذان ألّا تسمع مهما استمعت، هما من الجزاء الوفاق يوم الدنيا ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾[(٥)] استدراجاً فيما هم درجوا فيه من ضلال، ضلالاً على ضلال.

فالأكنة هي الأغلفة النفسية التي تحول دون تفتح القلوب المقلوبة بما قلبوها، والوقر هو الصم الذي يحول دون آذانهم أن تؤدي واجب السمع إنسانياً.

فهذه نماذج شريرة من البشرية المعاندة التي ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[(٦)].

فلما ترك هؤلاء الأوغاد المناكيد فقه قلوبهم وإبصار أعينهم وسمع آذانهم

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٤٢.
(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٤٦، ٤٧.
(٥) سورة الصف، الآية: ٥.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

أترى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[٢] اعتذار صادق بما ختم الله عليها فهم يحتجون؟ كلّا وإنّهم محجوجون بما أجابهم الله ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

فلم تكن غُلف قلوبهم بدايةً من الله حتى يحتجوا، إنما هو لعن من الله بكفرهم أن أزاغ الله قلوبهم لما زاغوا.

ولأن ثالوث وقر الآذان وغشاوة الأعين وأكنة القلوب، سدت عليهم منافذ الدرك إنسانياً مهما أدركوا دركات الحيوانية النحسة، لذلك:

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ رؤية بالبصر أو بالبصيرة ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لمكان مضاعف الوقر والكنّ والغشاوة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ كأبي جهل وأضرابه من آباء الجهالات ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

فهم لا يجيئونك مفتوحي الأعين والآذان والقلوب ليتدبروا ما تقوله من وحي ربك، ولكن ليجادلوك التماساً لأسباب الرد والتكذيب، والتحريف والتجديف، ومنها ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وأباطيلهم وخرافاتهم التي سطروها: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[٤].

فمعالم السّر في السماوات والأرض التي يحويها القرآن العظيم، فضلاً عن معالم الواقع العلن، تدل أصحاب السّر الرباني والعلن أن لن يكون

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٨.
(٤) سورة الفرقان، الآيتان: ٥، ٦.

القرآن من منتوجات التعقلات والتفلسفات البشرية، فضلاً عن أساطير الأولين.

فقضية وحي القرآن هي من القضايا التي قياساتها معها، دون حاجة له إلى برهان سوى نفسه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1] ذلك!:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿وَهُمْ﴾ أولاء المفترون على الله الكذب، المكذبون بآياته، الذين على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر، المفترون على القرآن أنه من أساطير الأولين، هؤلاء حين يستمعون إليك ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ مَن سواهم من المستضعفين وسواهم، كما وهم أنفسهم ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ ظلمات بعضها فوق بعض ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ بالمآل ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إذ يخيَّل إليهم أنّهم يهلكون المؤمنين به الصادقين، فهم - رغم أنفهم - ليسوا لينأوا عنه بنهيهم أو الضعفاء، فإنَّهم هم أنفسهم في ضلال، أو أنهم يهلكون القرآن بدعوته وداعيته، وليس القرآن ليهلك بما هم ينهون عنه وينأون عنه:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2].

وترى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يحتمل النهي عن أذاه لتصدق الرواية المختلقة أنها

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

نازلة في أبي طالب رحمه الله حيث كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به(١).

﴿وَهُمْ﴾ يعني - ككلّ - المشركين المفترين المكذبين الذين كانوا يؤذونه حياتَهم، ويتربصون به كلَّ دوائر السوء.

ثم و﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كما ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ هما في مصب الذم والتنديد على سواء، كما ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يهددهم بالهلاك بما ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾.

(١) الدر المنثور ٣: ٨ - أخرج جماعة عن ابن عباس في الآية قال: «نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين»... وعن القاسم بن مخيمرة في الآية قال مثله.. ولا يصدق به، وعن عطاء ابن دينار في الآية قال مثله... وينأى عما جاء به من الهدى.

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال: ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به وينأون عنه يتباعدون عنه، ومثله عنه من طريق العوفي وعن محمد بن الحنفية وعن مجاهد وعن قتادة.

فالروايتان متعارضتان ولا تقبل الآية إلّا الثانية، والأولى معروضة عرض الحائط.

ذلك ولقد أجمع أئمة أهل البيت عليهم السلام على إيمان أبي طالب رضي الله عنه، وفيه روايات تبلغ حدَّ التواتر ومنها ما رواه ابن عمران أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ فقال: ألا تركت الشيخ فآتيه؟ وكان أعمى، فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله تعالى والذي بعثك بالحق لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحاً مني بإسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك فقال ﷺ: صدقت.

وروى الطبري بإسناده أن رؤساء قريش لما رأوا ذب أبي طالب عن النبي ﷺ اجتمعوا عليه وقالوا: جئناك بفتى قريش جمالاً وجوداً وشهامة عمارة بن الوليد ندفعه إليك وتدفع إلينا ابن أخيك الذي فرق جماعتنا وسفه أحلامنا فنقلته فقال أبو طالب: ما أنصفتموني تعطونني ابنكم فأغذوه وأعطيكم ابني فتقتلونه بل فليأت كلّ منكم بولده فأقتله وقال:

منعنا الرسول رسول المليك ... ببيض تلألأ كلمع البروق
أذود وأحمي رسول المليك ... حماية حام عليه شفيق

وأقواله وأشعاره المصرحة بإيمانه كثيرة لا تحصى ومنها:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خطّ في أوّل الكتب

ومنها:

الا إن أحمد قد جاءهم ... بحق ولم يأتهم بالكذب

ومن ثم لم ينه عنه - فيما يختلقون من إضافة النأي عنه - إلّا أبو طالب وعوذاً بالله، فكيف يقول ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ولو أن ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ هم غير من ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ لتساقط النظم إلى أسفل دركات الركاكة، وماهية إلّا قضية بغضهم لأبي طالب رحمه الله، لأنه أبو علي عليه السلام!.

وترى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ تختص بهؤلاء المشركين، ولا تشمل معهم هؤلاء المسلمين! الذين ينهون عن القرآن باعتذار أنه لا يُفهم، وأن التدبر فيه لتفهمه تفسير له بالرأي، وكما هم ينأون عنه، فأصبحت الحوزات العلمية خلواً عن القرآن كأصل حيث يجب أن تتبناه كلّ الحوزات الإسلامية في كلِّ الإسلاميات عقيدية وفقهية وفلسفية وسياسية أماهيه من حيوياتهم؟!.

وكلُّ نهي عن القرآن ونأي عنه - أياً كان ومن أيٍّ كان وأيان - قضيَّته هلاك الأنفس الناهية النائية، فالناهي عن القرآن والنائي عنه أيّاً كان هالك كما أن علومه حلوم هالكة حالكة.

وهنا المنهي عنه والمنتهى عنه هو القرآن وهو رسول القرآن، ولكن القرآن هو الأصل الخالد طول حياة التكليف منذ بزوغه إلى يوم الدين، فالنهي والنأي عنه، نهي ونأي عن الرسول، كما النهي عن الرسول والنأي عنه، نهي ونأي عن القرآن، والنهي عن القرآن أنحس من النهي عن رسول القرآن.

فقرآن محمد ومحمد القرآن هما اللذان يبنيان صرح الإسلام، فالمفروض أن تتبناهما الحوزات الإسلامية، فالقرآن إمام محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو أمامه، هما المحوران الأصيلان للأمة الاسلامية في قرونها دون فصال اللّهم إلّا فصالاً عن أصل الإسلام وأثافيِّه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

ذلك المشهد هناك خزياً واستخذاءً وانتداماً يقابل مشهد الإعراض هنا والجدال والنهي والنأي وأين مشهد من مشهد؟!.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا رسول الهدى ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ هؤلاء الناهون عنه والناؤون عنه ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ التي أججوها على القرآن ورسالتك القرآنية، بروزا لملكوتها يوم الدين ﴿فَقَالُوا﴾ لما رأوها متندمين متحسرين ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى حياة التكليف ثم ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وترى ﴿وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تعني وقوفهم عندها؟ وعبارته الصالحة «وقفوا عند النار»! أم وقوفهم في جوف النار؟ وعبارته ﴿وُقِفُوا﴾ - أو - «ادخلوا في النار»! أم وقوفهم فوق النار؟ وعبارتهم عبارته! أم وقوفهم على حقيقة النار تعريفاً بها لهم عريفاً عريقاً دخلوها أو لمّا؟ وهو الصالح لعناية ﴿وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ﴾ مهما عنيت معه المعاني الأخرى جمعاً بين الوقوفات.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿بَلْ﴾ لا طائل تحت قول قائلهم ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ...﴾[1] ﴿بَلْ﴾ خلاف ما يدعون أنهم لم يكونوا مشركين، وخلاف ﴿مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ الموت من عبادتهم وأعمال دون ذلك ﴿بَلْ﴾ لا يريدون الرجوع إذ يعلمون من أنفسهم استمرارية الكفر، فإنما خوفهم من النار التي وقفوا عليها مُناهم ذلك التمني كاعتذار.

وجملته أنهم كانوا مفترين على الله مكذبين بآيات الله مهما كانوا يظهرون واجهة من الإيمان وآمن من أهل الإيمان، يخفون في زعمهم الكفر مظهرين أنه إيمان!.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.

ولأن الإخفاء هنا هو طليقه عارفين وغير عارفين، فمنه إخفاء النار التي كانوا يؤججونها يوم الدنيا وبصرهم عنها كليل، وهناك ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾(١) - ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٢).

ومنه إخفاء الحق على المستضعفين وإظهاره مظهر الباطل فـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾(٣) ومنه ما كان يخفيه المنافقون من باطن الكفر متظاهرين بالإيمان ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾(٤) وعلى الجملة ﴿بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ﴾ من سيئات أو من الحقائق يوم الدنيا، وما كانوا يخفون يوم الدين من إشراكهم، وما كانوا يخفون من أعمالهم زعماً أنها لا تبقى، فإنه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾(٥) فقد تشمل ﴿يُخْفُونَ﴾ كلّ إخفاء شِرِّير عن أنفسهم أو غيرهم أم عن الله في زعمهم، فلا تخفى يومئذ خافية إذ تبدى السرائر.

﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ ومحال أن يُردوا إلى حياة التكليف ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ لا «إلى ما نهوا عنه» - فقط - من سيئات، بل لكان عودهم لما نهوا عنه حتى يستزيدوا من عنادهم، فللّام هنا دور حاسم لمتخيل إيمانهم وصالحاتهم، أن ردهم لا ينتج إلّا عودهم لهدف استزادة واستدامة ما نهوا عنه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٣٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

أجل «وإن الله ليعلم ما لو كان كيف هو كما يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن فإنه بكلِّ شيءٌ عليم»[١].

وترى إذا كانت الرجعة إلى حياة التكليف مستحيلة - إذاً - فما هو دور الرجعة في دولة المهدي عليه السلام؟.

إن بين الرجعتين لبوناً شاسعاً، فالرجعة الكائنة هي قبل يوم القيامة، وهي ليست لاستدراك الطالحات بالصالحات التي أحيلت و﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ وأما الصالحون من الراجعين فهي لهم حظوة ونصرة للقائم عليه السلام.

فالمنفي - كلمة واحدة - من الرجعة في حياة التكليف هي التي يظن الراجع أو يدعي بقوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[٢] حيث الجواب ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٣] - ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[٤].

والمُثبت كما في لمحات أو تصريحات لآيات هو رجوع من محَّض الإيمان محضاً ومن محَّض الكفر محضاً، رجعة مفروضة، أو المتوسطين في الإيمان وهو رجعة بالاستدعاء، والمرفوضة هي رجعة المتطلبين إياها استدراكاً لما كفروا، سواء أكانت من البرزخ كما في آيات، أم من القيامة كما في أخرى وهذه منها.

---

(١) نور الثقلين ١ : ٧٠٩ في عيون الأخبار بإسناده إلى الحسين بن بشار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: سألته أيعلم الله الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف يكون؟ فقال: إن الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء قال عزّ وجلّ : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] - وقال لأهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] - فقد علم الله عزّ وجلّ أنه لو ردهم لعادوا لما نهوا عنه.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

ذلك، ومن ثمَّ استحالة أخرى للرجعة من القيامة إلى الدنيا حتى للصالحين، أن قضيتها تحوُّل الآخرة إلى الدنيا رجوعَ القهقرى.

وترى كيف ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ والتمني إنشاءٌ وليس إخباراً، فقد تمنوا أن لو ردوا لم يكذبوا ويكونوا من المؤمنين؟ ولكنه إنشاءٌ يتضمن الإخبار، فإن تمني أمرٍ ليس إلَّا التصميم عليه إن فسح المجال، ولكنهم كاذبون في تمنيهم الكذب «وإنهم ملعونون في الأصل»[1].



(١) نور الثقلين ١ : ٧١٠ عن تفسير العياشي عن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: أنهم..

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾:

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ

عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[(١)] - ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[(٢)].

لقد تحدثنا عن الآيتين الأخريين في مجالتهما بما يحلق على الآيات الثلاث فلا نعيد، إلَّا أن آية الجاثية هي الوحيدة بين هذه الثلاث وبين سائر الآيات التي تتحدث عن حصر الحياة في هذه الأدنى، وحيدة في استعراض مذهب الماديين الناكرين لأصل المبدأ، وهم أنحس وأركس من المشركين.

ذلك! ولكن الحياة في العقلية والتصور الإسلامي السامي تمتد طولاً في الزمان وعرضاً في الآفاق وعمقاً في العوالم وتنوعاً في الحقيقة، دون أن تقف في حيونتها الدانية الفانية كما يتقوله الماديون والمشركون وأضرابهم.

صحيح أن المسلكين مشتركان في نكران المعاد، وبذلك هما مشتركان في نحوسة العقيدة ويبوستها، ولكن الأكثرية الساحقة - في ثاني المسلكين في الطول التأريخي - التي جعلت مصب التنديد والاعتراض في كثير من الآيات هم المشركون.

أو يقال إن الإشراك بالله مع الاعتراف به هو - في واجهة - أنحس من نكران وجود الله، لأنه تسوية بين الله وخلقه، بل وتفضيل له عليه تعالى في واقع الحياة العقيدية والعملية، مهما كان نكران جوده تعالى أنحس من واجهة أخرى.

ذلك، وفي الحق إن تصور اختصاص الحياة بهذه القصيرة الدانية، يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة.

فهذه الآفاق الضيقة في كلِّ آمادها وأبعادها - هنا - التي تلصق الإنسان

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٧.

وتخلده إلى الأرض، اختصاصاً لتصوره بالمحسوس منها كالبهيمة المربوطة همّها علفها أو المرسلة شغلها تقممها، وهذه الرقعة الأرضية الضيقة زماناً ومكاناً التي تطلق السُّعار البهيمي في النفس والتكالب على المُتَع المحدودة والعبودية لها، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح ولا هدنة ولا أمل في تعريض، وهذه الأنظمة المادية الحيوانية التي تنشأ في الأرض منظوراً فيها إلى هذه الحياة القصيرة القاصرة الحيوانية، بتصارع الطبقات والأجناس، انطلاقاً في الغابة كالوحوش والغيلان كما نشهده اليوم في الحياة الراقية المتحضرة للجاهلية الحاضرة.

هذه وتلك كان الله يعلمها كلّها، ولذلك يؤكد مراراً وتكراراً على مستقبل الحياة الخالدة للإنسان وكافة المكلفين ليأخذوا حذرهم عن الحياة الدنيا ومتاعهم منها للأخرى.

هذه واجهتهم الجاهلة القاحلة في حياة الغفلة والنشوز، ومن ثم واجهة تضادها يوم النشور:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

هناك ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[1] في دار القرار بعدما استغفلوا عنها في دار الفرار، وهنا ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وقوفاً على حقه بربوبيته التي قضيته الضرورية عدلاً وفضلاً ورحمة منه إرسالُ الرسل وإنزال الكتب وإقامة يوم الحساب.

﴿وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ شاؤوا أم أبوا ولات حين فرار أو إنكار، بعد ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم الدنيا وهم منكرون، وأين وقوف من وقوف؟!.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.

والوقوف على الرب وقوفاً على ربوبيته هو من لقاءِ الله، فهو يوم الدنيا فرضٌ هيأ الله أسبابه، ثم هو يوم الأخرى لا مرد عنه، ولكنه باستثناء القرب الزلفى، حيث الكافر - هناك - بعيد عن الله كما هنا، والمؤمن قريب إليه هناك كما هنا وفيه مزيد وكما وعد ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(١).

﴿... أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟ وقد وقفتم الآن عليه، وكنتم واقفين من ذي قبل ولكنكم كذبتم به جاحدين: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٢).

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ الذي وقفنا عليه الآن مهما كنا به كافرين ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ذلك وليس الوقوف على الرب هنا أو هناك حيطة عليه علمية ومعرفية فضلاً عن الحسية، إنما هو الوقوف على ربوبيته قدر المستطاع هناك، كما هو المفروض هنا، فمعرفة الله وعبادته والزلفى إليه كلّها وقوف على الرب دون إيقاف على حيطة مّا في أي حقل من حقولها، فـ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾(٣) و﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾(٤).

ومهما كان الوقوف على الرب بربوبية التكليف والجزاء هنا في غطاء وغشاء، فليس للوقوف عليه هناك غشاء وغطاء ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٥).

وهناك مصبُّ الوقوف على ربهم هو ربوبية الجزاء، كما تلمح لها ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾.

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٠.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.
(٥) سورة ق، الآية: ٢٢.

وترى كيف يكلمهم الله هناك: أليس هذا بالحق؟ ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١)؟!.

التكليم الرباني المنفي هو الذي فيه تزكية لهم ورحمة وهو من ثوابهم وزلفاهم، وأما تكليم التنديد وهو من عذابهم فهو وارد وِرد العذاب الشديد.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾:

هنا وفي عديدة أخرى ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ وهناك في أخرى «لقاء الرب» وطبعاً كما هما مشتركان في أصل المعني من اللقاء قد يختلفان في قسم من حواياه وزواياه وبينهما عموم مطلق(٢).

ومن الضروري في هذا البين أن لقاء ذاته تعالى مسلوب على الإطلاق إذ لا حدَّ له ولا زمان ولا مكان ولا حلول ولا اتحاد في الذات، فلقاؤه لنا معرفياً بمعنى إدراكه والحيطة العلمية أو المعرفية به، إنه مستحيل حيث المحدود لن يحيط باللّامحدود بأية حيطة.

ثم اللقاء الممكن والمفروض هو بين لقائنا إياه ولقاءه إيَّاناً، وقد يتحملهما لقاء الله ولقاء الرب في وجهي الإضافة إلى المفعول والفاعل، أننا نلاقيه وهو يلاقينا.

فلقاؤه خلقَه ككلٍّ في واجهة العلم والقدرة والرحمة الرحمانية العامة هو

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

(٢) من لقاء الله الوقوف على الرب بربوبيته وقوفاً معرفياً قدر الإمكان وكما تدل عليها الآيات آفاقية وأنفسية، وقد يلاقي الله بألوهيته دون ربوبيته ولكن لقاء ربوبيته يلازم لقاء ألوهيته من ذي قبل.

لزام الخلق ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾[(١)] في هذا المثلث ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[(٢)] ولا يعني لقاءَهم بذاته في زمان أو مكان أو أيّاً كان حيث لا يحويه زمان ولا مكان، فالمعية في لقائه خلقَه لا تعني إلَّا القيوميَّة بكلِّ قواماتها.

ولقاء خلقه إياه في كلِّ ما لديهم فقراً ذاتياً وأفعالياً وصفاتياً إليه - كذلك - لزامُ كياننا، فإنهم متعلقون بالله تعلق اللَّاشيء بكلِّ شيء، فلنا أن نلاقيه معرفياً فعبودياً فزلفى فثواباً آجلاً وعاجلاً، فطرياً وعقلياً وعلمياً وشرعياً.

ثم هناك لقاء له إيانا بربوبية التكليف هنا في شرائعه وبربوبية الجزاء هناك بالحساب والثواب والعقاب، ولقاء لنا إياه فيهما حيث نربّى بهما.

ولقاء له آخر - على ضوء ربوبية التكليف - إيانا، أن يقربنا إليه زلفى معرفياً وعبودياً، ثم جزاءً لنا وفاق ولديه مزيد هناك معرفياً وثواباً، وهذا على قدر لقائنا إياه ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[(٣)].

والتكذيب بلقاء الله يعم كلّ هذه اللقاءات في مثلث النشآت، فمن مكذب بلقاء الله، نكراناً لألوهيته كما الدهريون، أو مكذب بلقاء الرب نكراناً لربوبيته الوحيدة تكليفاً وجزاءً، وثالث يكذب بأن عبادته وحده على معرفته ومعرفته على عبادته تسبب لقاءه معرفياً هنا زلفى، وثواباً في كلِّ جنباته في الأخرى.

فهذه قيلة عليلة أن معرفة الله مستحيلة، فالإقرار به مستحيل فضلاً عن عبوديته، فكيف يصدَّق من لا يُعرف، وكيف يُعبد من لا يصدِّق بما لا يُعرف؟.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

حيث المعرفة المنفيَّة هي المنهية المرفوضة، والمعرفة المثبتة الممكنة للخلق على مراتبهم، هي مفروضة، ولا نصيب لنا في معرفته إلّا جانب السلب مع إثبات الأصل أنه: موجود لا كوجوداتنا، قادر لا كقدراتنا...

ثم «لقاء الله» هو لقاؤه إيّانا ولقاءَنا إيّاه في ألوهيته، و«لقاء الرب» هو اللقاءان في ربوبيته، ولأن ألوهيته وربوبيته فرقدان لا يتفاصلان، فنكران كلٍّ هو كنكران الآخر، فالناكر لربوبيته ناكر لألوهيته، كما الناكر لألوهيته هو - طبعاً وبأولى - ناكر لربوبيته.

تقوى الله هنا سبب صالح للقائه تعالى برحمته الخاصة: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓا أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١] لقاء في الدارين: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[٢].

وآيات لقاء الله ولقاء الرب - التي تعني كأصل لقاء يوم الله ويوم الرب، مهما عنت سائر اللقاء بضمنه - كثيرة منبثة في سائر القرآن سيراً أدبياً مزيجاً، ومن أبرزها: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَءَاتٍ﴾[٣].

وليس رجاء ذلك اللقاء إلّا بواقع اللقاء يوم الدنيا في كلٍّ حلقاته المستطاعة، وبين اللقاءين عقيدياً عموم مطلق، فالراجي لقاء الله في الأخرى محقِّق لقاءَه في الأولى، وليس كلُّ محقق لقاءَه في الأولى راجياً لقاءَه في الأخرى، كالذين لا يؤمنون باليوم الآخر من موحدين ومشركين، فإنما اللقاء الصالح هنا يخلِّف رجاء اللقاء قدَرَه هناك.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٥.

فمن حظي حظوة لقائه تعالى رباً في الأولى فقد رجى لقاءه رباً في الأخرى، ولكن ملاقيه إلهاً - فقط - لا رباً كما يحق، قد لا يرجو لقاءه هناك رباً وهؤلاء كثير: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾(١) - ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾(٢) إنما لقاؤه تعالى في الأخرى هو قدر لقائه في الأولى اللّهم إلّا في الثواب فإنه قضية فضل الله.

فـ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ في أية دركة من دركات تكذيبهم، ولا سيما لقاء ربوبيته يوم الجزاء مهما اعتقدوا في وحدته إلهياً وربوبياً، فضلاً عما أنكروه من ملحدين ومشركين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ إذ ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ﴾(٣) ولكن أين بغتة عامة تحلّق على فريقي الإيمان والكفر، وبغتة خاصة لمن ينكرونها، فهي - إذاً - لهم مباغتة مضاعفة.

ذلك فغير المؤمنين ككلّ يشملهم التنديد المديد في ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ فالمادي ناكر لقاءه نكراناً لكونه، استبدالاً للمادة بالله، والمشرك ناكر لقاءه كما هو واحد لا شريك له، كما هما ناكران لوحيه الرسالي وليوم الجزاء، والكتابي المنحرف عن توحيده أو وحيه أو جزائه هو ثالث ثلاثة، فنكران كلٍّ لقاء لله وللرب فيما يجب أو يجوز خسرانٌ، وتصديقه نفع وإيمان، والمحور الأصيل الذي ليس له بديل في واجب اللقاء هو حياة الحساب يوم الحساب.

﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ تقصيراً في الاعتقاد بها فقصرنا - إذاً -

---

(١) سورة الروم، الآية: ٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

في سائر عقائدنا وأعمالنا، وقدير جمع ضمير التأنيث - إضافة إلى الساعة - إلى الدنيا حيث فرطوا فيها بجنب الله، إذ لم يتزودوا في ساعة الدنيا لساعة لقاء الله برزخاً وللأخرى.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ أنفسهم حيث ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(١)] ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ تقصيراً في يوم لقاء الله، وهم في حملهم أوزارهم كالدواب الموقَرة بالأحمال وأضل سبيلاً، فإن حِمل الدواب هو لصالحها وصالح أصحابها، وحِمل هؤلاء طالح لطالح حالهم ومآلهم.

وهنا ﴿يَحَسْرَتَنَا﴾ بما يرون من منازل الثواب والعقاب، لا سيما على حدِّ المروي عن الرسول ﷺ: «الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة في الجنة فتلك الحسرة»[(٢)].

ذلك والحسرة يومئذ تحيط بأهلها لحدٍّ سمي ذلك اليوم يوم الحسرة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٣)] - ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾[(٤)] ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[(٥)] - وترى ﴿لِقَاءِ اللَّهِ﴾ هنا هو فقط لقاء الآخرة؟ فماذا تعني ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وهم لا يكذبون به في البرزخ!.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٢) الدر المنثور ٣: ٩ - أخرج جماعة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: . . .

(٣) سورة مريم، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الزمر، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

إنه لقاء الله يومي الجزاء، فـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ لمن هو حي عند قيام الساعة هي منتهى الغاية لتكذيبهم أولاءِ، ولمن هو ميت قبله فالموت هو منتهى غايتهم.

فقد ﴿كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ ساعة الموت وساعة القيامة.

ولكن الحسرة الحاسرة الأصيلة الحاصرة هي التي تحصل لأهلها يوم الآخرة حيث ﴿يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾[1] ذلك!:

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ - وهي الدانية دنيئة ودنواً - حياةً ﴿إِلَّا لَعِبٞ﴾ هو للطفولة ﴿وَلَهۡوٞۖ﴾ هو لأشباه الطفولة وأضل سبيلاً حيث يلتهون بها عما يُعنى إنسانياً وإيمانياً ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾ من الدنيا، لمن؟ ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ دون الذين يطغون، فإن الدنيا خير لهم من الآخرة، فالدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أخذاً لهذه الحقائق المعقولة، لأن عقولكم معقولة بعقالات الهوى.

وترى الحياة الدنيا - وهي مدرسة الصالحين ومبعثة المرسلين - هي - فقط - لعب ولهو، فأين يحصل - إذاً - ثواب الله يوم الآخرة لولا الحياة الدنيا؟.

هذه الحياة لها واجهتان اثنتان، دنيا دنية هي للذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، ودنيا عالية هي للمطمئنة نفوسهم بالله، فالدنيا لهم مدرسة ومكرسة ومزرعة للآخرة، فالمؤمن دنياه آخرة لأنها مزرعة الآخرة، والكافر آخرته دنيا لأن دنياه مزرأة الآخرة.

إذاً فدنيا المتقين هي الحياة الأدنى دنواً إليهم، وهي في نفس الوقت

---

(١) سورة النجم، الآية: ٤١.

لهم حياة عالية تتلوها أخرى هي العليا، ودنيا الطاغين هي الحياة الدنيئة إذ يخسرون فيها أنفسهم ويخسرون الآخرة وهي لهم أخزى.

ذلك ولأن النتيجة الحسنى خير من الأعمال المنتجة لها، فـ ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ و﴿خَيْرٌ﴾ هنا - كضابطة - أفعل تفضيل، فلو لم تكن الحياة الدنيا لهم فضيلة لما كانت الآخرة لهم الفضلى.

فإن أهل الدنيا ركبتهم وعبَّدتهم فتدللوا لسلطانها فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين، ولكن أهل الآخرة ركبوا الدنيا وعبّدوها فتذللت لسلطانهم واستُعبدَت لهم فربحوا الدنيا والآخرة[1]: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].

فالدنيا - إذاً - محظورة ومحبورة من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته[3].

فقد يسمع الامام علي عليه السلام رجلاً يذم الدنيا فيقول له: «أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أتغتر بالدنيا ثم تذمها؟ أنت المتجرِّم عليها أم هي المتجرمة عليك؟ متى استهوتك أم متى غرتك؟

أبمصارع آبائك من البِلى، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ كم علَّلتَ بكفيك؟ وكم مرضت بيديك؟ تبغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، غداةَ لا يغني عنهم دواؤك، ولا يجدي عليهم بكاؤك، لم ينفع أحدهم إشفاقك، ولم تسعف فيه بطلبتك، ولم تدفع عنه بقوتك، وقد مثلت لك به الدنيا نفسَك، وبمصرعه مصرعك.

إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى

---

(١) نهج البلاغة ١٣١ ح/ ٥٩٠.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

(٣) هذا من كلمات الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

لمن تزوَّد منها، ودار موعظةً لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلَّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونَعَت نفسها وأهلها، فمثلت لهم ببلائها البلاءَ، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعافية، وابتكرت بفجيعة، ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكَّرتهم فتذكروا، وحدثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا».

وله من ذم الدنيا بما يعاملها أهلوها قوله عليه السلام: «أما بعد فإنِّي أحذركم الدنيا فإنها حلوة خَضِرة، حفت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم حَبْرَتها، ولا تؤتمن فجعتها، غرَّارة ضرَّارة، حائلة زائلة، نافذة بائدة، أكالة غوَّالة، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[1] لم يكن امرؤٌ منها في حبرة إلّا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق في سرائها بطناً إلَّا منحته من ضرائها ظهراً، ولم تُطلَّه فيها ديمة رخاءٍ إلّا هتنت عليه مُزنة بلاء، وحريٌّ إذا أصبحت له متنصرة أن تمسي له متنكرة، وإن جانبَ منها اعذوذب واحلولى أمرَّ منها جانب فأوبى، لا ينال امرؤٌ من غضارتها رَغَباً إلَّا أرهقته من نوائبها تعباً، ولا يُمسي منها في جناح أمن إلَّا أصبح على قوادم خوف، غرّارة غرورٌ ما فيها، فانية فانٍ من عليها، لا خير في شيء من أزوادها إلّا التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه وزال عما قليل عنه، كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي أُبَّهة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردته ذليلاً، سلطانها دُوَلٌ، وعيشتها رَنَق، وعذبها أُجاج، وحلوها

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

صبر، وغذاؤها سهام، وأسبابها رِمام، حيُّها بعَرَض موت، وصحيحها بعرض سقم، ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموقورها منكوب، وجارها محروب»(١).

و«أيها الناس إنما أنتم في هذه الدنيا غَرَض تنتصل فيه المنايا، مع كلِّ جَرعة شَرَق، وفي كلِّ أكلةٍ غَصص، لا تنالون منها نعمة إلَّا بفراق أخرى، ولا يعمَّر معمَّر منكم يوماً مِن عُمُره إلَّا بهدم آخر من أجله، ولا تجدّد وله زيادة في أكله إلَّا بنفاد ما قبلها من رزقه، ولا يُحيا له أثر إلَّا مات له أثر، ولا يتجدد له جديد إلَّا بعد أن يخلق له جديد، ولا تقوم له نابتة إلَّا وتسقط منه محصودة، وقد مضت أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله»(٢).

وحين يقال له: «كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟ يقول: كيف يكون حال من يفنى ببقائه ويسقَم بصحته ويؤتى من مأمنه»(٣).

و«لا ينبغي للعبد أن يثق بخصلتين: العافية والغنى، بينا تراه معافىً إذ سَقِم وبينا تراه غنياً إذا افتقر»(٤).

«ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، ومما لك عند الله عوضاً»(٥).

«فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُثالة القَرَظ وقراظة الجَلَم، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم»(٦).

«والدنيا دار مُني لها الفناء، ولأهلها منها الجَلاء، وهي حلوة خضراء، وقد عَجِلت للطالب، والتبست بقلب الناظر، فارتحِلوا منها بأحسن ما

---

(١) (الخطبة ١٠٩ / ٢١٤).
(٢) (الخطبة ١٤٣ / ٢٥٦).
(٣) (٦١٥ / ٥٨٦).
(٤) (٢٤٢٦ / ٦٥٣).
(٥) (الخطبة ٨٦ / ٣٢).
(٦) (الخطبة ٣٢ / ٨٧).

بحضرتكم من الزاد، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ»[١].

«فإن الدنيا رَنق مشربها، ردْغٌ مشرعها، يونق منظرها، ويوبق منظرها، غرور حائل، وضوءٌ آفل، وظل زائل، وسناد مائل، حتى إذا أنس نافرها، واطمأن ناكرها، قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبُلها، وأقصدت بأسهمها، وأعلقت المرءَ أوهاق المنية، قائدة إلى ضنك المضجع، ووحشة المرجِع، ومعاينة المحل، وثواب العمل، وكذلك الخلف بعقْب السلف، لا تُقلع المنيةُ اختراماً، ولا يرعوى الباقون اجتراماً، يحتذون مثالاً، ويمضون أرسالاً، إلى غاية الانتهاء، وصيُّور الفناء»[٢].

«ما أصف من دار أولها عَناء، وآخرها فَناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فُتِن، ومن افتقر فيها حَزِن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصَّرته، ومن أبصر إليها أعمته»[٣].

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ محققاً دون ريب ﴿إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك في رسالتك وفيما أرسلت به، تكذيباً واستهزاءً، ولكنك لست أنت كمحمد مصبّ تكذيبهم[٤]، إنَّما أنت المكذَّب كرسول، فالله هو المكذَّب ﴿فَإِنَّهُمْ لَا

(١) (الخطبة ٤٥ / ١٠٣).
(٢) (الخطبة ١٨١ / ١٣٧).
(٣) (الخطبة ٨٠ / ١٣٥).
(٤) الدر المنثور ٣: ١٠ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبي ميسر قال: مر رسول الله ﷺ على أبي جهل فقال: والله يا محمد ما نكذبك أنك عندنا لصادق ولكنا نكذب بالذي جئت به فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ . . .﴾ [الأنعام: ٣٣] وفيه أخرج ابن جرير عن أبي صالح في الآية قال: جاء جبرائيل إلى النبي ﷺ وهو جالس حزين فقال له: ما=

يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وأنت برسالتك منها ﴿يَجْحَدُونَ﴾، ولكن «لا يستطيعون إبطال قولك»[١]، حيث الحق يملك من البراهين ما لا يستطيع أحد تكذيبه بحجة، فإنّما ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٢].

فتكذيب رسول الله تكذيب بآيات الله، والتكذيب بآيات الله تكذيب بالله فهم - إذاً - في ثالوث من التكذيب.

وتراه ﷺ هنا يُنهى عن أن يحزن بما يقولون ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ حتى تحزن على نفسك «ولكن...»؟ لكن الحزن على تكذيب آيات الله أحزن للرسول من حزنه على نفسه! فكيف التفاصل بينهما؟!.

ولكنه لم يُنه عن حزنه كأصل، بل المنهي عنه هنا هو حزن المظلوم المغلوب في أمره، فإذا كان المكذَّب آيات الله والله لا يُظلم وهو ناصر لآياته رسولية ورسالية وسواها، ثم ولا مبدل لكلماته عن دلالاتها وتحققاتها فلماذا الحزن - إذاً - على ذلك التكذيب: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[٣].

فالحزن منه محظور كأن يحزن الرسول على تكذيبه لأنه هو، أو يحزن

= يحزنك؟ فقال: كذبني هؤلاء فقال له جبرائيل: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣] إنهم ليعلمون أنك صادق ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

(١) نور الثقلين ١: ٧١٢ في تفسير العياشي عن الحسين بن المنذر عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ وفي تفسير الفخر الرازي ١٢: ٢٠٥ - أن الحارث بن عامر من قريش قال: يا محمد والله ما كذبتنا قطّ ولكنا إن اتبعناك نتخطف من أرضنا فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب وفيه روي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد ﷺ أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟

فقال له: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت هذه الآية.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

على تكذيب الله خوفة على انتقاض من سماحته وانتقاص من ساحته، أو يحزن عليهم بما يوعدون، فكلُّ ذلك محظور، تدل على حظره آيتنا وآية النمل.

ومنه محبور كأن يحزن حامل الرسالة على أن الله يُعصى، فمن قضايا الإيمان فضلاً عن رسالة الإيمان، أن يحب الرسول تحقيق رسالة الله ويبغض ويحزن على تكذيبها، وهنا ﴿لَيَحْزُنُكَ...﴾ تسلية لخاطره الخطير ألا يشتغل بذلك الحزن عن كامل البلاغ لرسالته أو يستملّ عنه.

ثم لست أنت بدعاً من الرسل في ذلك التكذيب التعذيب بل هو طبيعة الحال في رسالات الله كلها:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

فإنَّما الزاد والراحلة في طريق الرسالة الشائكة المليئة بالعقبات والعقوبات، إنَّما هو مواصلة الدعوة والصبر القوة والصمود - دون صبر الذلة، التخاذل - ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ فإن الله كافل لفلاح الدعوة إذا الداعية يحقق الدعوة كما يرام.

﴿فَصَبَرُوا... وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ في جنبات من الدعوة للداعية والذين معه ثم ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ الحاملة لوعده نصراً للصابرين في سبيله، الماضين في دعوته، كما ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة عليه تكوينية وتشريعية، فلماذا الحزن - إذاً - على تكذيبهم بآيات الله وهي قويمة مستقيمة لا تنمحي بما يمحون ولا تنقضي بما يقضون!.

فيا سالك سبيل الهدى وتارك سبيل الردى «إنَّ من صبر صبر قليلاً وإن من جزع جزع قليلاً، عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله عزّ وجلّ بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فأمره بالصبر والرفق فصبر حتى نالوه بالعظائم ورموه بها فضاق

صدره فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1] ثم كذبوه ورموه فحزن لذلك فأنزل الله عزّ وجلّ . . . فإنهم» . . .[2].

ذلك! و«إن رضا الناس لا تُملك وألسنتهم لا تُضبط وكيف يسلمون ما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله عليهم السلام ، ألم ينسبوه إلى الكذب في قوله إنه رسول من الله إليهم حتى أنزل الله عزّ وجلّ عليه ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ . . .﴾؟!.[3].

إن الصبر على التكذيب والأذى للداعية في سبيل الدعوة لا يعني إلَّا الصمود والمواصلة فيها، فلا يكسل ولا يفشل، بل ويظل صامداً مغواراً في سلوك هذه السبيل، أو لا يزداده التكذيب إلَّا تكراراً وإصراراً في الدعوة الصامدة، فإن جوَّ التكذيب، ولا سيما الذي ليس لينال الحق بحجة، إنه مما يحرض حامل الحق على عزم أعزم وهمٍّ أعظم وصمود أتم.

ذلك، ولا سيّما أن الله واعدٌ نصره عاجلاً أم آجلاً، فرصيده مضمون

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٢) نور الثقلين ١ : ٧١١ عن أصول الكافي عن حفص قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام يا حفص: إن من صبر. . . - ثم قال لي: عليك بالصبر. .
وفيه (٧١٢) عن روضة الكافي عن حفص المؤذن عن أبي عبد الله عليه السلام في رسالة طويلة إلى أصحابه: أنه لا يتم الأمر حتى يدخل عليكم مثل الذي دخل على الصالحين قبلكم وحتى تبتلوا في أنفسكم وأموالكم وحتى تسمعوا من أعداء الله أذى كثيراً فتصبروا وتعركوا بجنوبكم وحتى يستذلوكم ويبغضوكم وحتى يحملوا عليكم الضيم فتحتملوه منهم تلتمسون بذلك وجه الله والدار الآخرة وحتى تكضموا الغيظ الشديد في الأذي في الله جلّ وعزّ يجترمونه إليكم وحتى يكذبوكم بالحق ويعاندوكم فيه ويبغضوكم عليه فتصبروا على ذلك ومصداق ذلك كلّه في كتاب الله الذي أنزله جبرائيل على نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم سمعتم قول الله عزّ وجلّ لنبيكم صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ثم قال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ. . .﴾ [الأنعام: ٣٤] «فقد كذب نبي الله والرسل من قبله وأوذوا مع التكذيب بالحق».
(٣) نور الثقلين ١ : ٧١٣ في أمالي الصدوق بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال يا علقمة: . . .

عند الله، مشحون برحمة الله، مأمون بما أتمنه الله، وقد ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[١] - ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[٢] - ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[٣].

فحين يتصبر الداعية على كلّ أذىً ولظىً في سبيل الدعوة، فهو موعود بنصر الله تعالى مستقبلاً، وكما أن لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ قبلاً.

فمهما بلغت التكذيبات والأذيات في هذه الطريق الشائكة الطويلة مداها، فالحجة البالغة لآيات الله دوماً، والنصر الموعود لغَلَبها على من يريد أن يتغلبها، هذان العمادان يوطدان من أعمد الدعوة الرسالية ما لا قبل لها، فيا رسول الهدى، الحامل للرسالة العليا ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾[٤] اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ما ينبئك بحالهم، وحلهم في دعوتهم وترحالهم.

أجل، وإن موكب الدعوة إلى الله موغَل في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماضٍ في الطريق اللّاحب، مستقيم على الخط الواصب، يعترض طريقه المجرمون من كلٍّ صنوفهم، في متراصة صفوفهم، برصاصة لهم متواترة، وهناك تسيل الدماء وتمزق الأشلاء، ولكن الموكب ماض في طريقه دونما انحناء ولا انتكاص وانثناء، ومهما يكن من أمر إمر في البداية فإن نصر الله في نهايات المطاف يترقبهم.

ومن غريب الوفق بين الشدة والصبر - مكافحةً في كلٍّ شدة بالصبر -

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢١.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

أن عديد كلٍّ في القرآن (١٠٢) مما يلح بواجب المكافحة في كلِّ شدة بصبر يناسبها.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

لقد كبر على الرسول ﷺ إعراضهم لحد كأنه يتطلب من الله بإصرار أن يأتيهم بآية يتطلبونه حتى يؤمنوا[1]، ولأن إيتاء الآية المقترحة غير صالح كما يعلم الله، و﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[2] لذلك فقد يعرض الله عليه - كمعترض - أن يأتيهم بآية بنفسه، إعلاماً بأمرين اثنين في جوٍّ عدم المصلحة لإتيان آية: أن الآيات مختصة بالله، وأن السماء والأرض هما المجالان والمخرَجان لإتيان آية، فمن الأرض آية أرضية: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومن السماء آية سماوية: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

---

(١) نور الثقلين ١: ٧١٣ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: كان رسول الله ﷺ يحب إسلام الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف دعاه رسول الله ﷺ وجهد به أن يسلم فغلب عليه الشقاء فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾ [الأنعام: ٣٥].
أقول: مهما كان الإيمان بالله محبوباً لله كما الجمع على الهدى ولكنه ليس ليجمع الناس على الهدى دون اختيار وكما في كتاب المناقب بإسناده إلى سلمان الفارسي عن النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه: يا علي إن الله تبارك وتعالى قد قضى الفرقة والاختلاف على هذه الأمة فلو شاء الله لجمعهم على الهدى حتى لا يختلف اثنان من هذه الأمة ولا ينازع في شيء من أمره ولا يجحد المفضول لذي الفضل فضله.
وفي تفسير الفخر الرازي ١٢: ٢٠٧ المروي عن ابن عباس أن الحارث بن عامر أتى النبي ﷺ في نفر من قريش فقالوا: يا محمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل فإنا نصدق بك فأبى الله أن يأتيهم بها فأعرضوا عن رسول الله ﷺ فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

ثم ولا يريد الله ليحملهم على الهدى تسييراً، وإنما مسايرة باختيار دون تسيير بإجبار، سواء أكان دون أيّة آية أن يقلب أفئدتهم إلى الهدى، أم وبآيات يقترحونها أن يكون الله عند مقترحاتهم الطائلة التي لا طائل نحتها إلّا أعذاراً قاحلة جاهلة و﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾[1].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أن يكبر عليك إعراضهم لحدِّ الإصرار بتطلُّب آية، أم أن يُجبرهم الله على الهدى بأيَّة وسيلة أماهيه من خلاف المصلحة رسولية ورسالية، أترى ربنا يُهدِّد رسوله الأمين هكذا أمام الكافرين؟ كلّا! وإنَّما يعني بذلك أن يعلموا كما يعلم الرسول أنه ليس إلّا رسولاً فليست بيده أيَّة آية، فليس عدم إجابته لمتطلباتهم المقترحة دليلاً على عدم رسالته بعدما جاءتهم الآية الكافية.

فمن الجهل أو التجاهل الإصرار بإتيان آية والله تعالى هو الذي يبعث الرسل بآيات كافية، فتَطَلُّب آية بعد آيات الرسالة الكافية تجهيل لله كأنه لم يكمل آية الرسالة، بخلاً عن تكميلها، أو لا يقدر على إتيانها، أو أنه ضنين برسوله أو برسالته فلم يزوِّده بآية كافية، أماهيه من جهالات بحق الرسل والرسالات والمرسل إليهم.

أوَ بعدما أرسل محمد ﷺ بآية القرآن الكافية فما هو المعني من تطلب آية بعده إلّا تجاهلاً عن كون القرآن آية وهي الآية الخالدة، فقد يتجاهلون بأحرى عن سائر الآيات مقترحة وسواها لأنها دون القرآن في قاطع الدلالة.

ومن ثم وحتى لو كانت هناك آية مبصرة كما القرآن في الدلالة فقضية

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٣-٥.

خلود الرسالة الإسلامية تخليد آيتها الدالة عليه، فلا بدّ - إذاً - من التركيز على آية القرآن دون أية تحولة إلى آية أخرى، اللهم إلّا استطرادية وعلى هامش القرآن.

كلام حول نفق الأرض وسلّم السماء:

«نفق الأرض» وهو سَرَب فيه له مخلَص إلى غير ما هو ظاهر، وهو السبب الأرضي استبطاناً فاستنباطاً لما في الأرض ظاهرها وباطنها، غوراً في أغوار المادة الأرضية، ذلك من الوسائل الربانية لاستكشاف المخبوء في العالم الأرضي لما دون حدِّ الإعجاز لسائر المكلفين، وآية ربانية رسولية أو رسالية لله رب العالمين.

كما وأن ﴿سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ هو السبب السماوي بنفس الاستبطان والاستنباط غوراً في أغوار السماء، إذاً فآيات الله غير خارجة عن الأسباب، لكنها خفية في أسباب الأرض والسماء الكامنة فيهما، لا يعلمهما أو يقدر عليهما إلّا الله.

وليس الله ليسلِّم نفق الأرض أو سلَّم السماء لاستنباط الآية المعجزة لأحد من رسله تخويلاً، لأنه - فقط - فعلُه، الدال على رسالة الوحي لحملته.

ذلك، مهما كان نفق الأرض وسلم السماء فيما دون الآية المعجزة لكلٍّ من يستبطنهما فيستنبط منهما خبايا الخلقة المحيرة للعقول، كسائر المخترعات والمكتشفات الحاصلة على ضوء تقدم العلم البارع الشاسع المحلِّق على خبايا الأرض والسماء.

وكما أن ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[١] تصريحة

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٨.

بسلاليم الوحي الرباني، المستمَع فيها محادثات الملإ الأعلى، وإشارة إلى سلاليم الإذاعة والاستذاعة صوتية وصورية.

وكما أن «سبباً» لذي القرنين كان من الأسباب الغيبية المخصوصة بمن هباه الله إياه، كذلك نفق الأرض وسلم السماء في درجاتهما هما من العطيات الخفيات الربانية، قد يُتسبب بها على ضوء العلم إلى متبغيات من الحياة، وأخرى على ضوء الإيمان بالله إلى كرامات ربانية هي العوان بين مسببات العلم ومسببات الآيات الربانية الخاصة الرسالية، وثالثة يُتسبب بها إلى إثبات الرسل والرسالات بإذن الله دون أي تخويل لأحد من المرسلين فضلاً عمن سواهم.

وهنا ﴿سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دون «سلماً إلى السماء» كما في الطور ﴿سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾[1] دون «يستمعون عليه» ينبهنا أن ليسا هما كسائر السلاليم التي نعرفها، إنما هي سلاليم خفية بحاجة إلى استنباط، كما وأن الحصول على تلك المبتغيات بحاجة إلى استعمال تلكم السلاليم.

فيا للهول الهائل، المنسكب من خلال هذه الإيحاءات الجليلة الجميلة إلى حامل الرسالة الأخيرة، إيحاءات ذات جنبات عدة، ليست لتختص بصاحب الوحي.

فلا يكبر عليك إعراضهم يا رسول الهدى، فإنَّهم صُمٌّ بما صموا ومَيْت بما أماتوا قلوبهم فكيف - إذاً - يستجيبون؟.

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2] عقل السمع وسمعَ العقل؟

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ٤٢.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ... إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾(١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾(٢) حيث قبروا أنفسهم في مقابر الشهوات والإنيات، فغبروها بغبارات الجهالات.

ذلك ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهم أحياء، كما الموتى عن الحياة ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وكما لا بعث لعامة الأموات ليوم الحساب إلَّا من الله، كذلك لا بعث عن موت القلوب إلّا بالله فـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿وَقَالُواْ﴾ هؤلاء المتعنِّتون ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ نبصرها كما أرسل الأولون؟ وقد جاءتهم آية القرآن الكافية: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾(٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ...﴾(٤).

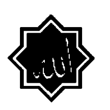
﴿وَقَالُواْ...﴾ مستضعفين رسول الله كأنه ليس رسولاً من الله، أو

---

(١) سورة النمل، الآيتان: ٨٠، ٨١.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٤) سورة القصص، الآية: ٤٨.

مستعجزين الله كأنه ليس بقادر على أن ينزل على رسوله آية! ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ كما يراها صالحة مُصلحة في أيّة مَصلحة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حيث يجهلون تقصيراً أو يتجاهلون.

فالآية الرسالية كما الرسولية إنَّما هي بعلم الله وقدرته: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] - ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[2] - ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾[3].



(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة هود، الآية: ١٤.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ٩٠، ٩١.